مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

معى

د. شوقى ضيف

روائع السيرة الذاتية

د. شوقى ضيف
معى
مكتبة الأسرة ٢٠٠٣





وبعد أكثر من عشرة أعوام من عمر مكتبة الأسرة نستطيع أن نؤكد أن جيلاً كاملاً من شباب مصر نشأ على إصدارات هذه المكتبة التى قدمت خلال الأعوام الماضية ذخائر الإبداع والمعرفة المصرية والعربية والإنسانية النادرة وتقدم فى عامها الحادى عشر المزيد من الموسوعات الهامة إلى جانب روافد الإبداع والفكر زاداً معرفياً للأسرة المصرية وعلامة فارقة فى مسيرتها الحضارية .

سوزان مبارك



التنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب

الثمن ١٥٠ قرشاً

معى



د. شوقى ضيف



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة أدب السيرة الذاتية)

إشراف: د. سهير المصادفة

معى
د. شوقى ضيف

تصميم الغلاف
والإشراف الفنى:
للفنان : محمود الهندى
الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد
الإشراف الطباعى:
محمود عبدالمجيد
المشرف العام :
د.سميرسرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

لا سبيل أمامنا للتقدم والرقى وملاحقة العصر إلاّ بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق المعرفة نتنسم عطرها ربيعًا للثقافة المصرية الأصيلة.. فإننا قطعنا على أنفسنا عهدًا ووعدًا ليس لنا إلا الوفاء به لتثمر شجرة المعرفة عطاءً للأسرة المصرية.

د.سميرسرحان

بسم الله الرحمن الرّحيم



١

فى قرية بجوار دمياط كان يربض مستنقع واسع يشغل أكثر من مائتى فدان ملىء بالأسماك وبنبات البردى وبأزهار النيلوفر (اللوتس) قائمة على سيقانها ليل نهار كأنما تنتظر موعدًا مضروبًا، مطلة برؤوسها وأعناقها فوق مياه غارقة فيها كأنها دموعها، ويسميها أهل القرية والريف المصرى باسم البشنين، وأوراقها تتضامّ ليلاً للنوم فى شكل كأس زمردى، وتتفتح الأوراق فى الصباح مع نسمات السحر وأندائه المتلألئة عن شعل ملتهبة متعددة الألوان بين لازوردى وأرجوانى وكهرمانى. وعند السيقان تستلقى أوراق عريضة مستديرة تتوسد المياه حول قامات البشنين الهيفاء، كأنما تدعوها لتكتب عليها بمداد من حولها ـ لا ينفد ـ ما تشاء.

وفى الجانب المقابل للقرية تقع بحيرة المنزلة بصياديها وشباكهم وبمياهها الفضية البراقة، وكأن سماء من البلور الناصع

تمتد على سطحها المشرق الهادئ الساطع، والمراكب الشراعية تتهادى فيها مقبلة مدبرة، متمايلة مع الريح - تمايل الأغصان - بأشرعتها البيضاء، المتفاوتة الأحجام، وكأنما هى طيور سابحة بجناح واحد فريد، وتقترب فتخالها حسنات منثورة على خدود البحيرة اللامعة البراقة، وتبتعد جانحة إلى المغيب فتخالها أهلة تغرب فى الأفق السحيق.

وكان فى واجهة القرية دور كبيرة بعض الشىء للأسر الموسرة فيها، ومن ورائها تتكدس دور متواضعة مرصوصة على جانبى أزقة ضيقة تتثن وتتلوى فى غير نظام، تعلوها، وتأخذ بخناقها وتلابيبها، لجج من التراب يتناثر عليها دجاج وديكة وبط مرجان وغير مرجان، وفوق الدور هنا وهناك بعض أبراج للحمام، وقبيل المساء يطير منها فى جماعات، ويظل يمرح فى سماء القرية ويدور ميامنًا ومياسرًا فى حركات راقصة، حتى إذا غربت الشمس وأخذ ضوؤها يختفى تدريجًا آوى كل مسرعًا إلى برجه وعشه لا يخطئه.

وفى نفس هذه اللحظات يعود الفلاحون إلى دورهم من الحقول بثيابهم الزرقاء التى لا تملك كثرتهم سواها، فهى وفؤوسهم التى يحملونها فى أيديهم كل ما يملكون من دنياهم، ومعاذ الله أن يكون لأحد من سوادهم بقرة أو جاموسة، فذلك مقصور على ذوى اليسار من القرية، أما جمهورها فقلما يملك واحد منهم شيئًا سوى جلبابه الأزرق وفأسه. وإن مَلك يومًا جَدْيًا أو خروفًا كان من أسعد السعداء، ولم يكن يصحبه معه فى الحقل الذى يعمل فيه حتى لا

يرعى فى حشيش أرضه مع أبقار صاحبها الذى يعمل عنده وأغنامه، وإنما كان يعطيه لغنَّام القرية، يضمه إلى قطيع غنمه الذى يذرع به أزقة القرية فى الصباح والمساء، وهو يصيح عليه بصوته الغليظ هاشًا عليه بعصاه متجهًا به إلى شواطئ الترعة لينتف بأفواهه ما تبقى عليها من حشائش، ومعه فى تجواله وراءها كلب - دائمًا - ينبح كل غاد ورائح ويبصبص بذنبه ويلوِّح به.

وتتم دور الفلاحين العاملين المتواضعة عما بداخلها من ضنك وإعسار. فبعضها بُنى من طين لازب متلاصق. وبعضها بُنى من حجارة لا تكاد تتماسك. والدار عادة حجرتان معهما - أحيانًا - ردهة غير فسيحة، قد تكون مدخلاً تتبعه حجرة واحدة. ويكثر أن يكون للأسرة العاملة أربعة أولاد أو أكثر، وهم مع أبويهم يُحشرون فى الغرفة أو الغرفتين كما يحشر السردين فى عُلبه، والسعيد من أصحاب هذه الدور والأسر من كان لديه كرسى واحد أو كرسيان لاستقبال الضيوف. أما الأريكة أو الكنبة فلا يعرفونها، ولا يعرفون النمارق أو الوسائد ولا الأبسطة ولا السجاجيد، إنما يعرفون الحصير كما يعرفون الأكياب المنسوجة من ورق البردى، وقد يفرشون القش.. قش القمح أو الأرز فى بعض الأركان.

ولا يعرف أحد منهم الفراش الوثير، فالأسرَّة من جريد النخل، ولا سرير من نحاس أو خشب أو حديد، وعلى الأسرَّة بعض الحشايا المحشوة بالقش أو ببعض الحشائش.. ويعود الفلاحون إلى هذه الدور فى المساء، وما يكادون يستقرون بصحبة نسائهم

وأبنائهم حتى يسمعوا أذان العشاء، والمؤذن يجلجل بصوته: الله أكبر، فتهتز أرجاء القرية ويتردد صدى الأذان فى كل دار، ويفد الفلاحون أو كثير منهم على المسجد لصلاة الجماعة، حتى إذا أدَّوا الفريضة عادوا إلى دورهم ليتناولوا العشاء مع أسرهم كلٌّ حسب ما استطاع جَلْبه إلى أسرته.

والعشاء هو الأكلة الأساسية أو الرئيسة فى القرية والريف المصرى، بعد أن يعود الفلاح وصاحب الحقل من العمل طوال اليوم. وكثيرًا ما يتألف العشاء فى القرية من الأرز والسمك، الأرز مما يجنيه الفلاح من الحقل، والسمك مما يحمله إليه المستنقع والبحيرة وقنوات الرى، وكانوا يعرفون الملاعق والسكاكين وقلما استخدموها فى طعامهم، أما الشوكة بأصابعها الدقيقة المدبَّبة فلم يعرفوها أبدًا.

وكانوا يستضيئون بمصابيح الغاز، ويندر أن تظل مضيئة فى دار بعد تناول العشاء، وما تلبث القرية أن تخلد إلى السكون ولا ضوء ولا شعاع إلا فى الليالى المقمرة، أما الليالى الأخرى فيلفُّها ظلام دامس، ولا حركة ولا ما يشبه الحركة، ولا صوت ولا همس، بل صمت مطبق مخيم على كل شىء إلا أن يُسمع من حين إلى حين صياح الديكة الذى يرنُّ - كالأجراس - فى كل الأنحاء. وتغطُّ القرية فى نوم عميق حتى السحر وتباشير الصباح حين يخترق أذان الفجر حجاب الظلام إلى السماء، والمؤذن يصيح: الله أكبر، فتتجافى جنوب كثيرة عن المضاجع ويصيح فى الناس: الصلاة خير من

النوم... فيهبُّون من مراقدهم ويسرعون فى سيرهم إلى المسجد للصلاة.

ويتفلت من أضواء الصباح شعاع إلى كل دار فيستيقظ جميع من فيها، وكأنما يغسل هذا الشعاع غبار النوم من عيونهم، وتبادر فتاة كلِّ دار، فتحمل على رأسها البلاَّص خاويًا - وهو جرَّة كبيرة من الفخار لها عُروتان - وتنادى الفتاة بعض رفيقاتها فيسرّن معًا وعلى رءوسهن البلاليص أو تلك الجرار الكبيرة، ويمضين إلى الترعة فيملأن جرارهن، ويضعنها على رءوسهن فى وضع محكم غاية الإحكام، وكأنما وضعت بميزان لا يحيف ولا يجور أبدًا، وهن لذلك لا يُمَسكن بها، إذ لا تميل يمنة ولا يسرة، فقد أصبح ثباتها على رؤوسهن كأنه جوهر دخل فى تركيبها، وفى أثناء سيرهن يتحدثن ويتضاحكن، حتى تصل كل منهن إلى دارها، فتدفع بجرتها إلى زير مُعد لذلك تجد فيه أسرتها حاجتها للشرب والرى طوال النهار، وهو منظر مألوف فى قرى مصر حتى اليوم، منظر بديع، إذ ترى الفتيات يحملن فى الصباح الباكر هذه الجرار الكبيرة المليئة بالماء، وكل فتاة تختال فى مشيتها، كأنما تريد أن تعلن إلى أبويها وأهلها أنها ستظل - دائمًا - ترعاهم وتحمل إليهم - ما استطاعت - الشراب والغذاء.

وكل ذلك قبيل شروق الشمس، حتى إذا أطلت من الأفق بطلعتها وأضوائها البهية فتحت لها الزروع صدورها الندية، فعانقتها وطوقتها بقلائدها الذهبية، وحينئذ ترى الفلاحين شيبًا وشبانًا

ماضين إلى الحقول بفئوسهم، ويتبعهم بعض نساء القرية وفتياتها من أسرها المتواضعة ممن يعملن فى الحقول مع الرجال والفتيان جنبًا إلى جنب، يبذُرْن الحب، ويسقين الزرع، ويشتلن ـ أو يغرسن ـ شتلات الأرز وغروسه، وينزعن أوراق القطن المصابة من فروعه الخضراء ليصبح معافىً من الآفات، حتى إذا تفتح لوزه أو كُراته وثماره وتهدلت خُصله البيضاء الناصعة أخذن يجمعنه ويجنينه وهن يغنين أهازيجهن الريفية.

وجميعهن لا يعرفن البرقع ولا الحجاب فهن مثل أخواتهن فى ريف مصر ـ دائمًا ـ سافرات، فحجابهن وبرقعهن الحياء المترقرق فى أسارير وجوههن، وهن لا يعرفن الثرثرة ولا النظرات المغرية ولا الإيماءات والغمزات الكاذبة، فالبراءة تتألق على جباههن.

وكما أن للرجال والشباب من أهليهم الجلباب الأزرق لا يخلعونه. كذلك لهن الثوب الأسود سواد الطين الذى يعملن فيه لا يزايل أجسادهن، فهو كل ما يملكن وكل حليهن وزينتهن، لا يعرفن شيئًا وراءه إلا ما يرَيْنه على نساء الموسرين فى القرية، لا يعرفن الثياب الملونه ذات الحمرة القانية أو الزرقة الصافية.. ومعاذ الله أن يعرفن الثياب الشفافة والأخرى الحريرية المزركشة.. ومعاذ الله أيضًا أن يعرفن المساحيق البيضاء بياض الياسمين أو الحمراء حمرة الورد والياقوت.

ومع ذلك فكثيرات من هؤلاء الريفيات البائسات تجرى فى وجوههن نضرة الحياة بأكثر مما تجرى فى وجوه كثيرات من بنات

الموسرين فى القرى أو البنات الحضريات لفارق مهم هو نفس فارق الأزهار التى تعيش طليقة فى الطبيعة ناعمة بمهدها من التربة وما يحتضنها من أشعة الشمس وبما يتلألأ عليها سحرًا من حبَّات الندى، والأزهار الأخرى التى تعيش حبيسة فى الأُصص والظلال داخل البيوت والجُدران.

وحقًا كان يحف بحياة الأسر المتواضعة فى الريف بؤس كثير، غير أن من الحق ـ أيضًا ـ أنك كنت ـ دائمًا ـ ترى البسمة ترفُّ على عيون الجميع نساء ورجالاً وفتيات وفتيانًا وعلى شفاههم، وكأن الأمل فى حياة أفضل وأبهج وأروع لم يكن يزايلهم أبدًا؛ إذ لا يزال يتسلل إلى نفوسهم تسلل أضواء الفجر أواخر الليل فى الآفاق.





لأسرة من أسر السكان فى واجهة القرية وُلد طفل لأبوين فرحا به،، لا لأنهما لم يرزقا ولدًا ذكرًا قبل ذلك، بل لقد رزقا ولدين قبله، غير أن الموت اختطفهما سريعًا، ولعل ذلك ما جعل أمه تبالغ فى رعايتها له وعطفها عليه عطفًا لم يبرح ذاكرته يومًا، وكانت بارَّة بزوجها الشيخ العالم، فهى - دائمًا - تعزه وتجُلّه، لا لأنه كان ابن خالتها فحسب، بل أيضًا - لأنه كان دمث الخلق لا يصدر فى شىء إلا حسب مشيئتها، إذ استقَّر فى نفسه أنها أَحْصَفُ منه وأبعد نظرًا. وحقًّا كانت كذلك، وكان قلبها ينطوى على رحمة بالغة للضعيفات والضعفاء من حولها، رحمة ترافقها إرادة حازمة صلبة، وشيئًا من إرادتها المصممة ورثه الطفل فيما ورثه عنها من الشيم والأخلاق.

وأحست فى أوائل رضاعتها لطفلها أنه لا يجد عندها غذاءه الكافى، وكان ممن يترددن عليها من نساء القرية المتواضعات أم

لطفلة ثَكِلت زوجها حديثًا تاركًا لها ابنتها فى مهدها، فسألتها: هل تجد عندها ما يكفيها من الغذاء، وأجابتها على الفور: إنه يزيد عن حاجتها، وليتك تعطينى طفلك فإنى أضيق بما يبقى من ابنتى، وناولته لها، فضمته إلى صدرها، وظلت تختلف كل يوم لتشارك فى رضاعته، وبذلك ضم الطفل إلى أمه أمًا ثانية مرضعة، وكانت له أخت تكبره فضم إليها بالرضاع أختًا ثانية.

وكان الأب قد أكمل تعلمه فى المعهد الأزهرى بدمياط، وعزف عن أن يتقلد وظيفة من وظائف رجال الدين، فعاد إلى قريته قبيل اقترانه بأم الطفل مكتفيًا بمزرعة صغيرة تعوله هو وأسرته. ومنذ مَشىَ الطفل وأخذت تنحلُّ عقد لسانه كان يرى أباه فى كل صباح يقرأ شيئًا من كتاب الله وبعض الأوراد فى كتاب دلائل الخيرات. وكان الأب سمح النفس محبوبًا من أهل القرية لا لدروسه الدينية التى كان يعقدها لهم فى المسجد - أحيانًا - بين صلاتى المغرب والعشاء فحسب؛ ولكن أيضًا - لسعيه لهم - بقدر ما يستطيع - فى مصالحهم غير منتظر منهم أجرًا ولا شكرًا.

وكان الطفل كثيرًا ما يرى فى يد والدته سُبْحة تذكر الله عليها وتسبح بحمده، محركة خرزاتها خرزة بعد خرزة حتى تبلغ المائة عدًا ثم تبدأ من جديد نفس الدورة، وكانت على الحائط سبحات أخرى معلقة، ولم يكن أبوه يستخدمها؛ فهو يسبّح الله ويذكره كثيرًا عقب الصلوات ولكن دون حاجة إلى سبحة وخرز يعدُّ عليه ذكره وتسبيحه، وكان يكثر من تلاوة القرآن الكريم كلما وجد فراغًا وخلا إلى نفسه، فهو سلواه وريحان فؤاده.

وكل ذلك كان القَطْر والنَّدى والأريج والشذَى الذى تفتح فيه الطفل كما تتفتح البراعم، فاسم الله - دائمًا - يتردد فى أذنه، بل ينقش نقشًا فى صدره وعلى قلبه، وتنقش معه محبة الخير لأبويه وشقيقته الكبرى ولأمه وأخته من الرضاع ولكل من حوله؛ ورث ذلك عن أبيه وأمه وكانا لا يعرفان بغضًا للناس ولا ضغينة، وكأنما صنعا طفلهما على مثالهما، فنشأ لا يحمل ضغينة لأحد ولا بغضًا أو موجدة.

وكان الطفل يبدأ يومه - دائمًا - بتحية أبويه، ولم تكن التحية كلامًا، بل كانت تقبيلاً لليدين الكريمتين، يد الأب ويد الأم - واجب يومى كان الطفل يؤديه صباح كل يوم كما يؤديه أطفال القرية من حوله، بل كما يؤديه أطفال الريف المصرى جميعًا، وقد أقلعت الكثرة من الأسر فى مصر الآن عن هذه العادة، وخاصة الأسر المثقفة ثقافة عصرية أو التى تدعى لنفسها شيئًا من المدنية كأنها تعد ذلك ضربًا من العبودية أو من الذلة، ولا أدرى من أين جاءها هذا الاعتقاد؟ أغلب الظن أنه جاءها من بعض من رأوا الحياة فى الغرب أو تعلموا فيه ولم يروا هذه العادة هناك، فظنوها عادة سيئة، وهى إنما تكون سيئة أشد السوء إذا وُجِّهت لغير الأب والأم، أما هما فحرى بالولد أن ينشأ على تقبيل يديهما تجلة لهما واحترامًا.

وربما كان ما يلاحظ الآن على بعض الأبناء من أنهم لا يحترمون آباءهم الاحترام الكافى مرجعه إلى إبطال هذه العادة

الطيبة التى كانت تحيل الأب والأم إلى ما يشبه قديسين فى نظر الأبناء، أما وقد أبطلت فلم تعد لهما عند كثيرين منهم هذه القداسة ولا ما كان لهما من الإجلال.

وكانت لجد الطفل مزرعة صغيرة بجوار القرية يمتد على مرواها نخل مرصوص كثير. النخل العادى المعروف باسم نخل البلح الرملى، ونخل آخر لا يدرى الصبى من أين جاء جده بغروسه؛ لأنه كان لا يستحيل رطبًا أبدًا، بل يظل فى عِذقه حتى تزداد حلاوته جدًا ويتجمع عليه كثير من الزنابير، ويأخذ الجناة فى جنيه وجمعه. وكان بالمزرعة بعض أشجار للتوت والجميز والرمان وورود ورياحين أرجة.

وكانت المزرعة على قيد خطوات من دار الطفل فبمجرد أن خطا إلى الربيع السادس من حياته أخذ يتردد على المزرعة مسرِّحًا الطرف فى زروعها وثمارها. وكان من أروع ما يعجبه فيها النخل بقامته السامقة المهيبة وأجنحته العالية من السعف الأخضر الممتدة - دائمًا - فى الفضاء امتداد كله جلال ووقار وأبهة وكبرياء. وكثيرًا ما كان أبوه يصحبه معه إلى مزرعته لقضاء بعض أعمال بها وكان يفرح لهذه الصحبة وخاصة فى المساء. إذ يتاح له رؤية الشفق على أفق السماء الغربى، وكأنه يصبغها بألوان مضيئة وردية وبنفسجية وياقوتية وذهبية، وتتداخل الألوان بعضها فى بعض بالطول وبالعرض، مع شُطب وخطوط وتموجات بهيجة. ويأخذ الشفق فى الغروب ويختفى تدريجًا وكأنما الطفل فى حلم، فيفرك عينيه. ويستدير نحو نداء يسمعه، إنه الحالب للبقرة يناديه، فيسير

إليه، ويناوله قَعْب اللبن أو وعاءه، وقد امتلأ إلى حوافيه، فيعبّ منه حتى يرتوى، طبعًا دون أن يُغلَى، دفعًا لما قد يكون فيه من ميكروبات، فأبناء الريف المصرى - وكثير منهم حتى الآن - لا يعرفون شيئًا عن الميكروبات، حتى يخشوا منها على أنفسهم أذى أو ضررًا.

وكانت أم الطفل تصحبه هو وشقيقته فى الليالى المقمرة إلى سطح الدار، ولم تكن دارهم وحدهم، بل كانت دار الأسرة جميعها: دار الجد والأعمام ونساءهم وأولادهم، ولكل أسرة فيها ركنها الخاص بها المكون من حجرتين وردهة واسعة، وكانت الأم تصعد بابنيها إلى السطح للفرجة على أشعة القمر الفضية وهى تكسو البحيرة بأضوائها الساطعة، وتأخذ البحيرة أمام القرية شكل خليج واسع تستدير حوله الزروع وأشجار النخيل الشامخة فى زهو وخيلاء.. منظر لا ينسى الطفل مدى روعته فى نفسه.

وكانت أخته كلما رأت بعض المراكب تتمايل مع الريح مصعدة أو منحدرة هللت، والأم تحدِّق بعينيها وهى ساكنة صامتة. وكانت تظهر من حين إلى حين سفينة صيد عليها الصيادون وفى أيديهم الشباك يصيدون بها السمك، وكانوا يعودون إلى القرية بمقادير منها كبيرة تزيد عن حاجتها فيبيعونها لتجار السمك ممن ينتظرونهم صباح مساء.

وكانت أمام دار الصبى قناة يغسل فيها فتيات القرية ملابس أسرهم وأوعيتها، وكنَّ يُحدثْن ضجيجًا، وخاصة حين يسقط إناء

من فتاة فى قاع القناة أو يبعد عن يدها إزار أو رداء، وكانت الفتاة تمسك حينئذ بيد إحدى رفيقاتها، وتمدّ يدها الثانية إلى القاع بحثًا عن الإناء حتى تجده، أو ترسل تلك اليد وراء الرداء أو الإزار حتى تلتقطه وتعيده. وكانت بين مسجد القرية والقناة خُطًا قليلة تناثر عليها بلاط ليخطو عليه المتوضئون، وكان الطفل وأمثاله من الصغار والصبية لا يستطيعون أن يقفزوا من بلاطة إلى بلاطة فكانت أقدامهم لا تكاد تلمس الأرض بين بلاطتين حتى يضعوها بحذر على البلاطة التالية.

وكانت فى القرية مدرسة أولية أخذ الصبى ينتظم فيها منذ السنة السادسة من حياته، وكانت لأبناء سكانها عامة الموسرين منهم والمعسرين، إذ لم تكن القرى الريفية تعرف شيئًا من الفرق فى التعليم بين أبناء الفئتين بحيث يكون لكل منهما مدارسه الخاصة كما فى المدن، فالجميع فى القرية سواء يشتركون فى كل شىء كما يشتركون فى الماء والهواء. وحقًا كان هناك الملاك وكان هناك الأُجرَاء، ولكن إذا أمعنتَ النظر واستقصيت وجدت بين الجماعتين رحمًا وقرابة، فكل أسرة فيها من اتسع رزقه فملك العقار ومن ضاق رزقه واشتد ضيقه حتى لم يملك سوى جلبابه الأزرق وفأسه الذى يفلح به الأرض.

وربما كان هذا الصبى مثلاً لقيام الأواصر فى القرية بين الموسرين والمعسرين، فله أخت شقيقة من أبيه وأمه، وله أخت من الرضاع، وأهل الأختين يختلفان يسارًا وإعسارًا. ومع ذلك فالصلة بين الصبى وأختيه وثيقة وهى صلة تقوم على الحنان والتعاطف الرقيق. وبالمثل كانت تقوم الصلات فى القرية بين جميع أهلها، كأنهم أسرة واحدة ولذلك مظاهرة كثيرة، فابن المالك للأرض لا ينادى أجيرًا أو فلاحًا إلا ويسبق اسمه بكلمة «عمى» أدبًا لطيفًا. والملاك والأجراء يأكلون معًا فى المواسم والأعياد، ومن كن يَقُمْنَ على الخدمة فى الدور من الفتيات كن يأكلن مع صاحبة البيت وبناتها ولا يشعرن أبدًا بشعور ذلة أو ضعة أو أنهن خادمات لسيدات أو سادة، فرب البيت يناديه بلفظ عمى، ويشعرن بحق أنهنّ يعملن فى دورهم لا مستأجرات.

وكما يجتمع الرجال فى المسجد للصلاة لا فرق بين موسر ومعسر؛ كذلك كان يجتمع أبناؤهم فى المدرسة الأولية للتعليم دون أى فارق فى الانتفاع به، بحيث إذا أظهر أحد أبناء الأجراء أو الصيادين فى القرية استعدادًا واضحًا للنبوغ والتفوق فى إكمال التعليم لم تُسَدّ أمامه الأبواب، بل فُتحت على مصاريعها اعتزازًا من القرية بابنها المتفوق النابغ.

وكانت المدرسة الأولية فى القرية حينئذ مدرسة مختلطة، يختلط فيها البنون والبنات أو الذكور والإناث اختلاطًا طبيعيًا وكأن المدارس الريفية هى التى استجابت مبكرة لفكرة الاختلاط فى التعليم، وكان الإناث والذكور فيها يتنافسون فيما بينهم منذ التحاقهم بها فى سنوات حياتهم المبكرة، وكأن التنافس فى حقيقته سُنَّةٌ من سنن الإنسان، سنة فى نفسه وفى جوهره وطبيعته فهو -

دائمًا - يتنافس مع زملائه وزميلاته ذكورًا وإناثًا سواء فى المدرسة أو فى الحقل أو فى المصنع. وكان التنافس على أشده فى المدرسة بين البنين بعضهم وبعض وبينهم وبين البنات، وكان البنون أكثر تفوقًا فى دروس الحساب والمحفوظات بينما كانت البنات يتفوقن عليهم فى دروس الإملاء، فكان المدرس القائم على المدرسة حين يُمْلى موضوعًا تسرع بعض البنات بترداد الكلمة الأخيرة إيذانًا أو إعلامًا بأنهن انتهين من كتابة الجملة المملاة، وكان الصبى يبطئ فى الكتابة، ولا يستطيع - مهما حاول الإسراع - اللحاق بهن أبدًا.

ولم يكن المدرس يشتد على التلامذة فى التعليم مستخدمًا عصاه أو مقرعته أو مسطرة من حديد كان يضعها معهما على منضدة بسيطة أمامه؛ إذ كان يكتفى - تخويفًا لهم - بأخذ ابن له معهم بالشدة، بل بالقسوة المتناهية حين يلفظ بكلمة خطأ أو يكتبها ويخطئ فى بعض حروفها أو يغلط فى حل مسألة حسابية فإنه كان حينئذ يضربه مؤثرًا ضربه بالمسطرة الحديدية حتى لا يعود إلى غلطه أو خطئه، وكثيرًا ما كان يعود، فيضربه بالمسطرة من جديد، ويظل التلاميذ والصبى معهم يشعرون بخوف ما بعده خوف، ولا يعرف فى هذا الزمن غير البعيد فى أواخر العقد الثانى من القرن الحاضر هل كانت الهيئات المشرفة على التعليم الأولى فى مصر تحرم - أو أنها كانت تحلّ - ضرب التلاميذ فى الكتاتيب والمدارس ضربًا مبرحًا، فضلاً عن ضربهم بمساطر من حديد... بأسها شديد!

وذات يوم من أيام الصيف فى سنة الصبى السابعة عرضت عليه أخته الشقيقة أن يذهب معها إلى مزرعة أبيه، وكانت تبتعد عن القرية بنحو كيلومترين ونصف أو أكثر قليلاً، فقال لها: إنى أخشى كلاب الحراسة فى الطريق أن تخرج علينا من بعض الدور أو من بعض الحدائق وتعضنا، فقالت: لا تخف مادمت معك، وما كادا يتقدمان فى الطريق حتى سمع الصبى نباح كلب، فوضع ذيل ثوبه بين أسنانه وأطلق ساقيه للريح، فأسرعت أخته خلفه وأمسكت به وأقنعته أن الكلاب لن تتعرض له مادامت قد سلمت منه ولم يرمها ولا قذفها بطوبة أو حجر.

وأنس لكلام أخته، وسرعان ما عاد يرافقها، وبالقرب من مزرعة أبيهما سمعت كلاب حراسة وطء أقدامهما على الطريق فنبحت وصاحت وصخبت، وجرى كلب منها نحوهما فجمد الدم فى عروق الصبى، وخشيت أخته عليه أن يعضه الكلب فحملته، وجرت تقطع الطريق، ولم يرجع الكلب بل أسرع وراءهما يصيح مغيظًا مغضبًا، وتصادف أن كان رجل مارًا بالطريق فلوَّح للكلب بعصاه وزجره ورده.

ووصلا إلى المزرعة متعبين مجهدين، فلم يجدا أباهما، ومكثا فيها قليلاً، وفى عودتهما رأت الأخت أن تعدل عن الطريق الممهد لما فيه من الكلاب وأن تشق لنفسها وللصبى طريقًا تخترق به المزارع، واعترضهما مسرب للمياه، فقالت له: هلم بنا نقفز هذا المسرب الصغير، ولم تلاحظ أن الصبى أصغر من أن يستطيع

قفزه، وشمرت ثوبها، وقفزت وأصبحت فى جانب والصبى فى جانب، ولم يعد أمامه إلا أن يتبعها، فرجع إلى الوراء خطوات، وجمع عزيمته، وأسرع فى المشى مشمرًا ثوبه، وقفز، وإذا به فى وسط المسرب، وصرخت أخته كى يلحقها أحد الفلاحين لإنقاذ الصبى، وسرعان ما أغاثها واحد منهم فأنقذه.

ولم تكد أمهما تراهما حتى سألت عن الخبر، فلما عرفت ما جرى للصبى عنفت أخته بشدة. وربما كان هذا الحادث هو السبب فى أن الصبى لم يقبل بعده على الاستحمام فى الترعة كعادة أبناء الريف، فلم يتعلم السباحة؛ إذ ظل يخشى الغرق إن هو غامر مثل لداته وسبح فى الترعة معهم.

وأخذ الصبى يكثر من الغدو والرواح إلى مزرعة جده كلما سنحت له فرصة، ومع أنه كان يخاف من الاستحمام فى الترعة لم يكن يخاف من تسلق الأشجار، وكان يحب خاصة تسلق أشجار الجميز لسهولة التسلق عليها وسهولة القعود على أغصانها؛ إذ تمتد وتستعرض وكأنها أذرع مريحة، بل منها ما يشبه وسادة صغيرة، وكان الصبى يصعد كثيرًا إلى تلك الأشجار لجنى جميزها.

وكان التسلق على النخيل أكثر صعوبة من التسلق على شجر الجميز، ولكن جمال لون البلح وحمرته الساطعة كانتا تدفعانه دفعًا - دون ريث - إلى صعود أشجاره وجنى البلح الأحمر من أعذاقه وشماريخه الطويلة، وكان يعجبه منه الملون ذو اللونين المتقابلين: اللون الأحمر واللون الضارب إلى الصفرة، وكان اجتماع اللونين فيه

يجعله أجمل وألطف شكلا، وحين يظهر فى الشماريخ بعض الرطب كان يتسابق هو وبعض الصبية من أبناء عمومته إلى الصعود على النخيل لاقتناصه. وبَوْنٌ بعيد بين طعم هذا البلح الذى كان يجنيه بيديه الصغيرتين وطعم البلح المماثل الذى طَعِمَه فيما بعد بالمدن حين شبَّ عن الطوق وبعد عن الريف.

وكذلك كل ثمار القرية مقرونة إلى ما يُجنى منها ويرسل به إلى بعض المدن حتى الخيار، فخيار الريف فى حقله شىء آخر غير الخيار الملقى على العربات فى المدن أو فى الدكاكين؛ لا لأنه طازج فحسب بل - أيضًا - لأن جانيه هو طاعمه الذى يختاره بيده، فى حقله وقل ذلك فيما يختاره الصبية بالريف من الفواكه وغيرها، فما يقطفونه يكون حبيبًا إلى نفوسهم، وكأن هذا القطف نفسه له تأثير فى القاطفين.. تأثير بعيد.

ودائمًا يوجد فرق بين ما يقطفه الإنسان بيده وبين ما يقطفه له غيره، وهو فرق ما بين إرادته ورغبته الكاملتين وإرادته ورغبته الناقصتين، ونفس رؤية الثمار على أشجارها شىء يختلف تمام الاختلاف عن رؤيتها مجموعة فى الدكاكين، وهل يمكن لدكان من دكاكين الفواكه أن يتيح لك رؤية البلح الأحمر فى عِذْقه مثلاً غارقًا فى أضواء الشمس، أو رؤيته - وهى ساطعة عليه - مختلطًا ببعض الرطب أو ببعض البلح المخدد الملون.

وهذا نفسه ما لاحظه الصبى فيما بعد حين رأى الورود والرياحين فى محلات الأزهار بالمدينة وما كان يراه منها فى

القرية، فالوردة المزهوة التى كان يبصرها فى صباه رافعة الرأس على ساقها أو مائلة ميل خُيلاء تختلف من كل وجه عن الوردة الغريبة المنكّسة فى واجهات محلات الأزهار، فتلك وردة نابضة بالحياة دافقة بالنضرة، وهذه وردة فارقت منبتها وموطنها، قُطفت من شجرتها عنوة لتوضع فى زهرية فهى تعطى اللون والشذى إلى حين، ولكن لا تعطى الحيوية ولا مجموعة الألوان البراقة التى تعطيها الوردة حين تشرق عليها الشمس وحبات الندى تلمع على أوراقها، وفى الظهيرة حين تتسكب فيها أشعة الشمس، وفى المساء حين تفضى الشمس إلى الغروب وتستقبلها ألوان الشفق الزاهية.. والوردة فى كل هذا النعيم للطبيعة تتمايل على أغصانها والنسيم من حولها يداعبها طوال الليل والنهار، وماء القنوات يجرى منسابًا متدفقًا من تحتها، والطير تغنى وتشدو، وتملأ الحقول شدوًا وغناء.

وكان مما يروع الصبى رؤيته الفلاحين وهم يشقون أديم الأرض بمحاريثهم وما ثُبِّت فيها من نِصال الحديد مودعين فى الأرض حبوب الزروع وكذلك رؤيتهم وهم يروونها ويدفعون ماء الحياة إلى شرايينها الكثيرة بآلات يديرونها منذ أقدم الأزمنة، ظلوا جيلاً بعد جيل وقرنًا بعد قرن ينقلون بها الماء من الترع إلى قنوات الزروع الصغيرة مستخدمين فى ذلك طنابير أسطوانية منذ مئات السنين وسواقى كبيرة مؤلفة من دواليب ضخمة قائمة على آبار عميقة وقد ثُبِّتت عليها قواديس أشبه بكيزان كبيرة، ويدير الدولاب - عادة - زوج من الثيران أو البقر أو الجاموس، فتهوى القواديس فارغة إلى قاع البئر، وتصعد زاخرة بمياه فضية تسيل فى أكواب متسعة من

القنوات والمراوى إلى الزروع رحيقًا من النيل العذب. وفى أيام الفيضان كان يتضرَّج الرحيق بحمرة الطمى رمزًا لما يحمله إلى الزروع من دم الخصب ورغد العيش والحياة.

ودائمًا تُطْرب السواقى سامعها فى أثناء دورانها وجَلبها لماء النيل بلحون حزينة، وكأن كل ساقية فى الوادى الأخضر الزمردى تبكى وتذرف الدمع على عاشق دفين، وما تنى القواديس تحمل دموعها التى لا تنفد ولا تفنى أبدًا. وعادة تدور السواقى نهارًا أو ليلاً. وكان يتصادف فى بعض الليالى أن يستيقظ الصبى ويستمع إلى غناء الساقية وغناء سائقها الساهر معها، ويختلط الغناءان الشجيَّان فيطرب الصبى لما يرسلان من مختلف اللحون.

ولم تكن أم الصبى من القرية ولا من إحدى قرى دمياط بل كانت من قرية بجوار بلدة المنزلة. وقد نشأ الصبى يرى فى مكتبة أبيه كتب فقه وحديث مختلفة، وكان جده شيخًا مثل أبيه، وكان لهذه النشأة فى بيئة دينية أثر عميق فى نفسه، فقد نما عوده على محبة الإسلام ورسوله الكريم وإعزازهما وتوقيرهما وتقديسهما، وكان فى مكتبة أبيه بعض كتب تاريخية وأدبية مثل: فتوح الشام وديوان ابن الفارض وقصة ماجدولين للمنفلوطى، فكان الصبى ينظر فى هذه الكتب وأمثالها - أحيانًا - وفى بعض الكتب الدينية.

وكانت أم الصبى تعتز بأبيها اعتزازًا شديدًا، وكان قد توفى وهى فى الثالثة عشرة من عمرها، وكان عمدة من عمد الريف على شىء من اليسار ولكن لم يكن من أهل الثراء، وكانت ابنته لا تزال

تقص لطفليها عنه قصصًا كثيرة، وكيف كان يحبها ويدللها مع حزم فيه، وتحكى من حزمه فى تربيتها وتربية أخ لها أن الأخ غضب يومًا فلم يُقبل على العَشاء كعادته، وعبثًا حاولت أمه أن تسترضيه ليتناول عشاءه، ولاحظ الأب ذلك فطلب من الأم أن تتركه وترفع العشاء وتعطيه مفتاح الغرفة الخاصة بالطعام ووضعه فى جيبه، وبات خالُ الصبى جائعًا، ولم يعد بعدها للغضب على الطعام، بل كان يأكل ما يقدَّم له دون أى غضب أو ما يشبه الغضب.

وما أكثر ما قصَّت الأم على الصبى وأخته كيف كان يستشعر أبوها كرامته أمام الحكام والكبراء، وكانت تردد لهما أن على مبارك الوزير المشهور فى القرن الماضى أراد أن يشترى ضيعة من الدولة وحكَّم نفرًا من العمد حول بلدته «برمبال» القريبة من المنزلة، ليقدروا له فى الضيعة ثمن الفدان الذى سيحسب على أساسه ثمنها الكلى، فكلهم رأى مجاملته، وقدَّر الفدان فيها بثمن بخس، وسأل أباها فقال له: ليست صحيحة هذه الأثمان التى قُدِّرت للفدان، فثمنه الصحيح يزيد على ذلك كثيرًا، وسأله أن يعيِّنه، وأخذ برأيه، وربما كان لهذه القصة التى رددتها الأم على سمع الصبى كثيرًا أثرًا فى أن يحق فيما بعد الحق فى آرائه وأحكامه، فلا يداهن ولا يجامل، غرس خلقى غرسته أمه فى نفسه منذ بواكير حياته.

وكان الصبى يألف جدته أم أبيه ويجلس إليها كثيرًا، وكانت تحكى له بعض ما سمعته من أخبار الفتوح الإسلامية مما كان يقرؤه جده لها؛ إذ كان شغوفًا بتلك الأخبار - وأيضًا - بأخبار الخلفاء، وكانت لا تزال تقصُّ على الصبى بعض الأقاصيص، من ذلك أقصوصة حكتها له عن الخليفة المأمون بن هارون الرشيد ظلت لا تبرح ذاكرته، ومؤداها أنه كان مارًا فى موكبه ببغداد فى أحد الأيام، وحين وصل به الموكب إلى قصر أبيه الرشيد حانت منه التفاتة إلى نوافذه وشرفاته، فرأى زوجة أبيه زبيدة تطلُّ للفرجة على موكبه، وأحس أنها تتمتم بكلمات، فأوقف المأمون الموكبَ وصعد إليها، فاستقبلته مرحِّبة، وسألها عما كانت تتمتم به من كلمات غير بَيِّنة، فحاولت أن تموِّه عليه وتتخلص من سؤاله برفق، ولكنه ألحَّ عليها واستحلفها بأبيه الرشيد. وكان قد نشب خلاف عنيف بينه وبين ابنها الأمين وتحاربا ودارت الدوائر على الأمين وقُتل فى الحرب، فلما استحلفها بأبيه لم تر بُدًا من أن تذكر له بصدقٍ ما كان يدور فى نفسها من كلمات، وقالت له: أما وقد استحلفتنى بأبيك الرشيد فإنى أذكر لك بحق ما حدثتنى به نفسى، لقد كنت أتمتم: ليت هذا الموكب كان لابنى الأمين، وكان هو الذى انتصر على أخيه المأمون.

وطيَّب المأمون خاطرها، وندم على ما كان منه من محاولة التعرف على ما جال فى خاطر زوجة أبيه، مما كانت تتمتم به وما كان من إسرافه عليها فى الإلحاح حتى سمع منها ما كان فى غنى عن سماعه، واستأذن منها فى الانصراف وهو يقول فى نفسه نادما: لعن الله الإلحاح والملحين.

ولعل هذه الأقصوصة التى لقنتها الصبىَّ جَدَّتُه وهو صغير السبب الحقيقى فى أنه تعود أن يأخذ نفسه بأن لا يلح فى أى شىء، وألا يفكر فى التعرف على أى خبر يمس شخصاً مهما تكن صلته به، وظل طوال حياته لا يزدرى شيئاً ازدراءه للتطفل والمتطفلين الذين يتسقطون أخبار الناس؛ وهى خصلة زرعتها فى نفسه هذه الجدة الريفية الأمية من جدات الجيل الماضى اللائى كن يعرفن كيف يلتقطن من الأقاصيص والأخبار ما يربين به أحفادهن تربية قويمة.

وبمثل هذه الأقصوصة كانت الجدات الأميات فى جيل الصبى ما يزلن يحاولن تبصير الأحفاد بالحياة وما ينبغى أن يتحلوا به فيها من سلوك قويم، وكانت أم الصبى تحفظ ما لايكاد يحصى من الأمثال وكانت تقول لابنها دائماً : علِّمها لى أبى . وكأنها كانت كل ثقافة الأمهات فى جيل الصبى والأجيال الماضية، وهن يحاولن ذكرها لأبنائهن لتتسع خبرتهم بالحياة، وبدون ريب كان الصبية حينئذ يجدون فيها من الحكمة على ألسنة هؤلاء الأمهات ما لا يجده صبية اليوم فى كثير من القصص المسمى بأدب الأطفال، حكمة تصور الحياة فى عبارات مركزة توارثتها الأجيال على ضفاف النيل.

وجدير بأمهات الصبية فى الجيل الحاضر أن يحتفظن بشىء من هذه الحكمة يغذين به أبناءهن، ويبدو أنه لم يعد عندهن من الوقت ما يتيح لهن الحفاظ على ذلك لأولادهن؛ فالعمل خارج المنزل فى الوظائف كثير، والمعرفة تشعبت وتراكمت فى أذهانهن بحيث ضاعت منهن الحكمة البصيرة التى كانت لأمهاتهن فى منحنيات معرفتهن المنوعة ومنعرجاتها حتى لكأنما المعرفة المتراكمة والحكمة نقيضان لا يجتمعان؛ وحرى أن يتلافى ذلك المربون والمعلمون فيعرضوا على الصبية فى الجيل الحاضر بعض طرائف الحكم التى تضىء لهم الحياة وتجعلهم يسيرون فيها على هدى بعيون أكثر يقظة وأحدّ بصرا.

وكانت الجدة تقص على الصبى أقاصيص كثيرة عن الجن والعفاريت، وكانت تحكيها للصبى وهى شديدة الإيمان بها، وخاصة أقاصيص الجن الذين كانوا يتراءون فى الليالى الداجية المظلمة لمن يسهرون على السواقى لرى الأراضى، فهذا فلان الذى يعرفه الصبى مثلت له ست سيدات من الجن ذات ليلة، وهو يسير خلف بقرتين مشدودتين إلى إحدى السواقى، وكل منهن تحمل ابنها على يدها اليسرى، ولم يتبادر إلى خاطره أنهن من الجن بل ظنهن من الإنس، فصاح بهن، فلم يلتفتن إليه، فحاول الاقتراب منهن، حينئذ تجمعن كأنهن يردن النجوى والحديث سرا، حتى إذا أصبح قاب قوسين منهن أو أدنى لم ير واحدة منهن أمامه؛ إذ اختفين وكأن الأرض ابتلعتهن!

وكانت الجدة تقول للصبى: إن الجن والعفاريت تتشكل - أحيانًا - بأشكال بعض الحيوانات؛ وقصت عليه فيما قصت من ذلك أن شيخًا - وتسميه للصبى - كان إمامًا لمسجد تعوَّد أن يذهب إلى

أداء الصلاة به فى الفجر، ولاحظ أن هرا يسبقه إلى المحراب ويترك فيه بعض فضلاته، فترصد له وقتله، وكان هذا الشيخ مأذونا يكتب عقود الزواج، فدق باب داره فى الليلة التالية لمقتل الهر رجلان معها مصباح وقالا له: جئناك كى تصحبنا لكتابة عقد زواج، والناس مجتمعون ينتظرونك فلبس ثيابه، وخرج معهما، وتقدمه الرجلان ومعهما المصباح، وسارا به نحو القرافة، ومضى معهما آمنا، إذ رأى على بعد سرادقًا منصوبًا وأنوارا ودخل السرادق فرأى أناسًا كثيرين فى انتظاره، ورأى ما يشبه محكمة منعقدة. وصاح به رئيسها: لقد جئنا بك لنحاكمك على قتلك نفسا بريئة بغير حق، إذ قتلت فى فجر الليلة الماضية هراً، ولم تدرك أنه من إخوانك الجن، وليس من حقك قتله، فكيف قتلته وما السبب فى قتلك له؟ فقال : إننى قتلته لأنه تعود أن يرتاد محراب المسجد ويترك فضلاته فيه ولم أكن أعرف أنه من الجن، حينئذ تسارَّ القاضى مع عضو المحكمة الذى على يمينه وعضوها الآخر الذى على يساره، ولم يلبث أن أعلن الحكم ببراءته، ونظر الشيخ حوله فلم يجد قضاة ولا أناسًا ولا سرادقًا منصوبًا ولا مصابيح مرفوعة وزاغ منه البصر، وعاد إلى داره خائفًا فزعا.

وهى أقاصيص خرافية طبعًا فلا أناس ولا قضاة ولا سرادق ولا مصابيح؛ كل ذلك لم يبصره الشيخ، ولا أبصر سائق الساقية نساء حاملات أطفالهن على أذرعهن، وقد يكون هذا وذاك من بعض الرؤى والأحلام التى كان يراها بعض الناس فى نومهم، فيظنونها حقيقة ويحكونها لمن حولهم.. وربما جسمها لهم الوهم، فظنوها

حقيقة واقعة، وهى ليست من الحقيقة لا فى كثير ولا فى قليل، وكان لمثل هذه الأقاصيص الخيالية شيئًا من الأثر فى نفس الصبى؛ فنشأ يخاف من العفاريت ومن الجن ومن القطط.

وفى الحق أن القرية أثرت فى نفس الصبى آثارا مختلفة، فكانت أقاصيصها توحى إليه بخيالات كثيرة لا أساس لها من الواقع، وأثرت زروعها ومشاهدها الطبيعية من حوله فى حسه، فنشأ يرنو إلى الجمال الطبيعى ويحب الريف ومناظره حبا يملك عليه ذات نفسه.. مناظر الحشائش وطنافسها الخضراء والأرز والقمح وسنابلهما الشقراء، والقطن ولوزه يتفتح وتتدلى منه خصله البيضاء، وهنا وهناك أشجار النخيل المصعدة فى السماء حاملة أعذاقها ومشاعلها الحمراء والمياه تتهادى فى القنوات، والبشنين كالطاووس يزدهى بألوانه، والورود تتمايل مع النسيم مذيعة سرَّ شذاها العطر، وسقاة الأرض - فى سكون الليل الجاثم على الحقول - يتغنون على السواقى ببعض الأغانى الريفية الساذجة التى طالما استمع إليها النيل وقنواته منذ آلاف السنين؛ وكل ذلك كان يسكب فى نفس الصبى متاعًا رائعًا ما بعده متاع.

وكان الصبى فى هذه الأثناء يغدو إلى المدرسة الأولية شاعرًا بما فيها من تنافس محتدم بين الذكور والإناث، وبتنافس آخر كان لا يقل عنه احتداما، بل لا ريب فى أنه كان يزيد عنه حماسة واشتعالا، تنافس كان متقداً بين أسرته وأسرة أخرى كان منها عمدة القرية، أما أسرته فكان منها شيخ البلد، ومع أن أواصر

القربى كانت وثيقة بين الأسرتين ـ لكثرة ما بينهما من مصاهرات ـ كانت كل منهما تنافس الأخرى منافسة حادة، ولا يشترك فى هذه المنافسة الرجال والشباب فحسب، بل أيضا الصبية والناشئة؛ وكان لذلك آثارًا طيبة فى اهتمام كل صبى من الأسرتين بأن يتفوق على صبيان الأسرة الأخرى فيما يحفظ من القرآن الكريم والأناشيد وفى الحساب وغير الحساب.

وكان هذا التنافس يعود على الأسر فى قرى الريف بنتائج طيبة كثيرة؛ فالآباء ينشطون فى الإنتاج الزراعى ليكون لهم قصب السبق فيه، وحتى الصبية من أبنائهم ينشطون فى المدرسة الأولية حتى يملأوا نفوس آبائهم غبطة بهم، وحتى ينالوا لأسرهم بعض النقط فى سباق التنافس الداخلى، وهو سباق تمتد أشواطه إلى خارج القرية حين تتحول الناشئة من المدرسة الأولية إلى معهد دمياط الدينى أو إلى مدارسها المختلفة.

والشىء الوحيد الذى دها الصبى من القرية جاءه مما كان يسودها من جهل بالطب والأطباء، فقد رمدت عينه اليسرى وهو فى المهد، وأمه لا تزال تضمه إلى صدرها، فلم يذهب به أبوه إلى طبيب عيون، إذ لم يكن فى دمياط - على مايبدو - طبيب عيون فى العقد الثانى من القرن الحاضر، فذهب به الأب إلى طبيب كان يذهب إليه كثيرون من أهل القرية لفحص جميع أمراضهم وكان على هذا الطبيب حين رأى عين الصبى الرمداء أو المريضة وأن سحابة هبطت عليها أن ينصح أباه باستشارة طبيب عيون وبدلاً من

ذلك أجرى للصبى عملية فى عينه، وظن الأب أنها نجحت وهى لم تنجح؛ فقد ظلت السحابة تحجب نظر العين، وفقد الصبى عينه اليسرى إلا بصيصا ضئيلا.

وكل ذلك حدث والصبى فى المهد لا يدرى عنه أى شىء، فلما أخذ يخطو خطواته الأولى ومضى فى الحياة لم يلاحظ هذا القصور فى بصر العين اليسرى أو لعله لاحظه بوضوح غير أنه لم يهتم به أى اهتمام إذ كانت عينه اليمنى سليمة ونظره فيها قويًا كاملا، وربما كان ذلك من أخف الأشياء التى كانت تحدث لأبناء الريف بسبب الجهل وانعدام الرعاية الصحية، وكم من أطفال وصبية ريفيين فقدوا لا عينًا واحدة، بل العينين معا؛ بسبب نقص المعرفة والرعاية الطبية وسريان الجهل حينئذ فى القرى وانتشاره.

وكان الصبى يختلط بلداته من أهل القرية، ولم يكن يقع فى نفسه أبدًا أن هذا الصبى أو هذه الصبية من أسرة ميسورة، وذاك الصبى أو تلك الصبية من أسرة متواضعة، لسبب مهم هو وشائج القربى والرحم بين الفئتين من الأسر. مع أنه كان يلاحظ ما بينهما من فروق فى مآتم الأحزان واحتفالات الأفراح؛ ففى المآتم كان يرى أهل الميت فى الأسر المتواضعة يفرشون القش على الأرض أمام بيوتهم لمن يشاء الجلوس من المعزين، بينما كان أهل الميت فى الأسر الموسرة يضعون أمام بيوتهم كراسى لجلوس المعزين.

وكان الصراخ والعويل يرتفعان فى منزل الميت منذ صعود روحه إلى بارئها الأعلى، غير أن نساء الأسر المتواضعة ربما بالغن

فلطمن الوجوه وقرعن الصدور على موتاهم بينما الأسر الموسرة يغلب أن يكظمن حزنهن، يصرخن ولكنهن لا يخمشن الوجوه، وكثيرا ما كن يتركن ذلك لندابات محترفات يضعن على وجوههن شيئا من صبغ النبلة، ويتمادين فى لطم خدودهن وقرع صدورهن - وربما استخدمن فيه حجرًا - قرعًا شديدا، وعادة يتقدم النعش الجنازة ويتبعه المعزون حتى إذا ورى الجثمان فى التراب أخذ أهله يتقبلون العزاء.

ويعود المعزون إلى مأتم الميت أمام داره، فيتناولون بعض الطعام، وبعض دور القرية كانت تخرج منها إلى مأتم الميت صينية عليها بعض اللحوم أو الطيور المطبوخة أو ألوان من البقول مع كمية من الأرز وبعض الأرغفة مؤازرة لأهل الميت فى مأتمهم وفى استضافة من يشتركون فى جنازة الراحل من أهل القرى المجاورة ومن أهل القرية نفسها، إنه مأتمهم جميعاً وهم يشتركون فيه كل حسب وسعه وقدرته، وتظل القرية محزونة على فقيدها أياما، والفقهاء يغدون ويروحون إلى مقبرته لتلاوة بعض القرآن، وقد يصنع أبناء الميت أو أهله له «صمدية»؛ إذ تتجمع طائفة كبيرة من القراء لتتلو له عند مقبرته أو فى بيته أو فى المسجد سورة الإخلاص مائة ألف مرة رجاء تقبله عند ربه.

وعادة يذهب أهل القرية لزيارة موتاهم كل يوم جمعة حاملين معهم شيئاً من سعف النخل الأخضر ليضعوه فوق القبر، وبعض الفطير والبلح أو التمر ليفرقوه على بعض المحتاجين حسنة على

الميت.. وكان الصبى يبصر ذلك كله ويؤثر فى نفسه، وخاصة أنه تصادف أن إخوة له توفوا وهم لا يزالون فى براعمهم قبل أن تتفتح تلك البراعم عن أزهارها الغضة الناضرة، وكانت أمه لا تزال تذكرهم وتبكيهم أحيانا، وسرعان ما كانت تكفكف من دموعها راضية بقدرها قائلة : إنا لله وإنا إليه راجعون.

وكانت أفراح القرية تشد الصبى بأكثر مما كانت تشده المآتم؛ إذ كانت الزغاريد تنطلق من بيت العرس والعروسة، فيشعر كأن القرية جميعها ترقص طرباً، وكانت تسبق ليلة زفاف العروسين أو كما كانوا يسمونها ليلة «الدخلة» ليلة تعرف باسم ليلة «الحِنَّة» والحنة مسحوق يباع عند العطارين، كانوا يشترونه منهم، ويمزجونه بقليل من الماء حتى يصبح كالعجين، ويشدونه بأربطة على كفوف العروسين وأقدامهما حتى الصباح، فيفكون الأربطة، وتبدو الكفوف والأقدام أشد حمرة من الياقوت، وقد يستخدمون فى وضع الحنة بالأكف والأقدام مناقيش، فتبدو فى هيئة أكثر جمالا، ويشترك فى هذا الصنيع جميع العرسان والعرائس فى الأسر الموسرة والمتواضعة.

وكثير من الأسر الأولى كان يبالغ فى ليلة الدخلة والاحتفال بها؛ إذ عادة تقيم الأسرة مأدبة حسب طاقتها المالية، وقد تستقدم جوقة موسيقية وأخرى من «العوالم» لزفاف العروسين، بينما تكتفى الأسرة المتواضعة بعشاء لا يكلف كثيرا، وببعض العوالم المغنيات ممن لا يبالغن فى أجورهن، ويستقبل العروس ضيوفه على باب

داره.

وفى الأسر الموسرة كانت الموسيقى تعزف منذ الغروب، وتمد مائدة العشاء، ويبدأ الزفاف بعد انتهائه؛ إذ تأتى العروسة من دارها مع أمها، ويستقبلهما العريس، وتتقدمهما العوالم المغنيات يضربن على الدفوف والصنوج حتى «الكوشة» وهى أريكة مرتفعة مزخرفة عليها بعض الزهور وبعض المصابيح المشتعلة، ويجلس عليها العروسان بينما تغنى العوالم وهن يضربن على آلات الطرب، وطوالَ هذا الزفاف ينثر الأهل والأقارب على العروسين ما يسمونه باسم «النقطة» وهى نقود معدنية وفضية، يحيون بها العروسين.

وزفاف العروسين فى الأسر المتواضعة صورة مصغرة من ذلك كله، فالعوالم قليلة محدودة، وبدلاً من أن يكون زفاف العروس جميعه بجوار زوجته على الكوشة يدعوه أصدقاؤه لزفافه فى طرقات القرية وشوارعها وهم فى أثناء ذلك يحيونه بأغان ورقصات ريفية ويعود إلى عروسته، ويجلس بجوارها قليلا ويتناول معها كوبًا من شراب، ثم ينهضان ويتركان المدعوين بين التهليل والتصفيق.

وكان الصبى يفرح فرح لداته ورفاقه فى القرية بعيد الفطر وعيد الأضحى لما يلبس فيهما من ثوب وحذاء جديدين، ولاختلافه مع صبية قريته إلى أراجيح بسيطة، غير أنها كانت عندهم أراجيح بديعة؛ وبالمثل كان يفرح الصبية بعيد شم النسيم لما تهيىء أمهاتهم لهم فيه من بيض ملون ألوانًا مختلفة بين أحمر وأخضر وأصفر وأزرق، وكانوا يلعبون به فيما بينهم عن طريق قرع بيضة

لصبى بيضة صبى آخر، ومن كُسِرَت بيضته عُدّ مهزوما وإن لم تكن معه بيضة ثانية ذهب إلى أمه وجلب منها بيضة وعاد إلى النزال والعراك مع رفاقه.

ولم يكن الصبى يفرح بموسم كفرحه بموسم شهر رمضان؛ إذ كان يعجب فيه إلى أقصى حد باشتعال مواقد النار بعد العشاء ساعات متوالية، لما هو معروف من أن «السحور» فى الريف يعد الأكلة الرئيسة فى رمضان، فكانت الكوانين تشتعل بعد العشاء وتشتعل المواقد النحاسية لصنع طعام السحور، وكان الصبى يجد فى مرأى هذه النيران لذة كبيرة وخاصة حين ينظر إلى وهجها وإلى أطرافها وهى تتلون ألوانًا شتى، وكأنما يرنو إلى قوس قزح تحت بصره.

وكانت أمه كلما أمرته بالذهاب إلى النوم تعلل لها بأنه ينتظر السحور وهو إنما كان فى الواقع ينتظر المسحراتى؛ إذ كان مشغوفًا بسماعه، وهو يمسك بطبلة فى يده ويضرب عليها بجلدة فى يده الأخرى فترن ويمتد رنينها، وهو لا يمل ضربًا لها وجلدا، مع ترديده لأغان رمضانية يحاول بها وبضربه المتوالى على الطبلة أن يوقظ النوام، حتى يتهيئوا لتناول السحور.

وفى بعض المناسبات الكبرى التى كانت تمر بالقرية كسبوع زفاف لعروسين وهو اليوم السابع له أو سبوع مولود أو ختان صبى أو قدوم حاج وسلامته فى رحلته كانت تقيم بعض الأسر احتفالاً كبيراً لشخص يسمى الشاعر، وتدعو أهل القرية والقرى المجاورة لسماعه، ولم يكن شاعرًا بالمعنى المعروف، وإنما كان منشدًا

لقصة الهلالية؛ وهى قصة شعرية مطبوعة فى نحو أربعة أجزاء، تحكى بشعر عامى قصة خروج بنى هلال العامريين من الجزيرة العربية إلى مصر فى عهد الفاطميين وترحيلهم لحرب أعدائهم فى تونس والمغرب.

وفى القصة بطلان عربيان هما: أبوزيد الهلالى ودياب بن غانم الزغبى، ولكل منهما بطولاته ومغامراته الحربية، وعادة ينشد الشاعر أجزاء من القصة على الربابة، وهى آلة موسيقية ثنائية الوتر كثيرة الثقوب، والشاعر يحرك عليها قوسًا فى أثناء نشيده، ليستعين فى إلقاء القصة أو بعض أجزائها بألحانه.

وكانت هذه القصة تنشد وتردد منذ عهد الفاطميين فى القرى المصرية لصرف المصريين عن التفكير فى الشئون السياسية، ومنذ هذا التاريخ البعيد - أى منذ نحو تسعمائة عام كان بعض القرى المصرية يشايع أبا زيد بطل بنى هلال، وبعضها يشايع دياب بن غانم بطل بنى زغبة، أو بعبارة أخرى كان بعضها هلالية وبعضها زغبية.

ولم تكن توجد فى مصر قريتان متجاورتان وهما هلاليتان أو زغبيتان بل - دائمًا - توجد قرية هلالية وبجوارها قرية زغبية أو العكس. وكأن ذلك كان تعبيرًا عما كان بين القرى المتجاورة من تنافس. وكان الشاعر يلاحظ ذلك، فإذا كانت القرية التى دعته لإحياء احتفال بها هلالية أعلى ورفع من شأن أبى زيد وبطولته، وإذا كانت زغبية أعلى ورفع من شأن دياب بن غانم وشجاعته،

وكانت له طريقة خاصة فى إلقاء أناشيد القصة، فحين يهجم البطل الخاص بالقرية تحس كأن الشاعر نفسه هو الذى يهجم بربابته أو قوسه وبسهام أناشيده، فهو منشد وممثل معا، ومن هنا كانت تشتد حماسة الصبى ورفاقه والنظارة جميعهم.

وكانت يحدث كثيرا حين يكون الشاعر فى قرية هلالية - مثلاً - ويهبط بدياب بن غانم درجة أو درجتين أو درجات عن بطولة أبى زيد أن يثور المدعوون من أهل القرية الزغبية المجاورة. وكانت قرية الصبى هلالية وكان مثل صبية قريته وأهلها هلاليا. ودفعه ذلك وهو فى سن صغيرة إلى أن يقرأ قصة الهلالية ويشغل نفسه بالحديث عن بطولات أبى زيد لرفاقه من الصبية إذ كان يشعر بانتماء قوى إليه وإلى الهلالية.

وغريب أمر الإنسان حتى فى صباه، فهو - دائمًا - يحاول الانتماء إلى أى وطن أو أى شىء، وإن فى انتماء القرى المصرية لبطلى قصة الهلالية العربية : أبى زيد ودياب بن غانم مايشير بوضوح إلى شعور المصريين الدائم المستقر فى أعماقهم بانتمائهم إلى العرب والعروبة، وليس بصحيح ما يظنه بعض المعاصرين من أن شعورهم بهذا الانتماء حديث فهو قديم منذ مئات السنين، وقد ظلت القرى المصرية تحس بقوة هذا الانتماء العربى إلى الهلاليين والزغبيين حتى تكونت عندنا الأحزاب المصرية منذ أوائل القرن الحاضر، واحتدم هذا الانتماء الحزبى الجديد مع نشوء حزبى الوفد والأحرار الدستوريين، ثم مع ما جد بعدهما من أحزاب.

ولم تكن بطولات أبى زيد الهلالى وحدها هى التى ينتظر رفاق الصبى منه أن يحكيها لهم، فقد كانوا ينتظرون منه - أيضا - أن يقص عليهم آخر الأخبار فى الحرب العالمية الأولى لهذا القرن، وكان قد أخذ يستطيع قراءة الصحف وكان أبوه يحضر معه فى أكثر عوداته من دمياط إحداها، فكان الصبى يقرؤها ويروى للداته ما فيها من أخبار الحرب؛ وذاع ذلك عنه فى القرية حتى كان الفلاحون يتعرضون له بالسؤال عن أخبارها، - وأيضا - كانت صديقات أخته الكبرى ينادين عليه وهو مار بدورهن أو يستوقفنه ويسألنه عن الحرب وآخر أخبارها وكان مثل كل القرية بل مثل كل المصريين حينئذ هواه مع تركيا وألمانيا، وأخذ يشعر بغير قليل من البؤس حين بدا فى الأفق أن الحلفاء هم الذين يستنصرون وأن كفتهم هى الراجحة.

وكما كان يستروح الصبى الحديث واللعب مع لداته فى المدرسة والقرية كان يستروح الجلوس والحديث إلى كثيرين من المتقدمين فى السن، وخاصة الشيوخ من أهله رجالا ونساء، لما يجرى على ألسنتهم - أحيانًا - من حكم وأقوال عجيبة سديدة مع أنهم يعيشون على الفطرة. ويبدو أن هذه المعيشة نفسها هى التى تجعل أقوالهم وحكمهم صحيحة قويمة، لأنها لا تنبع من أذهان عقدتها الثقافات والقراءات الكثيرة للكتب، وكأن ذلك من شأنه أن يضع حجبا وأسدالا على الأفكار فلا تبدو مكشوفة للعيان بحيث يحيط بها الذهن إحاطة تامة من جميع جوانبها؛ إذ كل فكرة تتشابك مع أفكار كثيرة حتى لتوشك - أحيانًا - أن تطمسها.

وما أشبه أفكار هؤلاء المسنين الفطريين الذين كان يُكثر الصبى من الاستماع إلى أحاديثهم وما يبثون فيها من الحكم بأشجار تنمو فى الطبيعة متباعدة، فلكل شجرة تربتها لا تشركها فيها شجرة أخرى، ولها هواؤها الذى تتنفس فيه بملء رئتيها، ولها حظها الكامل من الشمس وحرارتها وأضوائها أما أفكار المتمدينين - وخاصة من أصحاب الثقافة الممتازة - فأشبه بغابة ملتفة، تتداخل أشجارها وفروعها وأغصانها حتى ليختفى بعضها عن الأنظار، فلا تراه أو لا تكاد تراه وحقًا كان هؤلاء المسنون والشيوخ يعيشون فى القرية معيشة ساذجة، ولكن من الحق - أيضًا - أنهم كانوا يعيشون بعيون تبصر كل ماحولها فى الحياة دون خداع أو نفاق مما يرين على حياة الناس فى المدن.

وكان الصبى حين يذهب ظهراً إلى مزرعة جده المجاورة للقرية يرى زوجات بعض الفلاحين العاملين فى الأرض قادمات إلى أزواجهن، يحملن إليهم الغداء، وهو فى أقل الأحايين عدس أو فول نابت وبصلة أو بصلتان ورغيف أو رغيفان أو أكثر وفى أغلب الأحايين يكون الغموس مِشًّا ومعه بصل، وقد يستعيض الزوج عن البصل بشىء من «السِّريس» الذى ينبت بكثرة مع البرسيم.

ويقبل أهل الريف جميعًا موسرين ومعسرين على المِش، وهو يعد بخاصة عند الأسر الرقيقة الحال الطعام الرئيسى للفطور والغداء وهو جبن منزوع الدهن مخلوط بماء وملح يوضع شهورا فى بلاص أو جرة، وأهل القرى يأتدمون به، وكان الصبى يحبه، وكثيرا

ماكان يتخذه إداما فى طعامه. وكان يحدث . أحيانًا . لبعض الفلاحين أن تتلف الديدان وندوة أغسطس المزروع من القطن، فلا يستطيع الفلاح أداء إيجار الأرض المضروب لمالكها فيستدين، ولا يبقى طعاما له طوال العام سوى المش المالح وبعض ما تنبته أرضه من الجرجير والفجل وبعض مايكون فيها من النخل والبلح القليل.

وكانت القرية تقيم من حين إلى حين ليالى للذكر احتفالا بقدوم أحد أصحاب الطرق الصوفية ممن كانوا ينتسبون إلى الشيخ أبى المعاطى فى دمياط أو الشيخ أبى خليل فى محافظة الشرقية أو غيرهما من أصحاب تلك الطرق القريبين أو البعيدين، وفى العادة كان لهذه الطرق فى كل قرية أو فى كثير من القرى تلاميذ أو مريدون ينزل عليهم صاحب الطريقة الصوفية ليأخذ لها العهود.

وكان يتجمع كثيرون من أهل القرية كباراً وصغاراً فى دار المريد أو فى دار شخص آخر باتفاق المريد معه، وبعد صلاة العشاء يجلس الشيخ ويأخذ الناس فى السلام عليه وطلب الدعاء منه، وما يلبثون أن ينهضوا فى صفين متقابلين يمنة ويسرة وهم يقولون : «حى حى» أى الله، ومنشد ينشد.. وتشتد الحماسة بالذاكرين، ويشتد الوجد، ويظلون على هذه الحال ساعات متواليات، والشيخ فى أثناء ذلك يأخذ العهود على المريدين الجدد الذين جاءوه يبغون الانتماء إلى طريقته الصوفية.

وكان الصبى لا يترك احتفالاً من هذه الاحتفالات إلا ويحضره للفرجة على الذاكرين والاستماع للمنشد، ولم يكن يعى حينئذ أن

الاتصال بطريقة صوفية وتحول شخص إلى تلميذ فيها أو مريد لشيخ معناه ضرب من الانتماء الروحى، وهو انتماء انتشر مع الطرق الصوفية فى العالم الإسلامى منذ القرن السادس الهجرى؛ إذ أخذ شيوخ هذه الطرق ومريدوهم يطوفون البلاد الإسلامية مدربين من يتبعونهم على الالتزام بأوراد معينة، وهو أدعية طويلة ولكل صاحب طريقة دعاؤه أو ورده الخاص.

ومن المؤكد أن الصوفية أدوا للإسلام خدمات عظيمة بنشره فى غربى أفريقية وأواسطها وشرقيها، وفى أواسط آسيا وديار المغول، وفى الهند وما وراء الهند من الملايو وأندونيسيا والفليبين، غير أن المستعمرين حاربوا رجاله، وكادوا يفقدونه جُلَّ أهميته الأولى. وكان من أكثر ما يلفت الصبى فى حلقات الذكر التى كانت تقام فى قريته أن بعض أهلها كانوا يطلبون من الشيخ الصوفى تعويذات وتمائم، ولاحظ أن أباه كان ينكر ذلك، ولما سأله قال له: إن التصوف وطرقه الصحيحة براء من هذا كله، والتصوف السليم إنما هو نسك لله وذكر وعبادة دون اعتقاد فى تمائم وتعويذات لا تنفع ولا تشفع.





وبينما كان الصبى يخطو فى السنة التاسعة من عمره ترك الأب القرية واتخذ دمياط دار مقام له، وكانت دمياط عالما جديدا للصبى بدكاكينها وحوانيتها التى كانت تضاء فى المساء بمصابيح الكهرباء، وكان منظر أضوائها يبهج نفسه بهجة كبيرة. وسكنت أسرة الصبى فى دار من بابها لم يسكن معهم فيها أحد، ولفتته فيها مصابيح الكهرباء المدلاة من السقوف كما لفته الماء ينزل من مواسيره صافيا خاليا من أى كُدرة. وكان الصبى ينام فى غرفة منفرداً وحده، ولم تمض إلا أيام قليلة حتى أخذ يشكو إلى أمه من أنه يصحو ليلا، فيجد بجانبه جسما ممتدا، ويضع يده فوقه فيحس كأنه جسم عار. وتراجع الأم أباه الشيخ، فيقول لها: إنه إما هر وإما هرة. ويعود الصبى إلى النوم بالغرفة فى الليلة التالية، ويقرأ قبل أن ينام - كما علمته جدته فى القرية - آية الكرسى ست

مرات لحفظه وحفظ المنزل، ويدعو فى نهايتها بهذا الدعاء، أقسمت عليكم يا خدام هذه الآيه - آية الكرسى - بحق الذى خلقكم وصوركم أن تحفظونى وتحفظوا هذه الدار من الأذى والضرر طوال ليلتى هذه حتى طلوع الشمس وينام مطمئنا، غير أنه لا يلبث أن يستيقظ ويحس بجسد ممتد بجانبه ويبيت مرتاعًا فزعا، ولا يلبث أن يستسلم إلى النوم.

وفى الصباح يعود الصبى إلى الشكوى لأمه، وتبحث الدار فى المساء غرفة غرفة؛ لعلها تعثر على هذا الهر المزعوم، ولا تجد شيئا؛ وتذكر ذلك للصبى، ويعود إلى تلاوة آية الكرسى ودعائها، حتى إذا استيقظ ليلا أحس بالجسد ملتصقًا به، ويشكو فى الصباح إلى أمه، فتنقله فى الليلة التالية من غرفته إلى غرفة أخرى، وتنام فى فراشه، فلا ترى شيئا، وبالمثل لا يرى الصبى شيئا فى فراشه الجديد.

وتعيد الأم الصبى إلى غرفته بعد أن تأكدت بنفسها من أنه لا توجد بها روح، ويعود الصبى إليها خائفا، ويقرأ قبل نومه آية الكرسى مع دعائها ست مرات، ويلتف فى اللحاف بحيث لا يبين منه أى شىء، ويستيقظ فى أثناء الليل، ويعاوده الشعور بالجسد الملتصق به، ويخشاه فلا يمد يده عليه، بل يضعها فوق رأسه حتى الصباح، فيهرع إلى أبيه مؤكدًا له أن الجسد العارى كان يلتصق طوال الليل به.

ويبادر الأب إلى اتخاذ قرار هو: ترك الدار واستئجار دار جديدة، مع اعتقاده أن هذا كله إنما هو وهم من الأوهام لا واقع له

ولا حقيقة، إذ كان لا يؤمن بالأوهام ولا بالخرافات ويفكر الصبى فى ذلك بعد أن شب عن الطوق، ويقول فى نفسه: ربما كان حقًا وهمًا جاءه من قصص الجن والعفاريت التى كانت تحكيها له جدته، أو ربما كان هذا الجسد يده التى كان يتوسدها من الخوف، فإذا استيقظ ومدها بجانبه، وهى مخدرة، ولمسها بيده الأخرى وهو بين اليقظة والنوم ظنها جسدًا آخر ممتدًا بجواره ولا جسد ولا روح ولا عفريت من الجن، إنما هى قصص الجان فى القرية جعلته - أو جعله الخوف - يظن أن يده المخدرة جسدًا ينام بإزائه. ومن الغريب أن هذا الوهم الذى تمكن من خيال الصبى وهو صغير، وقصة العفريت الذى كان يتمثل لمأذون القرية هرًا فى المسجد؛ كل ذلك جعله - فيما بعد - يخاف من القطط خوفًا شديدًا فلم يأنس يومًا لقط أوهرة.

وكانت أمنية أبويه أن يصبح شيخًا، وكانا يرددان على سمعه أنهما وهباه للعلم، وكلمة العلم عندهما إنما تعنى العلم الدينى الذى يحمله فى صدورهم شيوخ الأزهر الشريف؛ ولذلك لم يتردد أبوه فى أن يدخله كتاباً يحفظ فيه القرآن الكريم.

وكان بدمياط مقرئ معروف بشدته فى تحفيظه القرآن للأولاد، وكان كُتّابه ملحقًا بجامع يسمى جامع البحر، كان به المعهد الدينى وحلقات دروسه وأخذ الأب ابنه إلى هذا الكتاب، ورآه الصبى مفروشًا بحصير، والصبية يجلسون عليه وفى أيدى بعضهم ألواح يحفظون ما سطروه فيها من الذكر الحكيم، وفى أيدى البعض

الآخر مصاحف يتلونها وهم جميعًا يهتزون، ورأى المقرئ أو كما كانوا يسمونه «سيدنا» جالسًا على حشيَّة صغيرة وصبى يسمع عليه محفوظه مهتزا بانتظام، ولما رأى المقرئ أباه وقف للسلام عليه، فقدم له ابنه وأوصاه به وانصرف.

وأخذ الصبى مكانه بين رفاقه، وما إن مرت عليه بضعة أيام حتى لاحظ سيدنا سرعة حفظه، إذ رآه حين يلزمه بحفظ صحيفة أو أكثر من المصحف الشريف يبادر سريعا إلى تسميعها غيبا دون أن يخطئ فى حرف منها، فرأى أن يجعلها له صحيفتين، وهما يعنيان فى تقسمات الذكر الحكيم نحو ربع، ورأى «سيدنا» أن يبدأ الصبى الحفظ من أول سورة البقرة. وفى كل يوم كان الصبى يحفظ ربعًا كاملا.

وكان فى الكتَّاب نحو عشرين صبيا مختلفى الأعمار من التاسعة إلى نحو الخامسة عشرة، وكلهم يحاولون استظهار القرآن، وكلهم يخافون من «سيدنا» خوفًا شديداً، إذ كانت بيده - دائما - مقرعة، وكانت عادته أن يدعو أحد الناشئة لتسميع «اللوح» أو الواجب اليومى، وأحيانًا يدعوه لتسميع «الماضى» وهو ماحفظه قبل ذلك وكان الصبى مثل أقرانه كلما حفظ واجبه تلاه عليه، وقد يتلو عليه قسمًا من «الماضى» وكان يجلس فى التسميع - مثلهم - أمام «سيدنا» وقد وضع ساقه اليمنى فوق ساقه اليسرى، وباطن القدم اليمنى مكشوف، فإذا أخطأ أو تعثر لم يقل له «سيدنا» تعثرت أو أخطأت وإنما تنزل المقرعة - توًا - على باطن قدمه، فيتنبه إلى أنه أخطأ.

وكان يلفت الصبى رفيق له تعود إذا قرأ واجبه أو «ماضيه» أن لا يتبين أحد ما يقرؤه، فهو يكره كرًا سريعا؛ بحيث لا يستطيع أحد أن يعرف بوضوح ما يقرأ، فضلا عن أن يتتبعه فى آية من الآيات؛ ومع ذلك كان إذا قرأ على «سيدنا» بهذا الكر السريع يهوى بالمقرعة على باطن قدمه من حين إلى آخر، وكأنه عرف خطأ سقط على لسانه، وفى واقع الأمر كان يريد أن يخيف رفاقه، وأنهم إذا قرأوا كرًا على غراره فلن يفلتوا منه ومن مقرعته، فأولى لهم أن يقرأوا قراءة متأنية حتى يأخذوا الفرصة الكافية لتذكر الكلمات والآيات.

وكان الصبى يَرهَب «سيدنا» ومقرعته رهبة شديدة، وكان يوالى يوميا عليه تلاوة الربع الذى استظهره تسميعا، وقلما يخطئ فيه أى خطأ، وكيف يخطىء وقدمه اليمنى ملقاة على ساقه اليسرى مكشوفة للمقرعة، وقد تهوى فجأة دون أى تنبيه أو تحذير، وبالمثل يتلو «ماضيه» على سيدنا فقلما يزل لسانه أو يلحن أى لحن. وكانت العادة فى هذا الكُتّاب أن يتناول كل صبى غذاءه فى داره، ولكن بعد أن يحفظ واجبه اليومى ويسمعه على سيدنا، فإذا لم يحفظه ولم يسمعه حتى نهاية اليوم ظل فى الكتاب لا يبرحه، وظل دون غداء وأمعاؤه تتلوى جوعا ومسغبة.

ويوم واحد لا يزال الصبى يذكره؛ إذ أبطأ فى حفظ الربع أو الواجب اليومى وكان الربع الثانى من سورة مريم، ولا يدرى الصبى بالضبط السبب فى أنه تعذر عليه أن يحفظ هذا الربع قبل صلاة

الظهر كعادته فى الأيام السابقة، فتأخر فى حفظه حتى صلاة العصر؛ وبذلك تأخر غداؤه إلى أن انصرف مع رفاقه من الكُتّاب وكأن ذلك كان درسا له، فلم يعد - بعد - يتأخر أبداً فى حفظ واجبه اليومى، مما جعله يتم حفظ القرآن جميعه فى أقل من عام، وكان يوم إتمامه له يوم فرح فى داره؛ احتفل به أبواه وأهدى الأب إلى «سيدنا» بعض الهدايا المعتادة فى مثل هذه المناسبة.

وقد يُظن أن الصبى بكَّر فى حفظ القرآن الكريم بالقياس إلى رفاقه فى كتاتيب القرى والمدن، ولكن من الحق أن الكثرة كانت تحفظه بين سنتها العاشرة مثله وسنتها الثانية عشرة؛ وهو لا شك حصيلة كبرى كان ينبغى أن يلتفت إليها القائمون على التعليم الإبتدائى؛ لأن الناشئة فيه تتم تعليمها فى سنتها الثانية عشرة ومايحصلونه يبدو شيئا ضئيلا بالقياس إلى ما كان يحصله أندادهم بجيل الصبى فى الكتاتيب المصرية، مما يظهر بوضوح أننا نهدر فى تعليمنا الإبتدائى قدرات عقلية لأبنائنا فى سنواتهم المبكرة، قدرات على التحصيل لا نستغلها بالصورة المأمولة.

ومن المؤكد أن الناشئة فى جيل الصبى كانت تتعود - بدأبها على حفظ القرآن الكريم فى بواكير حياتها - بذل الجهد الشاق فى التحصيل والدراسة، ولعل نبوغ مفكرينا العظام فى القرن الماضى وشطر كبير من القرن الحاضر يرجع إلى ما تعودوه فى الكتاتيب من بذل كل طاقاتهم فى استظهار الذكر الحكيم، وكان هذا البذل والجد فى التحصيل يظل ملازما لهم لايزايلهم طوال التعليم حتى يتموا تعليمهم الجامعى أو العالى.

على كل حال استظهر الصبى القرآن الكريم فى سن مبكرة، وكان يتلوه تسميعًا دون أى لحن، وظل شهورًا متوالية يجوِّده، وعلى الرغم من أنه كان فى العاشرة من عمره كان يتوقف مرارًا متأملاً فى معانى بعض الآيات الكريمة؛ من ذلك تأمله وتفكيره فى آية سورة التغابن : (**يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم..**) فقد كان كلما تلا هذه الآية سأل نفسه متعجبًا: هل تصبح الزوجة مبغضة لزوجها والولد مبغضًا لأبيه؟! وكان مصدر تعجبه أنه ينظر فيما حوله فيجد أبويه متعاطفين متوادين، وكانت الأم تصغر الأب بسبع سنوات، وكانا متآلفين تآلفًا شديدًا، وكان يكن لها - وتكن له - الاحترام.

وكان الصبى يتساءل: تُرَى هل هذا الاحترام هو النبع الغزير لما بين أبويه من تواد وتعاطف:؟ وظل الصبى كلما قرأ آية سورة الروم العظيمة : (**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة**) ارتسمت فى ذهنه صورة أبويه، وتدور به الأيام ويعرف أن بغض الزوجة لزوجها شذوذ لا يقاس عليه، وأن من نعمة الله على الأزواج أن ملأ قلوب زوجاتهن لهم بالبر والعطف والمودة والرحمة إلا قليلا جداً، فالكثرة الغالبة منهن يكلأنهم ويرعينهم ويعرفن لهم حق الزوجية وأبوتهم لأبنائهن، وما أعظم الفرق بين زوجة تحب زوجها وتحمل له الود والعطف والحنان وزوجة تكره زوجها وتحمل له الموجدة، وأيضًا ما أعظم الفرق بين زوجة راضية تهب زوجها وأسرتها الهناءة والسعادة وزوجة كارهة تهب زوجها وأسرتها الشقاء والتعاسة.

ولم يكن الصبى يفهم كيف ينقلب الابن مبغضًا لأبيه؛ إذ لم يكن قد قرأ التاريخ وعرف منه أن من الأبناء من تآمروا على آبائهم واشتركوا فى سفك دمائهم طلبًا للحكم والسلطان وعز الرياسة، وما أبأس الابن حين يتحول مبغضًا لأبيه الذى سقاه من ظمأ وأطعمه من جوع ورعاه ورباه، وما أعظم القرآن فى وصيته لكل ابن أن يرعى حقوق أبويه حتى أنفاسهما الأخيرة على نحو ما تصور ذلك آيه سورة الإسراء : (.. **وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا**)، وكان الصبى كلما تلا هذه الآية الكريمة أكبر أبويه، وعرف لهما قدرهما وحقهما، وشعر إزاءهما بإجلال عظيم.

وما هى إلا بضعة شهور حتى أخذ الصبى يحسن تجويد القرآن الكريم ومعرفة مخارج الحروف فيه بدقة بين الجهر والهمس واللين والشدة ومعرفة الإدغام فيه والغنات وقياس المدَّات، ولم يلبث أبوه أن ألحقه بالمعهد الدينى فى دمياط، وفاء بهبته للعلم، وكان العام مكملا لأعوام الثورة التى أشعلتها مصر ضد الإنجليز الغاشمين منذ سنة ١٩١٨ حين شكل سعد زغلول فى ١٣ من نوفمبر وفدًا برياسته وعضوية عبدالعزيز فهمى وعلى شعراوى لمقابلة «ريجنالد ونجت» ممثل إنجلترا فى مصر نائبين عن شعبهم فى تقديم مطالبه الوطنية ولم تستجب انجلترا ولا ممثلها لشىء من هذه المطالب، وكان قد تألف فى نفس اليوم بزعامة سعد حزب الوفد الذى

سيظل ثلاثة عقود من السنين الممثل الوحيد المفوض للأمة المصرية.

وحمل سعد أمانة رياسته بقوة ومضى يستثير الشعب ضد عدوه الغاصب الأثيم، فنفاه الإنجليز مع بعض صحبه إلى مالطة فى مارس سنة ١٩١٩ وغضبت مصر وثارت جماهيرها فى جميع مدنها رجالا ونساء وشيوخا وشبانا وعمالا وفلاحين، وعرَّضوا صدورهم لرصاص الإنجليز غير مبالين، ومثلوا بكثيرين من الإنجليز وازداد سفك دمائهم، مما اضطرهم إلى رد حرية سعد إليه وسماحهم له بالسفر مع وفد إلى مؤتمر الصلح فى باريس لعرض قضية مصر عليه، وهناك أقاموا العراقيل ضده، وصُدِم سعد ورفاقه بإعلان المؤتمر فى مايو سنة ١٩١٩ الاعتراف بحماية إنجلترا لمصر، وكأنما ذهبت جهوده هباء، وظلت إنجلترا فى مناوراتها وتألفت فى مارس سنة ١٩٢١ وزارة برياسة عدلى يكن، ودُعيت مصر لمفاوضة الإنجليز تمهيدا لعقد معاهدة بين الطرفين فأبرق عدلى إلى سعد زغلول رئيس الوفد وكان بباريس يعلمه بالنبأ ويدعو الوفد إلى الاشتراك معه فى المفاوضات.

وعاد سعد إلى مصر وإلى استئناف الجهاد، واستقبلت مصر ابنها البار استقبالا يندر أن يظفر به زعيم من زعماء الشعوب، وأعلن سعد أنه لابد أن تكون أغلبية المفاوضين للإنجليز من الوفد وأن تكون له الرياسة، وأحدث ذلك خلافًا حادًا بين الوزارة والوفد وانقسم الوفد؛ إذ اختلف بعض أعضائه مع سعد، واستقالوا من

الوفد وكان ذلك أول انقسام عنيف فيه. وذهب عدلى فى أول يولية إلى إنجلترا لمفاوضة - كيرزون - وزير الخارجية الإنجليزية مع نفر من أنصاره وأكثرهم من طبقة الترك الأرستقراطيين، وبعد مداورات شتى للإنجليز باءت المفاوضات بالإخفاق الذريع.

وكان سعد قد أخذ يُلهب حماسة الأمة بخطبه النارية فى شهرى أكتوبر ونوفمبر مطلع أول عام للصبى فى معهده الدينى، وكان طلاب هذا المعهد كغيرهم من أبناء الأمة يتأججون وطنية، فلم تكد تنتظم الدراسة فيه يوما، ولم يكن للطلاب من حديث سوى خطب سعد وكلماته الملتهبة، وخاصة فى يوم عيد الجهاد يوم ١٣ من نوفمبر سنة ١٩٢١ وكأنما كانت خطبته فيه شواظا من نار صبَّه على عدلى يكن ووزارته، وظل المعهد مائجًا بالثورة، وعاد عدلى من لندن فى أوائل ديسمبر، ونشر سعد فى الأمة نداء يستصرخها فيه على مواصلة الجهاد متخذة شعارها : «الاستقلال التام أو الموت الزؤام».

واستشاط الإنجليز حنقًا وغضبًا، ولم يلبثوا أن اعتقلوا سعد زغلول فى ٢٣ من ديسمبر مع سبعة من أعضاء الوفد ونفوهم إلى سيلان ومنها إلى جزر سيشل فى الشمال الشرقى من مدغشقر، ولم يجد عدلى مفرًا من استقالته حتى لا يتحمل شيئا من وزر هذا النفى لزعيم الأمة وصحبه، وقُبلت استقالته، وبقيت البلاد دون وزارة أكثر من شهرين.

وعاد بركان الأمة الثائرة إلى الاشتعال، وقامت المظاهرات وعنفت فى جميع المدن والبلاد وأضرب طلاب المدارس وطلاب

الأزهر والمعاهد الدينية فى دمياط وغير دمياط، ولما تفاقمت المظاهرات والإضرابات تقرر إلغاء الدراسة فى الأزهر ومعاهده الدينية لهذا العام الدراسى الأول للفتى فى المعهد الدينى، وفى الحق أنه لم يكن عام دراسة بل كان عام ثورة وكفاح وجهاد.

وتتعاقب الأحداث ويقرر الوفد عدم التعاون مع الإنجليز فى جميع المعاملات الفردية، كما يقرر مقاطعة بنوكهم وشركات تأمينهم وسفنهم وكافة أنواع التجارة معهم، وتصدع مصر للقرارين، ويضطر الإنجليز إلى إعلان تصريح ٢٨ من فبراير سنة ١٩٢٢ معترفين فيه باستقلال مصر ولكن مع الاحتفاظ بأربع مسائل هى : تأمين مواصلات الإمبراطورية البريطانية، والدفاع عن مصر من كل اعتداء أو تدخل أجنبى، وحماية المصالح الأجنبية فى مصر والأقليات، والسودان.. وكأن ما اعترفوا به لمصر من الاستقلال وانتهاء الحماية البريطانية محوه بهذه التحفظات.

وسرعان ما أُلِّفت وزارة فى شهر مارس برياسة عبدالخالق ثروت، ونودى بالسلطان فؤاد ملكًا لمصر، وعنيت الوزارة بوضع الدستور، وألفت فى شهر أبريل لوضعه لجنة من ثلاثين عضوا، وأخذت تعقد لذلك اجتماعات كثيرة، وفى شهر أكتوبر تألف حزب الأحرار الدستوريين، وكانت كثرة أعضائه ممن انشقوا على سعد والوفد، واختير عدلى يكن رئيسًا للحزب؛ وبذلك بدا جليا انقسام الأمة إلى كثرة وفدية وأقلية دستورية.

وكان الصبى منذ إغلاق معهده الدينى يعكف على قراءة الصحف متتبعًا الأخبار السياسية وما قد تذكره الأنباء العالمية عن

سعد ورفاقه، وما يشهره أعضاء الوفد من أسلحة فى مقاومة الإنجليز، ومايحدث - أحيانًا - من الاعتداء على الإنجليز والفتك بهم. وظل يتتبع - مبتهجًا - انتصارات تركيا بقيادة مصطفى كمال على اليونان، وكانت قد احتلت بإيحاء من الحلفاء أزمير وشطرًا كبيرًا من الأناضول عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى فى هذا القرن.

وكان الشعب التركى قد تحول فى الأناضول إلى عصابات مسلحة تقاوم اليونانيين، والتحقت بها قوات نظامية حتى إذا كانت سنة ١٩٢١ وقاد الجيش التركى مصطفى كمال أخذ يسحق جنودهم سحقًا ذريعًا فى معارك متوالية. وكان الصبى يفرح فرحا شديدًا كلما انتصر مصطفى كمال فى موقعة، وكان ما يزال ذاهبًا آيبا إلى باعة الصحف، ليحصل على إحداها أول دخولها دمياط ويقف على آخر أنباء تلك الحرب، وكانت المعارك فيها قد احتدمت فى صيف سنة ١٩٢٢.

ومازال مصطفى كمال يذيق اليونانيين وبال عدوانهم الأثيم حتى استولى منهم فى شهر سبتمبر على أزمير، وفرت فلولهم مدحورة إلى ديارهم، وكان نصرا عظيما لتركيا وبطلها مصطفى كمال، وهو نصر ظل المصريون يتلقون أنباءه بابتهاج ما بعده ابتهاج، كان الصبى يراه مجسدًا فى العناوين الكبرى على واجهات الصحف وفى تعليقات المحررين وإشادتهم بانتصارات الترك الساحقة؛ لا لأن تركيا ظلت منذ تحولت إليها الخلافة مركزًا روحيًا للإسلام

فحسب، بل ربما كان أهم من ذلك فى نظر المصريين حينئذ أن انتصار الترك فى واقعه كان انتصاراً حاسماً على قوى الاستعمار البغيض الذى ينبغى أن تُدَّق أعناقه فى كل مكان.

وكانت دول الاستعمار - وخاصة إنجلترا الموعزة لليونان باحتلال الأناضول - تنظر إلى هذه الانتصارات وضرباتها القاصمة لليونانيين بقلق لم يلبث أن تحول إلى جزع عميق، فتلك تركيا الدولة المسلمة المهزومة فى الحرب العالمية حينئذ والتى مزقوها فى مؤتمر الصلح إربا - وبلغ من استهانتهم بها أن منحوا اليونان أزمير وشطرًا كبيرًا من الأناضول - تعود سريعًا إلى الظهور فى ميادين الحرب ببسالتها القديمة، وتفتك بجنود اليونان فتكًا لا يكاد يبقى منهم ولا يذر.

رحيل

٤

وكان الصبى قد عاد مع العام الدراسى الجديد إلى استئناف الدراسة فى السنة الأولى بالمعهد الدينى، واشترى ما يلزمه من الكتب الدراسية، ومن بينها متن الأجرومية فى النحو، وفوجئ فى أول درس حضره عند الشيخ الذى كان يدرس له ولزملائه هذا المتن بندائه باسمه، وكان أبوه صديقًا له، وكان قد أوصاه به. ووقف الصبى فقال له: قل ورائى: «الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع» وهى أول عبارة فى متن الأجرومية، ومعروف فى النحو أن الكلمة ثلاثة أنواع: اسم وفعل وحرف، وأن الكلام هو الجمل والعبارات المفيدة المنطوقة نطقًا عربيًا سليمًا، ولكن الشيخ لم يطلب منه أن يحاول فهم عبارة الأجرومية، فقد عاد يقول له: قل ورائى: «الكلام: مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة» و«هو ضمير فصل على الأصح مبنى على الفتح لا محل له من

الإعراب» و«اللفظ: خبر المبتدأ مرفوع بالضمة الظاهرة» و«المركب نعت لكلمة اللفظ مرفوع بالضمة الظاهرة» و«المفيد نعت ثان لكلمة اللفظ مرفوع بالضمة الظاهرة و«بالوضع الباء حرف جر وكلمة الوضع مجرورة بالباء وعلامة جرها الكسرة الظاهرة... وهذا الإعراب يشتمل من أبواب النحو ـ التى سيعنى متن الأجرومية بعرضها والشيخ بشرحها ـ على أبواب المبتدأ والخبر والنعت والجار والمجرور.

ولو أن أستاذًا من أساتذة التربية الحديثة وقف على هذه الطريقة فى تعليم النحو لأنكرها أشد الإنكار وقال: إنها طريقة مخطئة كل الخطأ، ومن شأنها أن تقيم حجابًا بينها وبين التلاميذ والطلاب فلا يفهموا النحو أبدًا ويظلوا طوال حياتهم يتعثرون فيه شاعرين أنه شىء معقد وأنه أكثر عقدًا من ذنب الضب فكيف يتعاملون معه؟ وكيف يستقر فى نفوسهم؟ وكيف يتهيأ لهم أن يفهموه يوما أو يعرفوه؟

وهى طريقة ترفضها التربية أو البيداجوجيا الحديثة رفضًا باتًا إذ لابد أن يؤخذ التلاميذ بالتعليم الابتدائى فى دروس النحو بالوقوف أولا على الكلمة هل هى اسم أو فعل أو حرف، وتعطى للناشئة صيغ وعبارات، ولكن لا يعربون منها شيئًا، بل يظلون يتزودون بأناشيد وبعبارات بسيطة مكتفين بقراءتها فى السنتين الأولتين من التعليم الابتدائى أو فى السنوات الثلاث الأولى دون أن يطلب منهم معرفة أى باب من أبواب النحو، فحسبهم أن تتعود آذانهم النطق السديد، ثم بعد ذلك تعرض عليهم فى سنة تالية

جمل وصيغ قصيرة تتكون من مبتدأ وخبر، ولا بأس أن يضم إليهما النعت، ولكن ليبق الجار والمجرور والمفعولات إلى سنوات تالية.

ومن أغرب الأشياء أن هذه الطريقة التربوية السليمة لم تنجح حتى الآن فى تمثل تلاميذ المدارس للنحو، بل إنهم يخرجون من التعليم الثانوى بعد سنوات طويلة يتزودون فيها بالنحو على الطريقة التربوية الحديثة ولا يحسنونه، حتى ليصبح ذلك مشكلة المشاكل وحتى لتتعقد له المؤتمرات لعلها تجد حلا للمشكلة وتوضع بعض الحلول والمقترحات وتطبق وتظل المشكلة قائمة، بينما يذكر الصبى أنه حين تعلم النحو على شيخه السالف فى الأجرومية هذا التعليم الذى لا يستخدم أية وسيلة من وسائل التربية الحديثة لم يدر به العام الأول فى المعهد الدينى حتى كان قد عرف النحو العربى معرفة واضحة، بحيث لم يضف إليها فى المستقبل إلا تفاصيل فى هذا الباب أو ذاك من أبواب النحو، أما الهيكل العام للقواعد النحوية فقد تمثله تمثلاً حسنًا على يد هذا الشيخ فى متن الأجرومية الصغير الذى لا يتجاوز ثلاثين صحيفة صغيرة. وكان أبوه يعرض عليه من حين إلى حين بعض أبيات من الشعر، ويطلب إليه إعرابها فيعربها دون توقف أو تردد أو خطأ.

وهو شىء يعز على الفهم والتفسير أن تخفق الطرق التربوية الحديثة فى تعليم النحو بحيث يستوعبه التلاميذ ويتمثلونه، بينما تنجح طريقة الأسلاف فى تعليمه بواسطة متونة ومختصراته وهى تخلو من كل هذه الطرق؛ ومع ذلك كانت تتمثله الناشئة الأزهرية

ولا تجد فيه عسرًا ولا مشقة، وكأنما عقوده المتراصة المتناسقة فى هذه المتون نقضتها أو نثرتها الطرق التربوية الحديثة، فسقطت بعض حباتها أو ضلت مكانها أو بُدِّل موضعها، فضاع من التلاميذ فى المدارس سياق النحو ونسقه القديم، وأصبح من المتعذر عليهم أن يتقنوه فهمًا وعلما.

وكانت الحركة الوطنية لا تزال ناشطة، فإن سعد زغلول كان لا يزال فى المنفى، وكان الإنجليز قد نقلوه فى أغسطس إلى جبل طارق واستقالت وزارة عبدالخالق ثروت فى نوفمبر وألف الوزارة بعده محمد توفيق نسيم، وكانت وزارته رجعية، ومن أسوأ ما صنعه حذفه لنصوص السودان من الدستور؛ وبذلك تنازلت مصر عن حقها فى أن يلقب ملكها بلقب ملك السودان واستقال فى فبراير سنة ١٩٢٣ فألف الوزارة بعده يحيى إبراهيم فى منتصف مارس وصدر الدستور فى أبريل وقد حذفت منه النصوص الخاصة بالسودان، وصدر معه قانون الانتخابات لقيام برلمان مصرى.

والبلاد فى كل ذلك تغلى واغتيالات الإنجليز تتكاثر، ومصر والمدارس والأزهر والمعهد الدينى بدمياط؛ كل ذلك يموج بالمظاهرات ويضطر الإنجلير إلى رد حرية سعد زغلول إليه فى آخر مارس، وبالمثل رُدَّت الحرية إلى من نفوا معه إلى جزر سيشل وإلى كثير من المعتقلين السياسيين فى مصر؛ وتكون لذلك رنة فرح عظيمة عند الصبى ورفاقه فى المعهد الدينى ويخرجون متظاهرين هاتفين بحياة سعد.

ويبدأ الصبى عامًا جديدًا فى الدراسة وكان أهم حدث سياسى فى مطلعه عودة سعد زغلول إلى وطنه فى سبتمبر سنة ١٩٢٣ وكانت عودته عيدًا للشعب فى كل مدينة وفى كل بلد، وكثرت الاحتفالات وكثرت المظاهرات الهاتفة باسمه، وكأنما كانت مبايعات كبيرة من الشعب وأبنائه لزعامته وقيادته الباسلة للحركة الوطنية.

وكان الصبى قد انتقل فى المعهد الدينى إلى السنة الثانية، وكان الكتاب المقرر فى النحو أكثر تفصيلا من متن الأجرومية وهو متن الأزهرية، وأخذ الشيخ يشرح الكتاب للصبى ورفاقه، وابتدأ بإعراب: «بسم الله الرحمن الرحيم» التى يفتتح بها الكتاب ومعروف أن كلمتى الرحمن الرحيم، صفتان أو نعتان للفظ الجلالة وأنهما مثل منعوتهما أو موصوفهما مجروروتان، ولكن من حق المتكلم إذا لفظ بنعت أن يقطعه عما قبله ويستأنف، وحينئذ إما أن يرفع النعت على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره فى الآية الكريمة «هو» وإما أن ينصبه على أن مفعول به لفعل محذوف تقديره «أقصد» وشرح الشيخ هذا الإعراب للنعت، ثم قال: إن النعت الأول بذلك يكون من حقك إما أن تجره فتقول «الرحمن» بالجر، وإما أن ترفعه أو تنصبه، وفى حالة الجر لهذا النعت الأول لك أو من حقك أن تتبع له النعت التالى وهو لفظ «الرحيم» أو ترفعه أو تنصبه، ولك مع الرفع والنصب حالتان مثلهما.

ولم تكن هناك حاجة لهذه الصورة المعقدة فى إعراب البسملة؛ وكان يكفى أن يعربها الشيخ الإعراب الظاهر الذى يتمشى مع نطق

الآية فى القرآن الكريم ومع نطق الخطباء وأئمة المساجد، فتكون كلمتا «الرحمن الرحيم» مجرورتين نعتين للفظ الجلالة؛ ولكن من الغريب أن إعراب الشيخ للبسملة على هذا النمط المعقد بعض الشىء ثبَّت فى عقل الصبى فكرة القطع والاستئناف للنعت ولم تعد تبرح ذاكرته أو تضيع منها أبدًا.

ويجمع التربويون المعاصرون على أن هذه الطريقة لتعليم النحو عقيمة، وهى فى الحق لم تعقم أبدًا بدليل أن من كانوا يتعلمون بها كانوا يحسنون فهم النحو وقواعده، ويتعمقون فيه تأويلاً وتحليلا، مما لا يستطيعه بحال من يتعلمون النحو بالطرق التربوية الحديثة، وقد يكون ظاهر الطريقة الأزهرية العتيقة يوحى بأنها عقيمة، بينما هى قائمة على أسس تعليمية موروثة تخالف أسس التربية الحديثة التى توزِّع أبواب النحو على سنوات التعليم؛ وبذلك تبعثرت قواعده، ولم تستقم صورتها فى أذهان الناشئة فى حين أن الطريقة الأزهرية التى تعلم الصبى على أسسها كانت تعرضه - دائما - عرضًا كليا؛ فالطلاب يلمون كل سنة بهيكله، وهو هيكل يعرض فى أول سنة عرضًا موجزًا فى الأجرومية، ويتسع المتن قليلاً فى السنة الثانية فيدرسون متن الأزهرية ثم يتسع أكثر فى السنة الثالثة فيدرسون متن القطر، وفى السنة الرابعة يدرسون متن الألفية؛ وبذلك تتكرر عليهم صورة النحو أو قل يتكرر هيكله، ويرونه جميعه دائما دفعة واحدة غير مقطعة الأوصال فيستقر فى أذهان الطلاب، ويرسخ رسوخ الصخر.

وكان بدمياط مواسم يمرح فيها الصبى غاية المرح لعل من أهمها الأعياد، وكان تقام لها ألعاب فى حارة تسمى حارة العيد، وكان الصبية يؤمونها ليتفرجوا على ما فيها من أراجيح شتى ومن فرسان خشبية معلقة بحبال متينة إلى رأس عمود يركبها الصبية وتدور بهم مبتهجين، غير ما كان هناك من صنوف للحلوى يشتريها الصبية وهم يلعبون ويتصايحون.

وكان من أكبر المواسم مولد سيدى أبى المعاطى، وهو شيخ مغربى صالح نزل دمياط منذ قرون واستقر بها، ولأهل دمياط فيه اعتقاد جعلهم يعنون بضريحه ويرفعون فوقه قبة كبيرة، وتبعهم أبناؤهم وأحفادهم يزورونه ويعقدون له سنويًا مولدًا كبيرًا فى ساحة واسعة، وعادة تكون الليلة الكبيرة لهذا المولد ليلة الخامس عشر من شهر شعبان، ويقام له موكب ضخم يسير فيه أصحاب الطرق الصوفية، وكل طريقة من تلك الطرق يتميز أهلها من سواهم بألوان عمائمهم وبيارقهم ولكل طريقة «سرادق» تُصَف فيه كراسى ومقاعد على جوانبه، فى الليل يضاء بالأنوار الكهربائية وتقام فيه حلقة ذكر يتقابل فيها صفان من الشيوخ والشباب يتمايلان يمينًا وشمالا ذاكرين الله ذكرًا كثيرًا بينما يقوم بين الصفين منشد يبث فى الذاكرين بنشيده حماسة قوية، ويقبل على شيخ الطريقة حينئذ مريدوه، ومن يريدون الانضمام إلى طريقته يأخذ العهود عليهم والمواثيق.

وتتحول ساحة هذا المولد طوال أيام انعقاده إلى سوق كبيرة، يقيم فيها التجار دكاكين تزخر بقفف مليئة بالحمص وحَبِّ العزيز

والخروب والتمر ويجاريهم أصحاب الحلوى والشراب من كل صنف. ولا ينسى الصبى أبدًا يوم الرؤية لهلال رمضان فى التاسع والعشرين من شعبان، إذ كانت تستحيل شوارع دمياط إلى ما يشبه كرنفالاً ضخمًا، وهو كرنفال حافل كانت تسير فى عربات نقل كبيرة مكشوفة ومزدانة بسعف النخل وبعض الأغصان والأزهار وبعض الأعلام والرايات، وتتعاقب هذه العربات وعليها صناع من كل لون يزاولون صناعاتهم من حدادة ونجارة ونحاسة وحياكة ودباغة وجزارة وصنع أحذية ونسيج لقطن أو حرير، وباعة الفول المدمس والحلوى والحلاقون وكل من له صنعة بدمياط تراهم مكبين على صناعاتهم فوق تلك العربات؛ فعربة الحدادة - مثلاً - عليها صبى ينفخ فى الكير، والفحم متقد، وصبى يلاحظه، والحداد يضرب بمطرقة من فولاذ على سندان مسويًا أعمدة رفيعة محماة من حديد. وعربة النساج عليها النول وخيوط وأقمشة مختلفة، وهو يشد السَّدى إلى اللحمة. والنجار فى يده عدده، والنجارون أنواع، وكل نجار قائم على صناعته، والحلوى بالمثل أنواع وأصحابها متعددون وأمامهم صنوفها وصينياتها. وكذلك صناع الأحذية ومن يشتغلون بالحياكة. والحلاق بين يديه زبون أمامه مرآة كبيرة وقد غمر ذقنه بالصابون والموسى فى يده وهو يشحذه على شريط معلق من الجلد. كرنفال رائع لا يبرح ذاكرة الصبى لا هو ولا ما كان يدخله على نفسه من متعة.

وأخذ الصبى منذ انتظامه فى المعهد الدينى يشغف بقراءة الصحف، لقد كان يشغف بها فى القرية حين كان أبوه يحملها معه من دمياط فيرى فيها أخبار الحرب العالمية الأولى ويرويها للداته، وقد أصبح الآن أشد شغفًا بها لا لما تحمل - فقط - من أخبار الحركة الوطنية وسعد زغلول زعيم البلاد ونفى الإنجليز له تارة إلى مالطة وتارة إلى جزر سيشل وجبل طارق وهو يزداد عتوًا وصلابة ما بعدها صلابة، - وأيضًا - لا لما تحمله من انتصارات الترك الماحقة لجنود اليونان محقا وبيلا؛ بل - كذلك - لما كانت تحمل من فصول أدبية طويلة وخاصة صحف الوفد والأحرار والدستوريين؛ إذ عُنى كل من الحزبين بأن يستكتب فى صحفه بعض الأدباء ليجذب الشباب والقراء ويستميلهم إليه.

وأتاحت هذه الفصول للصبى فى سن مبكرة أن يتصل بالحياة الأدبية فى مصر، وكانت تملك عليه لُبَّه كتابات العقاد فى صحيفة البلاغ الوفدية وكتابات محمد حسين هيكل وطه حسين فى صحيفة السياسة الدستورية. وكان طه حسين يعنى فيها بالكتابة الأدبية الخالصة، واختار لكتابته وفصوله الأدبية يومين: يوم الأحد لتلخيص قصة من قصص الأدب الفرنسى، ويوم الأربعاء لكتابة موضوع يتصل بالشعر العربى، وكان الصبى يتابع مقالاته عن تطور الشعر فى العصر العباسى الأول، وكان قد تحدث فيها عن «أبى نواس ومجنونه» وذهب إلى أن عصره كان عصر مجون وزندقة، مما جعل كثيرين يثورون ثورة عنيفة ضده، لما تجر مقالاته من إفساد فى رأيهم لأخلاق الشباب إذ يتخذ من أبى نواس وغيره من شعراء المجون مقياسًا للعصر العباسى الأول مُعْرِضًا عما كان فيه من الزهد والزهاد ومن العلماء والفقهاء والمحدثين والنساك.

وتتحول المعركة من أبى نواس إلى التاريخ الإسلامى جميعه وهل تضفى عليه أسدال من الجلال تحول بين عقول المعاصرين وبين النظر العلمى الصحيح فيه..؟ ويذهب طه حسين إلى أن الأحكام التاريخية أحكام إضافية وليست أحكامًا مقدسة، ومن الممكن أن يظهر النقد العلمى خطأها.

ولا يلبث مصطفى صادق الرافعى أن يرسل إلى صحيفة السياسة رسالة عتاب كتب بها إلى ظريف من أدباء الشام، وكان ينزع فى أدبه منزعًا محافظا، وقد كتبها فى لغة مسجوعة محملة بزخارف المحسنات البديعية، وكأنما أراد أن يلقى بها فى معسكر المجددين ليرى مبلغ تأثيرها، وكانت قنبلة أحدثت دويًا هائلا، وتصدى لها طه حسين يحاول أن يبطل تأثيرها فقال: إن أسلوب الرسالة ربما راق القدماء ولكنه لا يروقنا الآن لتغير الذوق الأدبى فى مصر تغيرا تاما؛ فقد أصبح الأدباء المصريون لا يعجبون بالأسلوب المسجع المنمق، إنما يؤمنون بالأسلوب الحر الطليق من كل قيد والذى يلائم العصر والحياة الواقعة.

وظل صادق الرافعى حاملاً لواء المحافظين واقفًا فى صف مقابل للكتاب الثلاثة المجددين: طه حسين والعقاد وهيكل. وذات يوم رأى الصبى للرافعى كتابه «حديث القمر» فاقتناه ووجده فصولاً فى الحب والجمال والطبيعة، وأقبل عليه يقرؤه معجبًا بجمال تصويره وبأحاديثه العاطفية فى الحب، غير أنه كثيرًا ما كان يتوقف فى القراءة لما ينتشر فى الكتاب من إبهام وغموض؛ وعرف فيما

بعد أن صممه المبكر هو الذى أداه إلى ذلك؛ إذ جعله يتحدث إلى الناس ولا يسمعهم وكأنه فى كتاباته إنما يحدث نفسه.. فكثير منها إنما هو منولوج داخلى.

وكان الصبى يعجب بهيكل لأسلوبه الشفاف وكذلك بالعقاد لقوة منطقه ووضوحه، وكان طه حسين أكثر منهما قربًا إلى نفسه؛ ربما لأنه بدأ حياته أزهريًا مثله، ولما يمتاز به أسلوبه من سهولة ويسر ونصاعة... وكان هؤلاء الأربعة كثيرًا ما يتحاورون فى بعض المسائل الأدبية حوارًا طويلا فيحتل بعض حوارهم أو بعض مقالاتهم صفحة فى الصحيفة اليومية السيارة.

وكانت الصحف الوفدية ما تزال - منذ عودة سعد زغلول إلى الوطن - تحمل على وزارة يحيى إبراهيم حملات عنيفة، بينما مضى يعد العدة لانتخابات البرلمان، ووزع القطر المصرى إلى ٢١٤ دائرة لمجلس النواب وإلى ٧١ دائرة لمجلس الشيوخ وأعضائه المنتخبين. واهتم الشعب بالانتخاب وتألفت له الجان شعبية فى المدن والقرى، وتمت انتخابات النواب فى يناير سنة ١٩٢٤ وفاز الوفد بمائة وخمسة وتسعين مقعدا وكان فوزًا جارفا؛ إذ لم يفز من الأحرار الدستوريين سوى ستة، وكذلك لم يفز من الحزب الوطنى سوى ثلاثة. وسقط فى الانتخابات أكثر خصوم سعد، وسقط رئيس الوزارة يحيى إبراهيم فى دائرة منيا القمح أمام مرشح الوفد. وكان أبو الصبى وفديا؛ وكانت لذلك فرحة كبيرة عند الصبى وأبيه وعند الشعب جميعه.

وكان طبيعيًا أن يتولى سعد زغلول الوزارة كما يحتم ذلك الحكم الديمقراطى نزولاً على إرادة الأمة، وفعلاً استقال يحيى إبراهيم عقب ظهور نتائج الإنتخابات، وألف الوزارة سعد زغلول، وأجريت الانتخابات لمجلس الشيوخ فى أواخر فبراير، وفيها علت كفة المرشحين الوفديين علوًا كبيرًا، وفى ١٥ من مارس افتتح أول برلمان مصرى.

وكان مصطفى كمال قد عمل على تحويل تركيا إلى دولة حديثة، وصدعت لرغبته الجمعية الوطنية الكبرى فأعلنت قيام الجمهورية التركية وانتخبته رئيسًا لها، وتحول بعاصمة البلاد من إستانبول إلى أنقرة.

وفى الثالث من شهر مارس قبيل افتتاح البرلمان المصرى اتخذت الجمعية الوطنية التركية قرارًا بإلغاء الخلافة استجابة لرغبة مصطفى كمال فى أن يسير بتركيا فى طريق الحضارة الغربية وأن يصبغ الدولة بصبغة مدنية خالصة؛ وأحدث ذلك استياء فى العالم الإسلامى كان له أصداؤه فى الصحف المصرية، فكثر الحديث عن الخلافة وعواقب إلغائها، ودعا كثيرون إلى العمل على قيامها، ولم يتراء فى الأفق أى أمل فى نجاح هذه الدعوة؛ إذ كانت البلاد الإسلامية ترزح جميعا تحت نير الاستعمار الأوربى البغيض.

وكان الصبى قد انتقل فى المعهد الدينى إلى السنة الثالثة وبدأ عامًا دراسيًا جديدًا، وكان كلما صوب سؤالاً إلى أحد شيوخه بدأ

إجاباته بقوله له: يا فتى، وكان قريبًا إلى نفوس الشيوخ جميعًا وعرض عليه شيخ النحو والصرف أن يقرأ معه الدرس ليلاً قبل أن يلقيه عليه وعلى رفاقه صباحًا لضعف كان فى بصره؛ فكان يقرأ مع شيخه الدرس فى المساء فى نحو ساعة أو تزيد قليلا. وكان يطلب إليه - أحيانًا - أن يقرأ ما يقوله الشارح فى بعض المواضع تعليقًا على متن الكتاب وكان كتاب القطر واسمه الكامل «قطر الندى وبل الصدا» وقطر الندا: حياة الزهر فى الصباح، والصدا: العطش.

وفكر الفتى حينئذ فى أن يكتب ملخصًا لمتن القطر الذى كان يقرؤه مع شيخه جامعًا بينه وبين شرحه، ولم يكد العام الدراسى يوشك على الانتهاء حتى كان قد أتم تأليف هذا الملخص؛ وبذلك كان أول كتاب ألفه الفتى فى النحو؛ وقد يكون فى ذلك ما يشير إلى ما سينشط له الفتى - فيما بعد - من التأليف والتصنيف.

وتصادف أن رأى فى هذا العام الدراسى - يومًا - لابن هشام مؤلف كتاب القطر كتابًا فى بعض المكتبات يتناول النحو ومسائله فى جزءين يسمى «كتاب مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب» فاقتناه وأعجب بطريقة ابن هشام فى صوغه وتأليفه، إذ يعرض فى نحو جزء منه الأدوات الكثيرة فى العربية من الحروف والأسماء ويبين وظائفها المتعددة، فمثلاً «ما» يذكر ابن هشام فى درسه لها أنها تأتى اسمًا، وحينئذ قد تكون موصوفة أو موصولة أو تعجبيه أو استفهامية أو شرطية، وتأتى حرفًا وحينئذ قد تكون نافية أو مصدرية أو زائدة.

وهكذا ما يزال ابن هشام يصور فى الجزء الأول أو المجلد الأول من كتابه «المغنى» الوظائف المختلفة للأدوات الاسمية والحرفية فى اللغة، وفى الجزء أو المجلد الثانى يبسط القول فى الجملة وأقسامها وأحكامها وتطبيقاتها؛ وهوعرض للنحو بطريقة جديدة غير مألوفة فى كتبه، وربما كان هذا الكتاب هو الذى ألقى فى وعى الفتى مبكرًا حاجة كتاب النحو الخاص بالناشئة إلى التيسير والتبسيط مما جعله فيما بعد ينشط للوفاء بهذه الحاجة.

ولم يكن الفتى فى هذا العام الدراسى يعكف على كتب النحو وحدها بل كان يعكف - أيضًا - على كتب الفقه الشافعى ومتونه وشروحه وشروح الشروح المسماة بالحواشى، وبالمثل كان يصنع رفاقه، وكان أكثرهم محاورة وأسئلة لشيخه، وكان يعجب رفاقه منه ذلك، وكانت تجرى على ألسنتهم أسماء أئمة الفقه الشافعى السابقين ممن يتردد ذكرهم فى الشروح والحواشى مثل: النووى والرافعى والرملى والعز بن عبدالسلام. وتصادف أن كان والد الفتى يسمى عبدالسلام، فأطلق رفاقه عليه اسم هذا الإمام، فكانوا ينادونه إما باسم العز وإما باسم ابن عبدالسلام.

ولم يكن الفتى قد عرف موقف هذا الإمام المعروف من «الظاهر بيبرس» الذى مزق جموع التتار فى «عين جالوت» بفلسطين شر ممزق، وكسب لنفسه ولمصر مجدًا حربيًا رائعًا، فإنه أراد أن يأخذ لنفسه بعد هذا النصر المبين البيعة بالسلطنة على مصر، وبينما كان يبايعه الأمراء والقضاة وعلماء الدين تصدى له

العز بن عبدالسلام قائلاً فى وجهه: إن بيعتك لا تصح؛ لأنك لست حرا، والحرية أساس فى الولاية على الناس، وأنت مملوك للبندقدار. وحينئذ استحضر بيبرس شهودًا شهدوا له أن البندقدار أعتقه وحرره فبايعه العز. وظل معاصروه والأجيال التالية يعجبون به لهذا الموقف العظيم وأنه لم يكن يخشى فى إعلان الحق أحدًا مهما تكن قوته وسلطانه.

وكانت بمصر فى العقد الثالث من القرن الحاضر محاكم تسمى محاكم الخط، كانت تؤلف من بعض الشيوخ فى القرى أو بعض ذوى الوجاهة فيها للفصل فى الخصومات الصغرى بين القرويين لأنهم أكثر دراية بشئونهم وبما ينشأ - أحيانًا - بينهم من خصومات على الرى وغيره مما يتصل بحياتهم، وكان أبوه عضوًا فى محكمة خط دمياط، فكان يذهب - أحيانًا - للفرجة على هذه المحكمة، وهى تحقق فى القضايا وتناقش الشهود، مبتغية الوصول إلى الأحكام العادلة المنصفة؛ وربما كان لذلك بعض التأثير فى الفتى فيما بعد؛ إذ أحب الإنصاف فى أحكامه على الأدباء وآثره دون تحيف لهم أو تنقص.

وكانت مصر حينئذ تعقد الآمال على زعيمها سعد زغلول أن يحقق لها - وهو رئيس وزارتها - أمانيها القومية ويسترد لها من الإنجليز الباغين حريتها كاملة وحقوقها السياسية فى السودان، وتصادف أن كانت تتولى الحكم فى إنجلترا وزارة لحزب العمال هناك برياسة - ماكدونالد - وكان قد أبرق إلى سعد يهنئه بافتتاح

البرلمان ويبدى استعداده واستعداد حكومته للمفاوضة معه. وبينما سعد يتأهب للذهاب إلى إنجلترا، لعله يحقق لبلاده ما تتمنى؛ إذ شاب يطلق عليه الرصاص فى ١٢ من يوليه. فأصابه فى ساعده الأيمن إصابة خفيفة وتبين أن به مسًا من جنون فأدخل فى مستشفى الأمراض العقلية!!

ومضى سعد يستعد للسفر إلى لندن، ومصر جميعها حانية عليه عاطفة آملة أن يحقق لها جميع مطالبها، فترفع إنجلترا يدها عن حماية قناة السويس وعن السودان ويتم لها استقلالها... ودارت هذه المعانى فى صدر شاعر مصر شوقى، كما كانت تدور فى نفس سعد، فيحييه قبيل إبحاره من الإسكندرية بقصيدة رائعة نشرها بصحيفة الأهرام فى ٢٤ من يولية وفيها يهتف:

ويا سعد أنت أمين البلاد ... قد امتلأت منك أيمانها

ولن ترتضى أن تُقَدَّ القناة ... وَيُبْتَر من مصر سودانها

فمصرُ الرياض وسودانها ... عيونُ الرياض وخلجانها

وما هو ماء ولكنه ... وريد الحياة وشريانها

تُتَمِّم مصر ينابيعه ... كما تمم العين إنسانها

وكانت هذه أول مرة يقرأ الفتى لشوقى قصيدة وطنية، وأخذ يردد أبياتها وينشدها وخاصة الأبيات الثلاثة الأخيرة؛ فقد ظلت لا تبرح ذاكرته أبدًا، وظل إعجابه بشوقى وشعره يزداد مع الأيام.

وكان سعد قد اتجه إلى باريس، وظل بها حتى بارحها إلى لندن فى ٢٣ من سبتمبر لمفاوضة ماكدونالد، وبدأت المفاوضة بعد يومين وفيها قدَّم سعد مطالب مصر الكفيلة بتحقيق استقلالها التام، وأهمها جلاء جميع القوات البريطانية عن الأراضى المصرية وزوال كل سيطرة لبريطانيا عن مصر وعن جيشها فى السودان؛ بحيث يخرج منه قائده الإنجليزى ومن معه من الضباط الإنجليز، مع اعتراف بريطانيا بتنازلها عن دعوى حمايتها لقناة السويس وللأجانب والأقليات فى مصر ومع سحبها للمستشارين: المالى والقضائى... ولم تلبث المفاوضة مع ماكدونالد أن تعثرت؛ إذ عمد إلى المناورة مع سعد.

ولما تبين لسعد - بشكل قاطع - سوء نيته هو ووزار قطع المفاوضة معه وعاد إلى مصر فى ٢٠ من أكتوبر مرفوع الرأس موفور الكرامة لمواقفه القوية فى المفاوضة وإبائه التنازل عن أى حق من حقوق بلده. ولم يكد يمضى شهر على عودته حتى وقع حادث مروع؛ إذ اغتيل السير لى ستاك سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العام، وانتهزت إنجلترا الفرصة فقدمت إلى سعد بعد يومين إنذارًا عنيفًا، تطلب فيه اعتذار الحكومة المصرية عن الجناية وأن تتعقب الجناة وتعاقبهم أشد العقاب وأن تدفع للحكومة البريطانية غرامة مقدارها نصف مليون من الجنيهات، وأسوأ من هذا كله أن تسحب الجيش المصرى من السودان!

وارتضى سعد دفع التعويض المالى غير أنه أنكر أشد الإنكار ما طلبه الإنجليز من خروج الجيش المصرى من السودان وتركه

للإنجليز ليجعلوا منه مستعمرة إنجليزية وسط القارة الأفريقية. وكتب المندوب السامى إلى سعد أنه أرسل إلى حكومة السودان بتعليمات تقضى بإخراج الجيش المصرى من السودان، وأنه أمر باحتلال قوة عسكرية بريطانية لجمارك الإسكندرية، حينئذ أصر سعد على استقالته فى ٢٤ من نوفمبر.

وحدث أن سكن بجوار منزل الفتى تاجر لبنانى يتجر فيما يجلبه من بلده لبنان إلى دمياط من التين والجوز واللوز والفستق والبندق، وكان هذا التاجر دمث الخلق رقيق الحاشية، وتعرف أبو الفتى إليه، كما تعرفت زوجته بوالدته، وتزاورت الأسرتان وانعقدت بينهما مودة، وذات يوم دخل الفتى دكان هذا التاجر، فرحب به، ووجد الفتى عنده بعض مجلات وكتب أدبية لبنانية، فاسترعت نظره وأخذ يقلب فيها، ووجد فيها أشعارًا لبعض اللبنانيين ولبعض الشعراء المهاجرين إلى أمريكا، كما وجد بعض مقالات أدبية، فأخذ يقرأ هنا وهناك ولاحظ ذلك التاجر وكانت فيه نزعة أدبية - فسأله - هل تحب أن تأخذ معك بعض المجلات أو الكتب لتقرأها ثم تردها؟ وتمنع الفتى، وقال له التاجر: إن هذه المجلات والكتب تأتينى دائمًا، ولا بأس أن تتردد علىّ تقرؤها.

وأصبح من عادة الفتى المحببة إلى نفسه أن يمر على دكان هذا التاجر من حين إلى آخر ويقرأ عنده ما يأتيه من مجلات أو كتب أدبية وكانت هذه القراءات نافذة جديدة للفتى كى يقرأ أشعارًا من طراز جديد لا يألفه، طراز ليس فيه مديح ولا هجاء وإنما فيه شغف بالطبيعة، وفيه مشاعر وجدانية ونزعات إنسانية وتبرم بما

فى الدنيا من شرور وآلام.وكان من أهم ما لفت الفتى فى أشعار هذا الطراز كثرة ما يجرى فيها من الصور والاستعارات والأخيلة، حتى لكأنما غاية الشاعر أن يأتى بطرائفها المبتكرة ولم يكن الفتى قد عرف أن أصحابها يتأثرون بالنزعة الرومانسية الغربية وأنهم لذلك مولعون بالتشبيهات والاستعارات وبتصوير العواطف الحارة إزاء جمال الطبيعة ومفاتنها وإزاء الإنسانية وآلامها وأوصابها، وقد غرست هذه الأشعار فى نفس الفتى محبة التصوير فى الأدب وما يحمل من خيالات وأطياف مبتكرة.

وفى ذات اليوم الذى قدم فيه سعد زغلول استقالته واستقالة وزارته يوم ٢٤ من نوفمبر سنة ١٩٢٤ ألف القصر وزارة رجعية برياسة أحمد زيور، فسلم للإنجليز بكل ما تضمنته إنذاراتهم لسعد وكل ما طلبوه منه، ولم يسلم - فقط - بجلاء الجيش المصرى عن السودان، بل سلم أيضًا بجلاء الموظفين المصريين المدنيين عن القطر الشقيق؛ وبذلك وقع جلاء مصر عسكريًا ومدنيا عن السودان، وأطلق أيدى المستشارين البريطانيين: المالى والقضائى، واتسع بسلطة مدير القسم الأوربى فى الأمن العام، وكأنه لم يعد رئيس وزارة مصرية بل أصبح موظفًا فى وزارة الخارجية البريطانية فهو يأتمر بأمر المندوب السامى وينفذ كل مطالبه، وبدأ فأجّل البرلمان شهرًا، وبعد شهر ثان استصدر مرسومًا بحله.

ولم يلبث زيور أن أسس للقصر حزبًا سماه «حزب الاتحاد» وصحيفة باسمه تنطق بلسانه، وكأنما ظن أنه من الممكن أن يسود

مصر حكم مطلق تهدر فيه حقوق الأمة، ويكون الأمر كله للحاكم يوجهها كما يشاء ويهوى، وخاب ظنه؛ إذ أجرى فى يوم ١٢ من مارس سنة ١٩٢٥ الانتخابات لمجلس نواب جديد، ففاز الوفد بأغلبية عظيمة، وعلى الرغم من ذلك ألف القصر وزارة جديدة اشترك فيها مع حزب الاتحاد حزب الأحرار الدستوريين، وكان عدلى يكن قد استقال من رياسة هذا الحزب وخلفه عليها عبدالعزيز فهمى فاشترك فى الوزارة مع ثلاثة من أعضاء حزبه.

ولم يلبث زيور أن حل مجلس النواب الجديد يوم انعقاده فى ٢٣ من مارس وبذلك تعطل الدستور قبل أن يجف مداده، وأصبحت الأمة تحكم حكمًا استبداديًا يقوم عليه حزبان لا يمثلان إلا أقلية محدودة فى البلاد، وحتى حزب الأحرار الدستوريين الذى طالما ناضل كثير من أعضائه ضد الإنجليز الغاشمين واشترك غير عضو منهم فى وضع الدستور انقلبوا يضحون به على مذبح المناصب الوزارية.

واستفحل حينئذ نفوذ القصر وانعكست الآية، فأصبح هو ـ لا الأمة ـ مصدر السلطات؛ وكان من آثار ذلك أن كثر الملق للقصر وصاحب القصر، وكان أكبر ما أحاط به من حزب الاتحاد فؤادا من ملق ما أخذ يوسوس به شياطينه إليه فى أنه حرى به أن يطمح إلى الخلافة الإسلامية وأن يصبح خليفة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها، وكان بعض المصريين قد أخذ يدعو إلى انعقاد مؤتمر إسلامى عام للنظر فى إعادة الخلافة وفى أولى الحكام المسلمين

بتقلدها، فظن فؤاد ظنًا واهمًا أنه من الممكن أن تكون الخلافة من نصيبه.

وامتعض الشيخ على عبدالرازق القاضى الشرعى بمحكمة المنصورة لهذا الزيف الذى توشك مصر أن تتورط فيه، فنشر كتابًا ثائرًا بعنوان «الإسلام وأصول الحكم» ذكر فيه أن الإسلام دين لا دولة، وأن الخلافة ليست من أصول الإسلام وأن المسلمين اليوم لا يحتاجون إليها لا فى أمور الدين ولا فى أمور الدنيا..! وأثير غبار كثيف من الجدل حول هذا الكتاب وصنفت كتب مختلفة للرد عليه، وعُدَّ قنبلة موجهة لصاحب القصر؛ الغرض منها استئصال أمانيه فى الخلافة من جذورها، بل نسفها نسفًا، وحرك القصر بعض الأزهريين ضد الشيخ وكتبت فيه مقالات وقدمت للقصر عرائض، وفى ١٢ من أغسطس سنة ١٩٢٥ عقدت هيئة كبار العلماء برياسة شيخ الأزهر لمحاكمته، وانتهت إلى الحكم بإخراجه من زمرة العلماء!

وانتقل الفتى إلى السنة الدراسية الأخيرة بمعهده الدينى سنة ١٩٢٦/١٩٢٥ ولم يكن للمعهد مبنى خاص ولا مقاعد مهيئة للطلاب بل كانت الدراسة فى أكبر جامع بدمياط، وهو جامع البحر، وكان مفروشًا بالحُصُر، وفيه مقاعد منثورة مرتفعة خاصة بالشيوخ المدرسين، وكان الطلاب يتحلقون حولهم قعودًا على الحصر فيما يشبه نصف دائرة، والشيخ يكون فى يده ـ عادة ـ ملزمة من الكتاب المقرر أو من أحد شروحه وفى أيدى الطلاب ملازم مماثلة، والشيخ يقرأ أو يشرح والطلاب يسألون ويلحون فى

الأسئلة وهو يجيب. ولم يكن الطلاب الممتازون يسألون فحسب بل كانوا يعترضون على ما يقوله الشيخ، ويحاولون بكل ما استطاعوا أن يحرجوه أو يلزموه بما يقولون.

وكان الفتى على شاكله هؤلاء الطلاب يستعين فى ذلك ـ كما كانوا يستعينون ـ بقراءة شروح الشروح أو الحواشى، وكثيرًا ما كان يعترض شارح الشرح على مؤلف الشرح، وقد يعترض أحدهما على صاحب المتن؛ ومن خلال ذلك كان الصبى ورفاقه يحاورون شيوخهم محاورات شتى، وكانوا ـ أحيانًا ـ لا يكتفون فى هذه المحاورات بقراءة شروح الشروح أو الحواشى بل يضيفون إليها ما كتبه بعض المؤلفين عليها من ملاحظات ووجوه نقد ومراجعات كانت تتضمنها تقارير مطبوعة على هوامش الحواشى للتنبيه على خطأ أو تصحيح هنا أو هناك.

ولا شك فى أن هذه الصورة للكتب الأزهرية كما عرفها الفتى فى العقد الثالث من القرن الحاضر فى صورة المتون والشروح والحواشى والتقارير كانت مَشْحَذَةً كبرى لعقول الطلاب الأزهريين؛ فالكلمة فى المتن مختصرة أشد اختصار، وتُشْرَح وتُنَاقَش، والفكرة فى الشرح تشرح بدورها وتناقش مناقشة واسعة فى الحاشية؛ وليس ذلك فحسب بل ـ أيضًا ـ الفكرة فى الحاشية يناقشها مؤلف التقرير فى أضواء غامرة.

وكثيرًا ما سمع الفتى ـ فيما بعد ـ نقدًا لهذه الطريقة، وكان ـ دائمًا ـ يعارضه؛ لأنه لا يصور الحقيقة، ولأنه يتجنى على الأسلاف

فيما صنعوا من هذه الصورة الجدلية فى مختلف العلوم والفنون وخاصة فى الفقه وعلم الأصول وفى النحو والبلاغة... ولا ريب فى أن من ينقدون هذا النهج لم يعايشوه ولم يعرفوا مدى صَقْله للعقول وبنائها بناء منطقيًا سديدًا، ولو أنهم عايشوه لعرفوا أنه أفاد العقل العربى فى مصر وغير مصر خصوبة وغنى لا حد لهما فكل فكرة بل كل لفظة تمحَّص وتحلل وتختبر حتى يمكن أن توضع الوضع السليم، وأى اختبار؟ لقد تحولت المتون والشروح والحواشى والتقارير إلى مختبرات كبيرة لعقول أنبه العلماء فى كل فرعٍ من فروع العلوم الدينية واللغوية.

ولم يكن أى متن من المتون فى أى علم من العلوم مجرد تلخيص لعلم بعينه تلخيصًا موجزًا؛ بل كان مع هذا التلخيص الشديد يحمل مختلف الآراء فى المسائل العلمية دون ذكر أصحابها، وكان يومئ مولفه إليها إيماء، أو يضع عبارات من شأنها أن تومئ إليها؛ وهو لذلك لا يكتب متنه إلا بعد أن يقرأ أمهات الكتب فى العلم الخاص به، ثم يأتى بعده الشارح وصاحب الحاشية وصاحب التقرير، فيقرءون الأمهات وكثيرًا من كتب هذا العلم، ويعرضون عليها المتن أو قل يعرضونه على كل ما سبقهم من عقول خصبة فيه، ثم يعرضونه على عقولهم محاولين النفوذ إلى بعض الآراء السديدة.

وبذلك تصبح دراسة المتن البسيط لهذا الفتى وأنداه أشبه بدائرة معارف صغرى فى هذا العلم أو ذاك. وكان الطلبة عادة ـ مثل الفتى ـ يُعدُّون دروسهم فى الجامع ليلا؛ فالأنوار فيه ساطعة

منقدة إلى نحو الساعة الثانية عشرة، وتعود إلى الاتقاد والسطوع مع الصباح، وكان الفتى يؤثر إعداد دروسه فى المساء.

وكان يجد متعة لا تقدر فى مراجعة الشروح والحواشى والتقارير؛ كى يورد على الشيوخ فى الصباح ما يعنّ له من اعتراضات. وكأن الدراسة فى هذا المعهد - كما كانت فى الأزهر الشريف - لم تكن لجمع المعارف فحسب، كما هو الشأن فى المدارس المدنية، بل كانت - أيضًا - لنشوب معارك جدلية كبيرة، وهى معارك كانت تعتمد على ما أثاره الأسلاف فى شروحهم وحواشيهم وتقاريرهم، وعلى ما يثيره الطلاب وشيوخهم من آراء واعتراضات بعضها صلد كقطع الصخر، وبعضها هش كقطع الزجاج. ومهما صور الفتى - بعد ما تقدمت به السن - من خصب هذه المعارك فلن يبلغ كل ما يريد من بيان أهميتها وقيمتها فى بناء العقل وشحذه وإحكام تحليلاته واستنباطاته.

ولا ريب فى أن هذه المعارك الجدلية المستمرة كانت تتيح - إلى أبعد حد - للأزهريين من جيل الفتى والأجيال قبله وبعده قدرة فى تبين احتمالات النصوص، وما يمكن أن يؤديه منطوق النص ومفهومه وما يمكن أن يؤول ويفسر به؛ وقد ألقى ذلك فى وعى الفتى أن لا يسكن لتقبل المعارف فى يسر؛ بل - دائمًا - يحاور ويجادل فيما يلقى إليه وفيما يسمعه لا طلبًا للجدل والحوار فى أنفسهما؛ وإنما طلبًا لتبين الحقائق العلمية تبينًا دقيقًا مهما احتمل فى سبيل ذلك من العناء والمشقة الشديدة فى قراءة التقارير

والحواشى والشروح، ومهما بعدت به الطريق، ومهما كثرت العقبات فيها والصعاب؛ وإن الفتى حين يذكر ذلك بعد أن علت به السن ليتمنى أن تظل هذه الطريقة التعليمية قائمة فى الأزهر ومعاهده الدينية، حتى تستمر لطلابه قوة الجدال ودقة البرهنة والنفوذ إلى دقائق الأفكار.

ومن الغريب أن الجامعات فى مصر حين أُسِّسَتْ لم تفد الفائدة التى كانت مرجوة من صورة هذه الطريقة التربوية فى الأزهر ومعاهده الدينية. وليس من المعقول أن تدخل صورة المتون والشروح والحواشى والتقارير فى الدراسات الجامعية فليس ذلك هو جوهر الطريقة؛ إنما جوهرها النفوذ إلى المحاورة والمجادلة وعرض مختلف الآراء فى المسألة أو الفكرة الواحدة.

وكان من الممكن - على هذا الهدى - أن ينشأ على الأقل فى كليات الآداب والحقوق علم يسمى علم احتمالات النصوص، تدرس فيه الوجوه المختلفة لفهم النصوص الأدبية والفلسفية والقانونية؛ وكان من الممكن أن يتوسع فى ذلك فتدرس احتمالات النصوص فى الاقتصاد والسياسة.

وكانت الصحف قد ظلت مشغولة فترة طويلة بقضية الشيخ على عبدالرازق مبدئة ومعيدة فى الحديث عن حرية الفكر وحق كل مواطن فى التعبير عن رأيه أو آرائه، وكانت أسرة الشيخ من الأسر الأساسية فى حزب الأحرار الدستوريين، وطلب إلى عبدالعزيز فهمى رئيس الحزب ووزير العدل آنذاك أن يفصل الشيخ من

وظيفته فى القضاء الشرعى، فرأى إحالة الأمر إلى لجنة قضايا الحكومة لإبداء الرأى القاطع فيه وهل يؤدى قرار هيئة كبار العلماء فى الأزهر بإخراج الشيخ من زمرة العلماء إلى فصله من القضاء الشرعى حتمًا أو لا يؤدى إلى ذلك؟.

ورأى القصر وحواشيه أن هذا الإجراء معارضة صريحة لهواه ومشيئته، فأقيل عبدالعزيز فهمى من منصبه الوزارى فى شهر سبتمبر سنة ١٩٢٥؛ وأثار ذلك ضجة كبيرة فى الصحف وخاصة صحيفة السياسة لسان الأحرار الدستوريين؛ إذ أقيل رئيسهم من منصبه الوزارى دون رعاية أو نظر إلى أنه رئيس أحد الحزبين اللذين تتألف منهما الوزارة، واستقال وزيران دستوريان من الوزارة تضامنًا مع رئيس حزبهما واحتجاجًا على موقف القصر منه. وُملئت مناصبهم جميعًا بوزراء من حزب الاتحاد فأصبح هو وحده الذى يدير دفة الأمور بمصر.

وخُيِّل إلى القصر وحواشيه أنهم سيكسبون الرأى العام فى الشعب إلى جانبهم بما حاولوا من إثارة مشاعره الدينية ضد الشيخ على عبدالرازق وكتابه، وخاب فألهم؛ فإن الشعب أثبت أنه أكثر حصافة وأكبر من أن يتأثر بدعاية دينية مغرضة، فلم يأبه لها ولا التفت، ومضى يعارض - بكل ما استطاع - وزارة زيور التى انتهكت - دون أى حياء - حرماته الدستورية والسياسية وما تزال تتمادى فى انتهاكها دون زاجر أو رادع.

وكانت صحف الوفد تحمل حملات شعواء على زيور ووزارته منذ تأليفه لها، وانضمت إليها بمجرد خروج الدستوريين من الوزارة صحيفة السياسة الناطقة بلسانهم، وأخذوا يسعون للتعاون مع سعد زغلول فى معارضته للوزارة، ومد إليهم يده، وكان زيور لا يزال يسوِّف فى إجراء الانتخابات بعد حله غير الدستورى للبرلمان، فوجه سعد دعوة إلى أعضائه - وعدُّه لا يزال قائما - للاجتماع بمبناه فى نوفمبر سنة ١٩٢٥.

ومضى الأعضاء إلى البرلمان يريدون دخوله، فلم يستطيعوا حتى الاقتراب منه؛ إذ وجدوا أنه استحال هو والشوارع المحيطة به إلى ما يشبه ثكنة حربية لا يمكن اقتحامها، حينئذ اتجهوا جميعًا إلى فندق الكونتيننتال وعقدوا به اجتماعهم، وانتخبوا سعد زغلول رئيسا، ووسط حماسة دافقة قرروا: عدم الثقة بالوزارة وأن اجتماعهم قانونى، وأنهم سيوالون اجتماعهم من حين إلى آخر فى المواعيد والأمكنة التى يتفقون عليها.

ودخل شهر ديسمبر فزادت الوزارة الطين بلة بعقدها اتفاقية خاسرة مع إيطاليا بإملاء من الإنجليز تنازلت لها بمقتضاها عن واحة جغبوب كى تضمها إلى مستعمرتها - حينئذ - ليبيا. وأنكر الشعب والصحف الاتفاقية إنكارًا شديدًا ولم يلبث أن سقط ركن عتيد من أركان القصر باستقالة رئيس الديوان فيه وبدت فى الأفق بارقة أمل فى أن تتنفس مصر الصعداء من زيور والقصر وحكمها الجائر الفاسد.

وفى شهر يناير انعقد ائتلاف وثيق بين أحزاب مصر الثلاثة: الوفد والأحرار الدستوريين والحزب الوطنى، وأجمعوا أمرهم على العنف بزيور ووزارته حتى يضطر - راغمًا - إلى عودة الحياة النيابية السليمة. وعقد فى فبراير اجتماع برياسة سعد، كان امتدادًا لاجتماع نوفمبر وفيه خطب سعد زغلول خطبة نارية ملتهبة، وقرر المجتمعون نفس قرارات نوفمبر الماضية، وأخيرًا أجريت الانتخابات فى مايو سنة ١٩٢٦ وكان عبدالعزيز فهمى قد استقال من رياسة حزب الأحرار، وفاز الوفد بأغلبية ساحقة، وسقط حزب الاتحاد فى الانتخابات سقوطًا مزريًا ولم تقم له بعد ذلك قائمة.

وبعد هذه الانتخابات بثلاثة أيام صدر الحكم فى أكبر قضية سياسية تتصل باغتيالات الإنجليز فى السنوات الماضية حينئذ وكانت قد لُفِّقَت تهمة خطيرة للوفديين الكبيرين أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى بأنهما يشتركان فى جمعية سرية لاغتيال البريطانيين وقُدِّما للمحاكمة مع نفر لُفِّقَت عليهم نفس التهمة، وحكم ببراءتهما، وبالتالى براءة حزب الوفد من الاشتراك فى حوادث الاغتيال السياسى.

وكانت هذه المحاكمة قد استمرت طويلا، وترافع فيها صفوة من المحامين الوفديين من أمثال: مصطفى النحاس ونجيب الغرابلى ومكرم عبيد ومحمد يوسف ومرقص حنا، وكانت الصحف تنشر مرافعاتهم، وكانت المرافعة الواحدة تملأ - أحيانا - صفحة أو صفحتين على ما يذكر الفتى، وكان يقرؤها مع بعض رفاقه ويجد فيها متعة كبيرة إذ كانت تكتب بلغة بليغة.

وكانت المقالات فى الصحف اليومية على حظ غير قليل من البلاغة؛ إذ كان يكتبها أنبه الأدباء حينئذ مثل: هيكل وطه حسين فى صحيفة السياسة والعقاد وعبدالقادر حمزة فى صحيفة البلاغ الوفدية، ومن حين إلى حين كانت تنشر الصحف خطبة بارعة لأحد السياسيين الكبار.

وامتاز سعد زغلول خاصة فى هذا المجال ببيانه الساحر الذى كان يستولى به على قلوب الشعب، وكان الشبان كثيرًا ما يحفظون شظايا من خطبه يرددونها كقوله فى بعض الأحداث وقد ثار الشعب ضد بريطانيا وقال مندوبهم إن سعدًا هو الذى يثير تلك القلاقل: «تهمة لا أدفعها وشرف لا أدعيه» وقوله السالف واضعًا الشعب شعاره فى مطالبته بتحريره بلاده من نير الإنجليز: «الاستقلال التام أو الموت الزؤام» وقوله «يعجبنى الصدق فى القول والإخلاص فى العمل وأن يقوم الحب بين الناس مقام القانون».

فى هذا الجو من خطابة سعد وأمثاله ومن كتابات الأدباء ومرافعات المحامين المفوهين فى القضايا السياسية - وما كان أكثرها حينئذ - كان يتنفس الفتى هو وجيله فى العشرينيات وهو ما لم يتح للأجيال التالية فى مصر، مما كان له آثاره العميقة فى نفس الفتى ونفوس جيله؛ إذ أحسوا بقوة التعبير البيانى وحاولوا أن يصدروا عنه فى كتاباتهم، وبحق أصبح نفر منهم - فيما بعد - من كتاب مصر المعاصرين وأدبائها النابهين. ومضى الفتى فى هذا العام الدراسى - وكان آخر أعوامه فى المعهد الدينى بدمياط -

يعكف على الدراسة وعلى حفظ المتون وخاصة متن الألفية لابن مالك، وهو ألف بيت تلخِّص قواعد النحو والصرف، وكان العام عام الشهادة الإبتدائية، وكانت امتحانًا عاما، فالأسئلة تأتى من الأزهر، وإجابات الطلاب لا تصحح فى المعهد الدينى بل ترسل إلى اللجان المنعقدة فى الأزهر لتصحيحها.

وطبيعى لذلك ألا يكون ترتيب الطلاب فى هذا العام داخل فرقهم بالمعهد كالعادة بل يكون بينهم وبين طلاب الأزهر ومعاهده الدينية، وكان كل معهد يحرص على أن يكون أوائل الشهادة من حظه. وكان الفتى أول فرقته فكان أساتذته ما يزالون يشجعونه ويحثونه على الجد فى الدراسة، وكانوا - كعادتهم - يفسحون له ولرفاقه فى صدورهم فليس بينهم من يغضب؛ لأن الطالب يعترض على بعض أقواله أو بعض شروحه، بل قد يعلن نزوله عند رأى الطالب إحقاقا للحق العلمى.

وإن الفتى ليذكر امتحانه الشفوى حينئذ وحضور شيخ المعهد - أو رئيسه - هذا الامتحان واشتراكه مع اللجنة فى الأسئلة الموجهة إليه، وقد سأله: إذا جاء فعل المضارع جوابًا لفعل الأمر فى مثل «ذاكر تنجح» ما الحكم الإعرابى للمضارع؟ فقال الفتى له: يجوز جزمه فى جواب الأمر بالسكون ويجوز رفعه، وأنكر الشيخ الجليل إجابة الفتى وقال: إن المضارع فى جواب الأمر يجزم ولا يصح رفعه، فاضطر الفتى أن يستشهد لكلامه ببيت من الألفية لابن مالك ضمنه القاعدة بالصورة التى ذكرها وأنه يجوز فى المضارع

حينئذ الجزم والرفع، فقال الشيخ على جلالته للفتى مبتسما: من حفظ حُجَّة على من يحفظ، وسلم له برأيه، ونجح الفتى النجاح المأمول فى الشهادة الابتدائية الأزهرية.

وفى يونية من صيف هذا العام استقالت وزارة زيور ورأى سعد أن يتخلى عن الوزارة ويؤلفها مستقل هو: عدلى يكن، وأشرك معه مستقلاً آخر وزيرًا للخارجية هو عبدالخالق ثروت، واشترك في الوزارة كثرة من الوفديين وقلة من الأحرار الدستوريين، وتقلد سعد رياسة مجلس النواب وحسين رشدى رياسة مجلس الشيوخ وأخذت البلاد تُحْكم حكمًا دستوريًا سليما، وظلت هذه الدورة البرلمانية قائمة طوال الصيف حتى مطلع سبتمبر، وظل الائتلاف بين حزبى الوفد والأحرار الدستوريين وثيقا.



٥

تحول الفتى فى أول العام الدراسى الجديد إلى معهد الزقازيق الدينى الثانوى، ليكمل دراسته الأزهرية فيه، وكانت هذه أول غربة له عن أبويه وأسرته، وانتظم بين طلاب المعهد الجديد، ونزل معهم فى مسكن بسيط كان ملحقًا بالمعهد ومعدًا له ولأمثاله من الطلاب الغرباء، وهو ردهة واسعة بها مجموعة كبيرة من الأسرة ولكل طالب سريره وصوانه(دولابه) الخاص.

ورأى الفتى أن يترك هذا المسكن لأنه بعيد عن مطاعم البلدة وسكن فى منزل قريب من المعهد، وأكب على الدروس والمتون والشروح وشروح الشروح يحاول أن يستوعب المواد العلمية فيها؛ وهو مع ذلك يحاور شيوخه ويناقشهم ويجادلهم فى كثير من مسائل العلم الذي يعرضونه ودقائقه.

وكان الفتى يكب بالقراءة على ما يظهر من مقالات أدبية فى صحيفتى البلاغ الوفدية والسياسية الدستورية وملحقيهما الأسبوعيين وكانت تكتب فيهما فصول طريفة عن الفكر والأدب العربيين وكذلك عن الفكر والأدب الغربيين، وكان طه حسين قد نشر كتابه: «فى الشعر الجاهلى» وأثار به ضجة كبيرة فى الأجواء الأدبية وفى الكتابات الصحفية؛ إذ نقد الأساليب المتبعة فى دراسة الأدب العربى ساخرًا منها سخرية شديدة مع دعوة ملحة إلى اتخاذ منهج بعض الفلاسفة الغربيين القائم على الشك بحيث ينبغى أن يشك الباحث فى هذه القصيدة أو تلك من قصائد الشعر الجاهلى حتى تثبت له صحتها، بل لا بأس من الشك فى الشعر الجاهلى جمعيه حتى يطمئن الباحث إلى صحته.

وذهب طه حسين إلى أن الكثرة من هذا الشعر ليست جاهلية وإنما هى منتحلة، وأخذ يعدد عوامل الانتحال، وذكر من بينها عاملاً دينيًا كان له أثره بجانب العوامل الأخرى فى انتحال الشعر الجاهلى، وانزلق فى ذلك إلى كلام عُدّ دليلاًعلى إلحاده!

وثارت ضد طه حسين موجة حادة من النقد العنيف، قيل فى أثنائها: إن الجامعة المصرية تنفق عليها الدولة فكيف يسمح لأستاذ الأدب العربى الذى يتناول مرتبه منها أن يعلم الطلاب فيها مثل هذا الإلحاد المنكر؟ وكيف يبيح له المسؤلون فى الجامعة نشر هذه الأفكار للطلاب؟ واتسعت الحملة وملأت الصحف وتعدتها إلى البرلمان، وقدم طه حسين إلى الجامعة استقالته، ولولا سعة أفق

الحكومة لطوِّح به، فقد رُدَّت إليه استقالته، واكتُفِيَ بمصادرة الكتاب، وكانت النيابة قد حققت معه وثبت لها حسن نيته، وأمرت بحفظ الدعوى، ومرت العاصفة سياسيا، ولكن ظل لها دوى واسع فى الأساط الأدبية، وألفت كتب مختلفة فى الرد على طه حسين؛ وأعاد طبع الكتاب باسم جديد هو «فى الأدب الجاهلى» وقد صور فيه مناهج النقد الغربى فى دراسة الأدب.

وحدث ثان فى هذا العام الدراسى كان له دوى بعيد فى العالم العربى وأوساطه الأدبية هو انعقاد مهرجان كبير برياسة سعد زغلول لتكريم شوقى شاعر مصر الحديثة اشتركت فيه جميع البلاد العربية بمندوبين من كبار أدبائها وشعرائها كى يضعوا على مفرقة - مع كبار الأدباء والشعراء فى مصر - تاج إمارته للشعر العربى الحديث وشعرائه المعاصرين على اختلاف بلدانهم وأقطارهم، وقد حياهم شوقى برائعة من روائعه، ألقيت فى المهرجان بدار الأوبرا استهلتها بالحديث عن وصف الربيع وعن شكره لسعد زغلول، ثم أخذ يثني ثناءً عاطرًا على مبايعته بإمارة الشعر من أبناء العرب قاطبة، وكيف تحولوا بمصر إلى عكاظ ثانية.

وينوه بمصر وحَمْلها لهيكل الدين وروح البيان من قرآنه.. وكيف أنها تقف بشاعرها مع الشرق فى أفراحه، وأحزانه، وجراحه وأشجانه وأخرجت مجلة السياسة الأسبوعية عددًا خاصًا بهذا المهرجان ما ألقى فيه من خطب وأشعار رائعة فى تكريم شوقى

ومن بحوث أدبية طريفة، وكان عددًا نفسيًا ظل الفتى يحتفظ به لنفسه سنين عددا.

وكانت تتولى مقاليد الأمور طوال هذا العام الدراسى وزارة عدلى يكن، بينما كان يتولى رياسة مجلس النواب سعد زغلول وظلت له نفس المحبة والزعامة فى قلوب المصّريين، وسارت شئون الحكم رخاء، وخرج من الخدمة فى محكمة الاستئناف آخر مستشار بريطانى، وصدر قانون عفو شامل عن كل ما اقتُرف من الجرائم السياسية منذ حل مجلس النواب فى وزارة زيور، وألغى تسخير الأهالى للعمل فى تقوية جسور النيل.

ويقدم عدلى يكن استقالته فى أبريل سنة ١٩٢٧ ويصر عليها ويلح عليه سعد أن يبقى فى الحكم ويتمادى فى إصراره، ويرغب سعد إلى ثروت فى تأليف الوزارة ويؤلفها فى نفس الشهر من أغلبية وفدية وأقلية دستورية، ويظل الائتلاف قائمًا بين الحزبين الحاكمين، وفى شهر يولية يذهب ثروت إلى لندن للمفاوضة فى عقد معاهدة بين مصر وإنجلترا.

وما إن حل اليوم الثالث والعشرين من أغسطس حتى تجهمت سماء مصر وتلبدت بغيوم كثيفة وأخذت ترعد وتبرق بنبأ وفاة زعيم الأمة الخالدة وقائد نهضتها وموقظها ورادّ حقها عليها فى تقرير مصيرها بعد مئات السنين: سعد زغلول، وكان الناس فى مصر يتلقون الخبر بالوجوم، وسرعان ما ينفجرون باكين حتى العجائز والصبية؛ فقد كان الجميع يشعرون بهول الفجيعة فقد اختطف منه

أبوالوطن البار الذى ردَّ إلى مصر وجودها وشخصيتها وأعدها لتظفر بكل ما اكتسبته سياسيًا مع أنها لم تكن تملك سلاحًا سوى سيوف كلماته الحادة القاطعة.

واشترك الشرق كله فى الشعور بعظم المصاب؛ إذ عُدَّ سعد زعيم كل الشعوب المهيضة الجناح أمام المستعمرين الغاشمين ويكفى أن غاندى زعيم الهند على بعد داره شهد بأنه زعيمه، عنه تلقى دروس الوطنية الصارمة فى المفاوضة الصامدة حتى آخر الأنفاس.

وباتت الأمة على النشيج والنواح حتى إذا كان الصباح أخذت الجماهير تتدفق إلى منزل الزعيم سيولاً جارفة وظلت الطرقات تمتلئ بأمواجها تعج وتضج من منزله إلى قبره المؤقت بحى الإمام الشافعى واستمرت الصحف المصرية تنعاه وتبكيه أيامًا متوالية، وظلت تنقل نعى الصحف العربية والأجنبية.

واجتمع مجلس الوزراء وقرر إقامة ضريح له القاهرة تخليدًا لذكراه وإقامة تمثالين له: تمثال فى مصر وتمثال فى الإسكندرية وشراء منزله «بيت الأمة» وضمه إلى ممتلكات الدولة وأن تظل زوجته العظيمة «صفية زغلول» تسكنه مدى الحياة؛ وكل ذلك نفذته الحكومة.

وكان الفتى قد اجتاز السنة الأولى الثانوية بمعهد الزقازيق الدينى إلى السنه الثانية، وعلى عادته كان يعكف على قراءة المتون والشروح طوال العام الدراسى وكان الائتلاف مستمرًا بين حزبى

الوفد والأحرار الدستورين، وانتخب مصطفى النحاس رئيسا للوفد بعد سعد زغلول، وعاد ثروت من مفاوضته لتشمبرلن وزير الخارجية البريطانية فى نوفمبر يحمل مشروعًا منكرًا لمعاهدة بتثبيت الاحتلال والحماية وتوثيقهما، ظل يخفيه طويلا ولا يستطيع إعلانه، وفى هذه الأثناء وضُع الحجر الأساسى للجامعة المصرية فى فبراير سنة ١٩٢٨ مما هيأ - فيما بعد - لإحداث نهضة البلاد العلمية والأدبية.

وعُرض مشروع المعاهدة التى يحملها ثروت على مجلس الوزراء فى مارس فرفضه واستقال ثروت، وشكل مصطفى النحاس وزارته الأولى من حزبه وحزب الأحرار الدستوريين، واستقال الأخيرون فى الوزارة فى يونية سنة ١٩٢٨ وانتهز القصر الفرصة وأقال النحاس فى نفس الشهر إقالة غير دستورية لأنه زعيم الأغلبية البرلمانية والدستور يمنع ذلك منعًا باتا، وشكل محمد محمود زعيم الأقلية الدستورية الوزارة فأجل البرلمان شهرًا ثم حله على نحو ما صنع زيور من قبل وزاد عليه تأجيله انعقاد البرلمان ثلاث سنوات قابلة للتجديد، وكانت صحف الوفد تحمل عليه حملات عنيفة.

وكان الفتى يشعر بوضوح أن الجو العلمى فى معهد الزقازيق الثانوى أقل بكثير من مثيله فى المعهد الابتدائى بدمياط؛ وربما كان مرجع ذلك إلى أن معهد الزقازيق كان معهدًا مستجدًا فى بيئته، ولم يكن شيوخه من نفس البلدة بل كانوا من بلدان شتى فى القطر، بخلاف معهد دمياط الابتدائى فهو معهد دينى قديم بها له

أصول فى المدارس التى أنشأها المماليك مثل قايتباى ومن قبله - وأيضًا - من جاءوا بعده، وكانت المدارس تنشأ فى المساجد والجوامع الكبيرة، وقد مضت تعد شيوخًا فى الحقب الماضية حتى سَمَّى الأزهر المدارس الكبرى فى تلك الجوامع والمساجد معاهد، حينئذ أصبح لدمياط معهدها الدينى بجامع البحر.

وأكثر شيوخ هذا المعهد الدينى الذين تلقى عليهم الفتى دروسه كانوا من نفس دمياط، من سلالة علمائها النابهين؛ وكانت تتوارث ذلك منهم أسر تشتغل بالعلم الدينى، يأخذه اللاحق عن السابق والخالف عن السالف، وكان بين هذه الأسر تنافس علمى عظيم، وكان يظهر فى دروس حرة لهم يلقونها ببعض المساجد لمن يريد الفائدة والاستبصار فى دينه من عامة الشعب الدمياطى، ولا مانع لأى دارس من أن يجلس إلى حلقة الشيخ ويناقشه ويحاوره، وكانت دروسهم للطلاب فى المعهد الدينى بجامع البحر أشبه بدروس حرة؛ إذ لم تكن تلقى مثل دروس معهد الزقازيق الدينى - فى حجر أو غرف مقفلة يجلس الطلاب فيها على مقاعد مثل تلاميذ المدارس المدنية، بل كانت تلقى بساحات الجامع فى حلقات، والطلاب يجلسون على حصر مكونين ما يشبه نصف دائرة حول كرسى الشيخ ولا مقاعد ولا غرف ولا أبواب بل ساحات فسيحة لكل من شاء.

ولم يكن التنافس بين علماء دمياط وأسرها يقف عند حد إجادة الدروس فى المعهد الدينى؛ تلك التى تُلقى دون أى حجاب إذ كثيرًا

ما كان عالم يجلس إلى حلقة عالم آخر للحوار فى بعض المسائل التى تعرض فى الدرس، وحدَّث الفتى أبوه أنه رأى - حين كان يحضر قلبه فى هذا المعهد ويدرس فيه - عالمين من أسرتين علميتين تناظرا فى موضوعات علمية ذات يوم بعد صلاة الصبح حتى المساء إلا أن يقوما للصلاة أو لتناول بعض الطعام، وسرعان ما يعودان إلى المناظرة وعادا إليها فى اليوم التالى حتى صلاة الظهر، وكان يَرْفد كلاً منهما فى المناظرة ابن لكل منهما عالم من شيوخ المعهد الدينى؛ ولعل فى ذلك كله ما يصور مدى ما كان يحفل به الجو العلمى فى معهد دمياط الدينى الابتدائى من نشاط فى الدراسات الدينية وما يتصل بها من الدرسات اللغوية.

٦

كان الفتى يعكف على قراءة المقالات الأدبية فى الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية، ودفعه إعجابه بأصحاب هذه المقالات إلى اقتناء بعض كتبهم، فازاد بهم إعجابا؛ ولعل ذلك هو الذى جعله يفكر فى الالتحاق بمدرسة دار العلوم وترك الطريق الذى كان أبواه اختاراه له: طريق التعليم الدينى فى الأزهر الشريف؛ إذ ظن أن دار العلوم ستساعده فى تكوينه الأدبى بأكثر مما تساعده الدراسة الأزهرية، وكانت لها مدرسة ثانوية تسمى التجهيزية تعد الطلاب للالتحاق بها إعدادًا علميًا، فهم يأخذون فيها مواد المدارس الثانوية المدنية من رياضة وطبيعة وكيماء ويتميزون من طلاب تلك المدارس بمواد خاصة بهم من فقه وعلم كلام وتفسير وحديث نبوى، أما فى النحو والصرف والأدب فيشتركون معهم فى نفس مناهج الدراسة.

وأخذ الفتى يعد نفسه طوال الصيف للالتحاق بها فى السنة الرابعة، وكانت التجهيزية تعقد لذلك امتحانًا فى آخر الصيف، فمضى الفتى يدرس كتب الكيمياء والطبيعة والرياضة دون معلم شاعرًا بغير قليل من المشقة؛ إذ يدرس - مثلاً - الكيمياء بدون أن يرى أى تجربة لها فى معمل، واستطاع أن يجتاز تلك الصعوبة وما يماثلها فى الطبيعة والرياضة مما يحتاج إلى معلم يشرحه ويوضحه، ونجح فى الامتحان، وانتظم بين طلاب التجهيزية بالقاهرة فى العام الدراسى ١٩٢٨/ ١٩٢٩.

وكان يعلِّم فى التجهيزية صفوة ممتازة من شيوخ لم يتخرجوا فى مدرسة دار العلوم وإنما تخرجوا فى مدرسة القضاء الشرعى، وكان ناظرها عاطف بركات قد أكمل تعلمه بعد تخرجه فى دار العلوم بإنجلترا، وعاد بأفكار جديدة رأى تطبيقها فى مدرسة القضاء الشرعى، وحاول جاهدًا أن يجعل منها جامعة صغرى، فكان يتحدث إلى الطلاب فى ردهاتها ويعرض عليهم بعض المشاكل الفكرية ويحاورهم فيها، ودفع أساتذة المدرسة وشيوخها إلى محاكاته فى الحوار مع الطلاب؛ وبذلك استحالت ردهات مدرسة القضاء الشرعى إلى أروقة فكرية نشيطة، وكان يدرس للطلاب علم الأخلاق مستمدًا فيه من كتابات الغربيين، وعمل - بكل جهده - على أن يتمثل طلاب المدرسة الثقافتين: الإسلامية العربية والأجنبية الغربية؛ وكان لذلك أثر عميق بعيد عن خريجى مدرسة القضاء الشرعى.

ولما أنشئت المدرسة التجهيزية لدار العلوم اختير لها أكثر مدرسيها من خريجى تلك المدرسة، فجاءوها بالروح التى بثها عاطف بركات فيهم وفى مدرستهم، مما جعلهم يدفعون بقوة طلاب التجهيزية إلى مناقشتهم فى كل ما كانوا يلقونه على مسامعهم من دروس الفقه والتفسير والحديث والكلام أو مسائل التوحيد، وكانوا يلقون دروسهم فى شكل محاضرات لا قراءة فى الكتب على الطريقة الأزهرية.

وكانت المدرسة قريبة من ميدان عابدين الحالى بالقاهرة، فسكن الفتى فى حى وراءها يسمى حى الحنفى، وشعر بغبطة حين سكن هذا الحى؛ لأنه كان يعرف أن شوقى الشاعر المبدع سكنه فى مطالع حياته، وكان يعجب به، ولكن شتان بين مسكن شوقى ومسكن الفتى، شتان بين قصر وخدمه وحشكه وكوخ أو قل حجرة متواضعة كانت منامة الفتى ومطعمًا ومكتبا.

وعرف الفتى أن شيوخًا كبارًا يحاضرون الناس فى الجامع الأزهر بعد صلاة الصبح جمهورهم من طلاب الأزهر والشباب من شيوخه وهم يجلسون على مقاعد مرتفعة، ولكل منهم حلقته وجمهوره وطلابه، ولا يتقيد أى مستمع بحلقة معينة، بل يجلس فى أية حلقة كما يشاء أو بعبارة أدق يجلس إلى أى شيخ يختاره؛ فالحلقات مباحة للجميع.

ولم يكن الفتى يعرف أن وراء هذه الحلقات فى الأزهر دراسات غير نظامية وخاصة للغرباء؛ فهم يحضرون على شيوخ مختلفين

كما يريدون غير متقيدين بسنوات ولا بامتحانات، وما يزالون يتزودون من حلقات هؤلاء الشيوخ، حتى إذا أنسوا فى أنفسهم القدرة على أداء امتحان العالمية(شهادة الأزهر العالية النهائية حينئذ) تقدموا إليها، فإما كان من حظهم النجاة، وإما أخفقوا ولم يكتب لهم النجاح المظنون، فيعودوا إلى الاستماع إلى الشيوخ والتزود ثانية للامتحان فى العام القابل؛ إذ يعيدون الكرة، وربما أعادوا الكرات حتى يحصلوا على تلك الشهادة.

وبجانب هذه الدراسات الأزهرية الحرة للطلبة غير النظاميين كانت هناك الدراسات المنتظمة التى بدأها الفتى فى معهد دمياط الابتدائى ومضى يستكملها فى معهد الزقازيق الثانوى، وكان مفروضًا إذا أتمه أن يتحول منه إلى القسم العالى فى الأزهر، فيمضى فيه أربع سنوات تختتم بامتحان الشهادة العالمية النظامية، وهذا القسم النظامى كانت تتبعه الدراسات الأزهرية فى معاهد الإسكندرية وطنطا وأسيوط والزقازيق ودمياط لهذا التاريخ.

وظل القسم غير النظامى قائمًا فى الأزهر مدة غير قليلة، وهو القسم الأقدم، وكأن دروس الشيوخ الكبار بعد صلاة الصبح - وربما جعلها بعضهم فى المساء - صورة من هذا النظام القديم، كان ينهض بها بعض شيوخ الأزهر النابهين، وكان يحضرها بجانب طلاب الأزهر وعلمائه الشبان كثيرون من مختلف الأوساط بين المثقفين؛ وكان من هؤلاء الشيوخ من يختار لنفسه ولمحاضراته مسجدًا آخر غير الأزهر يلقى دروسه فيه، ويختلف إلى المسجد التى اختاره طلابه وجمهوره المنتفع بعلمه.

ولا شك فى أن هذه الطريقة الحرة فى التعليم الأزهرى غير النظامى كانت جيدة، وكان الفتى يعجب بها؛ فالشيوخ يلقون دروسهم ومحاضراتهم ولا حضور يسجل للطلاب ولا غياب أو لا تقييد لحضور أو لغياب فهم أحرار يتحلقون حول من يرغبون فى التزود العلمى منه، ولهم أن يختاروا هذا الشيخ أو ذاك وأن يجلسوا إلى هذه الحلقة أو تلك حسب رغبتهم ومشيئتهم، وعرف الفتى - فيما بعد - أن الجامعات الألمانية تأخذ بشىء من هذا النظام الأزهرى القديم؛ إذ تسمح للطلاب أن يستمعوا فى بعض المواد العلمية إلى هذا العالم أو ذاك.

وكأنما نظرت إلى الطريقة الأزهرية القديمة الجامعات الأمريكية والأوروبية التى تأخذ بنظام الفصول، وهو نظام يتيح للطلاب الجامعيين المتخصصين فى فرع من فروع العلم والأدب أن يختاروا بعض المواد ويؤثروها على مواد أخرى بحيث يكون للفرع موادًا أساسية يتحتم على كل طالب من طلابه أن يعنى بدرسها، ويدرس بجانبها مواد متنوعة من الدراسات الإنسانية أو العلمية أو الفنية، وللطلاب الحرية كل الحرية فى اختيار هذه المواد الإضافية حسب رغباتهم فتجد متخصصًا فى فرع من فروع الآداب قد يختار الرياضة أو فرعًا منها أو يختار فنًا كالموسيقى، ولا يتيح هذا النظام الفصلى للطالب - فقط - الحرية فى اختيار المواد الإضافية التى يدرسها بل يتيح له - أيضًا - اختيار الأساتذة الذين يرى من حقه أن يدرس عليهم ويستمع إلى محاضراتهم.

وواضح أن تلك الطريقة الفصلية فى التعليم الجامعى الأمريكى والأوربى تلتقى بالطريقة الأزهرية القديمة، ولا نغلو إذا قلنا إن الطريقة الأزهرية المذكورة كانت أوسع حرية، وكان حريًا بمن أنشأوا التعليم الجامعى فى مصر أن يفيدوا منها - منذ إنشائه - لا لإدخالها جملة فى هذا التعليم بل بالاستفادة بها والاسترشاد. وحقًا استرشد بها طه حسين حين أصبح عميدًا لكلية الآداب بجامعة القاهرة، فأنشأ بها نظام المستمع الحر من غير طلاب الكلية حتى يختلف المستمع إلى ما يريد من محاضرات الأساتذة فى الكلية؛ غير أن هذا النظام لم يثمر الثمرة المرجوة لفقده الغاية الواضحة منه. وكان أولى من ذلك الاهتداء بفكرة المحاضرات غير النظامية التى لا تؤدَّى فيها امتحانات؛ ومع ذلك كانت من أهم الوسائل الأساسية فى تكوين العقليات الأزهرية الممتازة، إذ كان كثيرون من الطلاب الأزهريين يوالون حضورها ويستمعون فيها إلى أفكار الصفوة من شيوخ الأزهر، ويرون رؤية واضحة كيف يتناولون المسائل وكيف يعالجونها وكيف يستنبطون ببصائرهم النافذة آراءهم الدقيقة.

وخير ما يصور ما كان لهذه المحاضرات غير النظامية من آثار بعيدة لا فى الأزهر وبين علمائه فحسب بل - أيضًا - فى الفكر المصرى الحديث محاضرات الشيخ محمد عبده فى الرواق العباسى بالأزهر الشريف وما كونت من تلاميذه ومريديه بل من مدرسته التى اتسعت آفاقها فشملت العالم الإسلامى جمعيه.

وكان ينبغى أن تفيد بعض الكليات الجامعية - على الأقل - عند إنشائها من طريقة هذه المحاضرات غير النظامية، فمثلاً لو أن كلية الحقوق نُظِّمت بها محاضرات على شاكلة المحاضرات الأزهرية غير النظامية لبعض الشخصيات القانونية الممتازة المشهورة حينذاك لنتفع بها الطلاب الحقوقيون أكبر نفع: محاضرات لا يمتحن فيها الطلاب وتعود عليهم بفوائد عظيمة؛ إذ يرون مشاهد رائعة لعقول قانونية يأخذون عنها أفكرها وتجاربها وخبراتها وتحليلاتها لبعض مواد القانون المدنى مثلاً أو القانون الجنائى أو غيرهما من القوانين... والفرصة لا تزال سانحة إلى اليوم ليدخل شىء من ذلك فى الدراسات الجامعية فتنظم فى كل كلية محاضرات عامة لبعض الأساتذة القدامى، ومن لم يستطع أداءها أسبوعيًا أدَّاها شهريًا أو من حين إلى آخر على مدار العام الدراسى.

ومن المحقق أن هذه المحاضرات غير النظامية فى الأزهر الشريف كانت تحدث تنافسًا قويًا بين الشيوخ؛ إذ كان كل منهم مهددا بأن ينصرف عنه الطلاب إلى زميله، لما ذكرت من أنه كان من حقهم أن يحضروا لمن يرغبون فى الاستماع إليه، وأن ينصرفوا عن غيره حسب مشيئتهم، وكان معوَّلهم فى ذلك على مادة الشيخ العلمية؛ ومن أجل ذلك كان لابد لمن يجلس إلى الطلاب فى تلك المحاضرات أن يكون عالمًا غزير العلم فى مادة محاضراته، ولابد أن يكون من ذكاء القريحة ومن نفوذ البصيرة بحيث يعد حجة فيها، حجة لا يبارى ولا يجارى.

ومن كان يقعد للطلاب ويسمونه ويجدونه غير أهل لمقعده لا يعودون إليه أبدا؛ وبذلك كان تحلق طلاب الأزهر وشباب العلماء من خريجيه وتجمعهم حول شيخ وإصغاؤهم لكلامه شهادة لا تعد لها شهادة بأنه عالم يفقه العلم الذى يحاضر فيه فقهًا أعمق الفقه، ويحلل مسائله تحليلاً أدق التحليل؛ ومعنى ذلك أن شهادة العالمية التى كان يحصل عليها أحد هؤلاء الشيوخ الذين ينهضون بتلك المحاضرات لم تكن هى التى تسوغ له الاضطلاع بها والتفاف جمهور حول مجلسه بل كانت خبرته العلمية الطويلة وكفاحه العلمى الشاق هما اللذان يتيحان له هذا العمل الرفيع.

وحبذا لو عنيت الجامعات المصرية - كما قلنا - بشىء يقترب من هذه الطريقة على الأقل من حيث العناية بالمحاضرات العامة يلقيها صفوة من العلماء فى كل كلية، أما الطريقة بحذافيرها وأن يكون لكل مادة أكثر من أستاذ وأن يتخير الطالب الأستاذ الذى يدرس عليه المادة؛ فإن ذلك يعز تحقيقه الآن لقلة أعضاء هيئة التدريس فى الجامعات، ولعلهم يتضاعفون فى المستقبل بحيث يمكن أن يكون للمادة الواحدة فى الفرقة الواحدة أكثر من مدرس وأستاذ ليختار الطلاب منهم من يشاءون؛ وبذلك تتسع المنافسة بين علمائنا وتزداد نهضتنا العلمية ازدهارًا.

وكان الفتى كثير الاختلاط بطلاب الأزهر وببعض مدرسيه وعلمائه من أقربائه الذين تخرجوا فيه، وعرف منهم أن امتحان العالمية فى الأزهر ليس امتحانًا تحريريًا فحسب بل كان أهم من

الامتحان التحريرى حينئذ امتحان شفوى عسير فى موضوع يختاره الأزهر للطالب فى الفقه أو فى الأصول أو فى غيرهما من العلوم، ويظل يعده أيامًا طوالاً لا يكاد يترك فيها كتابًا تناول المادة العلمية فيه وما يتصل بها إلا ويقرؤه.

وما يزال الطالب مكبًا على موضوعه يدرسه من جميع جوانبه العملية حتى إذا حُدد له يوم الامتحان أحس برهبة شديدة؛ لأنه سيجلس إلى لجنة من كبار العلماء ويناقشونه فى الموضوع وكل ما يجرى فيه من أحكام وأفكار، ولا يتركون فى الموضوع جانبًا فقهيًا أو أصوليًا أو نحويًا أو بلاغيًا إلا ويسترسلون معه فى الأسئلة المتصلة به يريدون أن يعرفوا كل ما عنده، وهل هو صالح ليحمل شهادة العالمية الجليلة أو لا يزال يحتاج إلى إعداد أوسع وأكبر.

وكانوا يسمون الموضوع المحدد للطالب درسه باسم خاص هو «التعيين» لأنه عين له وحدد، وكان يوم امتحانه فيه يومًا مشهودًا، لصعوبة الامتحان وصعوبة ما يطرح فيه من أسئلة تلم بجميع ما درس الطالب فى الأزهر طوال سنينه من المواد العلمية. ومن أجل ذلك كانت شهادة العالمية تشهد لمن يحملها بأنه عالم دينى يتقن علوم الدين فهمًا واستيعابًا وتحليلا.

وفى مطلع العام الدراسى للفتى بالتجهيزية صدعت المدارس فى تركيا لمشيئة مصطفى كمال فى تغيير الخط التركى فى تعليم الناشئة بالخط اللاتينى وحروفه؛ وكان قد أصدر أمرًا بذلك فى شهر أغسطس وأخذت المدارس التركية فى تطبيقه منذ شهر

نوفمبر؛ وأثار ذلك ضجيجًا كبيرًا في الصحف المصرية، فكان هناك مؤيدون لمصطفى كمال فيما يريد من تغريب بلاده أو جعلها مثل البلاد الغربية متخذًا لذلك وسائل عدة من أهمها هذه الوسيلة الخطية في ظنه وتقديره.

وكان هناك معارضون لا يحبذون لتركيا هذا الاندفاع الشديد نحو تقليد الغرب، ومحاولة محاكاته في كل شيء حتى في الكتابة وحروفها، ومعروف أن تغيير الأمة لخطها ليس من القوى الدافعة لها كي تحدث ما تريد من التطور؛ إذ المهم ما تحمل حروف الخط من المعارف والعلوم والآداب، وما الخط إلا آنية تودع الأمة فيها شرابها العلمي والأدبي والفكري شرابًا مختلفًا ألوانه، والمهم الشراب لا الآنية التي تحمله.

وأهم من ذلك أن تغيير الأمة لخطها من شأنه أن يعرضها لخطر عظيم؛ إذ بذلك تقطع الصلة بين حاضرها وتراثها الماضي جمعية لأنه مكتوب بخط مغاير لخطها الجديد، ولن يمر جيل حتى يصبح خطها وتراثها القديم نسيًا منسيا، وكان الخط القديم تُدَرّس به في المدارس بجانب التركية اللغتان: العربية والفارسية، فأمر مصطفى كمال بإلغاء هاتين اللغتين من المدارس التركية؛ وبذلك قطع الرابطة - التي كانت لا تزال باقية - بين تركيا والبلاد العربية!

وكان الفتى طوال هذا العام الدراسي في التجهيزية يحس بوضوح محنة مصر حينذاك باجتيازها لدورة قاتمة من دورات حياتها الحديثة؛ إذ كان يحكمها محمد محمود - رئيس

الأحرار الدستوريين - حكمًا صارمًا أهدرت فيه الحياة الدستورية والحريات العامة إذ مُنعت منعًا باتًا الاجتماعات وحُرِّم على الطلبة القيام بالمظاهرات، وقيدت الأقلام، وحجبت عن الظهور بعض الصحف وخاصة الوفدية؛ وامتد ذلك - أحيانًا - أشهرًا معدودات، ومن حين إلى حين كانت تذهب بعض الجموع - وخاصة من أعضاء البرلمان - إلى القصر للاحتجاج على هذه الوزارة وانفرادها بحكمها الاستبدادي دون الشعب وإرادته، ولكنها كانت - دائمًا - ترد دون غايتها - بواسطة الشرطة وعصيها الغليظة - ردًا غير كريم!

ومبالغة في الكيد لمصطفى النحاس خليفة سعد في زعامة الوفد ومحاولة في تأليب الشعب عليه وعلى حزبه الوفدي لفقت هذه الوزارة عليه وعلى اثنين من زملائه المحامين اللامعين في الحزب تهمة الإخلال بشرف مهنتهم في قضية لأحد الأمراء ولم تلبث أن أحالتهم إلى مجلس المحامين في شهر ديسمبر سنة ١٩٢٨، واهتز الشعب لهذه القضية هزة قوية، وترافع فيها مدافعًا عن النحاس وزميليه: مكرم عبيد ونجيب الغرابلي وغيرهما من كبار المحامين الوفديين، وحكم مجلس التأديب ببراءتهم، وتبين أنها قضية مختلقة مزورة... كانت تشد الفتى - دائمًا - المرافعات حينئذ في القضايا السياسية إذ كانت الصحف تنشرها وكان يترافع فيها أقوى المحامين في مصر حجة وأفصحهم لسانًا وأبلغهم بيانا.

وتصادف أن حزب العمال البريطاني ظفر بالأغلبية في الانتخابات العامة بإنجلترا في سنة ١٩٢٩ وتولى هذا الحزب

مقاليد الحكم، فسعى محمد محمود ـ وكان فى لندن ـ فى عقد معاهدة بين مصر وإنجلترا،. وبدأت فى شهر يونية مفاوضات رسمية بينه وبين «هندرسن» وزير الخارجية البريطانى ظلت نحو شهرين وانتهت بمشروع معاهدة، قدم به محمد محمود إلى مصر آملا أن يوافق عليه الوفد، وهو باق مع وزارته فى كراسى الحكم، غير أن الوفد أبى النظر فى مشروع تلك المعاهدة إلا بعد عودة الحياة الدستورية وإجراء الانتخابات، ولم ير محمود بُدًا من تقديم استقالته فقدمها فى شهر أكتوبر، وبمجرد تقديمه لها ألف الوزارة عدلى يكن لإعادة الحياة الدستورية وإجراء انتخابات حرة سليمة.

وكان الفتى قد عاد إلى القاهرة للانتظام فى العام الدراسى الأخير بالتجهيزية وكان حين دخلها تحول من لبس الزى الأزهرى إلي لبس الزى الإفرنجى، وغريب شأن الإنسان..! فإن كثيرًا من الأشياء الخارجية يترك تأثيرها فى نفسه حتى أتفه الأشياء، فما بالنا بزى يرمز إلى الدين ودراساته وزى يرمز إلى الحياة المدنية وبعض العادات الغربية.. ولا ريب فى أن هذا التغيير الخارجى للزى ترك فى نفس الفتى آثارًا بعيدة لعل أوضحها أنه أصبح أكثر استعدادًا لتقبل ما كان يدور على أقلام الأدباء حينئذ من دعوة للتجديد، وكان يعجب بشيوخة فى التجهيزية.وخاصة خريجى القضاء الشرعي لكثرة ما كانوا يثيرون فيه وفي رفاقه من الأفكار، وكانوا حريصين على أن يلفتوهم إلى كان يكتب فى الأدب من مقالات فى البلاغ الأسبوعى والسياسة الأسبوعية وفى مجلتى الهلال المقتطف.

ولفت الفتى ما كان يكتب فى مجلة العصور، وخاصة ما كان يكتبه مصطفى صادق الرافعى عن ديوان العقاد وقد جمع ما كتبه من مقالات فى تلك المجلة عن هذا الديوان ونشره فى كتاب سماه «على السفود» وهى الحديدة التى يشوى عليها اللحم، وكان الفتى يحس أن الرافعى يتجنى على العقاد فى كثير من نقده لشعره، وأنه لا يبتغى تحليله ولا بيان مواطن الجمال فيه والروعة، وإنما يبتغى ذمه وثلبه بلغة ليست من لغة النقد فى شيء، لغة هجاء قاس مرير، يتخذ فيها البيت من أبيات العقاد بل الكلمة فى البيت، خيطًا أو حبلاً ينشر عليه هجاءه الجارح.

وكان العقاد قريبًا قربًا شديدًا من نفوس الشباب إذ كان كاتب حزب الوفد من غير منازع، وكان هو الحزب الذى يتبعه سواد الأمة، ويتبعه الشباب فى التجهيزية وغير التجهيزية. وكان شيوخ الفتى ـ وخاصة الخريجين من مدرسة القضاء الشرعى ـ ينزعون منزعًا وفديا متطرفا؛ إذ كانت مدرستهم وفدية متطرفة لقيام عاطف بركات عليها، وكان من أقرباء سعد ونفى معه إلى جزائر سيشل سنة ١٩٢١ وكان طلابه يحبونه حبًا جمًا ومصر نفسها جميعًا كانت وفدية إلا قليلا من الإقطاعيين ومن حفوا بهم فى مدارهم ومدار القصر، ومهما يكن فقد كان شيوخ الفتى فى التجهيزية يكثرون له ولرفاقه ومن الحديث عن العقاد مكبرين له. لكتابته السياسة الوفدية من ناحية، لكتابته الأدبية البارعة من ناحية ثانية، فكان الفتى يقرأ فيه كثيرًا من نثره وشعره، كما كان

يقرأ فى كتابات هيكل وطه حسين والمازنى، وبحق كان الأربعة يحملون حينئذ ألوية النهضة الأدبية.

وكان مقررًا على الفتى ورفاقه فى هذا العام الدراسى الأخير بالتجهيزية تفسير مجموعة من أجزاء القرآن الكريم، وكان يفسرها لهم شيخ حصيف من شيوخ مدرسة القضاء الشرعى، وكان الفتى يكثر معه من الحوار فى فهم بعض الألفاظ وفهم بعض الآيات الكريمة، وكان الشيخ يصغى إليه ويستجيب لبعض آرائه.

ورأى الفتى أن يبادر إلى صنع تفسير لهذه الأجزاء المقررة يعتمد عليه فى استذكاره الدروس آخر العام الدراسى، ولكن أى كتب التفسير يستعين بها فى هذا العمل؟ لقد رأى أن يستعين بتفسير الكشاف للزمخشرى، وكانت له شهرة عريضة منذ تأليفه له حتى بين أهل السنة، مع أن الزمخشرى كان من المعتزلة وهو يبث فى تفسيره كثيرًا من آراء المعتزلة، مما جعل بعض أهل السنة يتصدى للرد علي أرائه الاعتزالية فى تفسيره؛ ومع ذلك كان جمهور أهل السنة يعجبون بهذا التفسير منذ ظهوره وينصحون طلابهم بقراءته لما امتاز به من جمال الصياغة، ولما نثره فى تفسيره من نظرات بلاغية جيدة.

ووضع الفتى تحت بصره هذا التفسير وضم إليه تفسير البيضاوى السنى، ونفذ من التفسيرين إلى وضع تفسيز مقتضب للأجزاء القرآنية المقررة عليه وعلى رفاقه، وكانت هذه هى المحاولة الثانية للفتى فى التصنيف بعد تصنيفه القديم فى النحو

بمعهد دمياط الدينى أيام صباه، ولم يحتفظ الفتى بهذا التصنيف فى التفسير كما لم يحتفظ بتصنيفه السابق فى النحو، حتى إذا تقدمت به السن تمنى لو أنه احتفظ بالعملين للمستقبل، إذن لعرف كيف كان يصنف وهو صبى صغير ثم كيف كان يصنف وهو فتى فى التاسعة عشرة من عمره.

وكان عدلى يكن قد أخذ - منذ توليه الحكم - يعد العدة لانتخابات مجلس النواب، وأجراها فى شهر ديسمبر وفاز فيها الوفد فوزًا ساحقًا كعادته فى كل انتخابات حرة، وكان الأحرار الدستوريون بزعامة رئيسهم محمد محمود قرروا عدم الاشتراك فى هذه الانتخابات؛ لما كانوا يعلمونه من انفضاض الأمة عنهم وأنها لن تنسى لهم ولرئيسهم فى وزارته حلة للبرلمان وتأجيله لانعقاده ثلاث سنوت، لولا أن تطورت الظروف، واضطر محمد محمود إلى تسليم مقاليد الأمور إلى عدلى، وخرج على قرار الأحرار الدستوريين بعض الأعضاء ورشحوا أنفسهم مستقلين ولكن قلما كتب لأحدهم النجاح، وألف مصطفى النحاس الوزارة فى يناير سنة ١٩٣٠ ومضى ينهض بأعباء الحكم.

وقبيل آخر العام الدراسى زف بعض الشيوخ فى التجهيزية من خريجى مدرسة القضاء الشرعى إلى الفتى ورفاقه بشرى هى أن كلية الآداب بجامعة فؤاد (جامعة القاهرة الآن) ستفتح أبواب قسم اللغة العربية بها لقبول طائفة من خريجى التجهيزية وطائفة ثانية من حملة الشهادة الثانوية الأزهرية ليكملوا دراستهم فيه؛ اذ رأى

طه حسين. عميد كلية الآداب حينئذ - وزملاؤه من أعضاء قسم اللغة العربية أنه من الخير أن يتيحوا لمجموعة ممن حفظوا القرآن الكريم واستظهروه فى صباهم ثم درسوا العلوم الدينية وعلوم العربية فى شىء من التوسع أن يتابعوا الدراسة فى القسم المذكور ويتخرجوا فيه.

وبذلك يتيح قسم اللغة العربية فى كلية الآداب لمصر شبابًا يحسنون تعليم العربية كما يحسنون الفقه بالدراسات الأدبية الحديثة التى يزود بها أساتذة القسم طلابه جامعين بين القديم والجديد أو بين الدراسات القديمة والدراسات الحديثة جمعًا من شأنه أن يهيئ الفرصة لجامعة القاهرة كى تخرج شبابًا يتقن العربية ويفقه أسرارها فقهًا سليما، كما يتقن أدوات البحث الحديثة فى الأدب والنقد إتقانًا قويمًا، وصمم الفتى فى دخيلة نفسه على الالتحاق بكلية الآداب حين تفتح أبوابها له ولرفاقه فى العام الدراسى المقبل.

وكان البرلمان قد اتخذ قرارًا فى شهر فبراير بتفويض وزارة النحاس فى مفاوضة الحكومة البريطانية وسافر وفد المفاوضة برياسة النحاس إلى لندن فى شهر مارس ولقى «هندرسن» وزير الخارجية البريطانى وبدأت المفاوضات، غير أنها أخذت تتعثر وتحطمت سفينتها فى أوائل شهر مايو على صخرة صلدة، هى صخرة السودان؛ إذ أصر النحاس على السماح للمصريين بالهجرة إلى السودان لمن شاء منهم ذلك دون قيد، كما أصر على أن لا يظل للإنجليز حكم السودان ثنائيًا مع مصر إلا مدة عام واحد.

وعاد النحاس إلى مصر بعد إخفاق مفاوضته، وكان مفروضًا أن تتضامن جميع عناصر الأمة معه فى موقفه ضد سياسة الإنجليز الغاشمين، ولكن سرعان ما ترامى لمصطفى النحاس أن الأحرار الدستوريين يحاولون الوصول إلى كراسى الحكم بأى ثمن حتى لو كان الثمن الإطاحة بالدستور، وأسرع النحاس فأعد مشروعا لقانون بمحاكمة الوزراء إن هم عطلوا الدستور أو حذفوا مادة من مواده، أو عدّلوا حكمًا من أحكامه، وكذلك إن هم خانوا أمانة الحكم وبددوا شيئًا من أموال الدولة.

وكثرت الشائعات حينئذ بأن القصر سيرتكب حماقة بشعة من حماقاته هى حل البرلمان وتعطيل الدستور، حتى يخرج النحاس ووزارته من الحكم، وغضب النواب الوفديون حين علموا ذلك غضبًا شديدا، وخطب العقاد خطبة نارية ملتهبة توعد فيها كل من يحاول العبث بدستور الأمة بسوء المصير قائلاً فى عنف: «إن الأمة على استعداد لأن تسحق أكبر رأس فى البلاد يخون الدستور ولا يصنونه» وارتعدت فرائص فؤاد وحواشيه وأعوانه، غري أن الفتي والشعب جميعه اكبروا في العقاد موقفه وشجاعته، وضاق النحاس بالدسائس التى تحاك من حوله فقدم استقالته فى شهر يونية سنة ١٩٣٠ وخلفه إسماعيل صدقى.

وكان الفتى قد عاد إلى دمياط فى الأجازة الصيفية، وعلى عادته زار قريته وقرية أخواله، وفى القرية الأخيرة وجد أهلها لا يزالون يتداولون قصة، منذ انتخابات عدلى يكن المارة؛ مؤداها أن

ريفية من القرية ذكروا له اسمها واسم زوجها سألته حين عاد من الانتخابات انتخبت سعدًا أو عدلى؟ وكان عدلى لا يزال فى رأى كثرين من أهل الريف يرمز إلى حزب الأحرار الدستوريين رغم استقالته المبكرة منه. وكأنما كان قد استقر فى أذهان بعض أهل القرى الريفية بأن من ذهب إلى الانتخابات إما أن ينتخب سعدًا رغم وفاته، وإما أن ينتخب عدلى رغم اعتزاله الحزبية وأجاب الرجل زوجته مازحًا أو غير مازح: انتخب عدلى. وفوجئ بها تستر وجهها من دونه وتقول له: لقد حرمت عليك ولم تعد زوجى، عبثًا حاول الزوج أن يصحح لزوجته القروية فكرتها، فقد ظلت تماريه طويلا معتقدة أنها أصبحت محرمة عليه، ولما أعياه إقناعها خرج فبحث عن مأذون القرية حتى وجده وأتاها به، فأقنعها بخطئها وما ظنته بزوجها من مفارقته لدينه.

ولعل فى ذلك ما يصور من بعض الوجوه كيف أن الانتماء لحزب الوفد ولزعيمه سعد تحول فى نفوس بعض أهل الريف البسطاء إلى ما يشبه العقيدة حتى ظن بعضهم أنه جزء من الدين الحنيف على نحو ما ظنت تلك المرأة الريفية الساذجة، ولم يكن ذلك غائبًا عن أذهان خصوم الوفد من المشتغلين بالسياسة؛ ومع ذلك كانت تغرهم الأمانى من حين إلى حين فيظنون ظنًا واهمًا أنهم يستطيعون أن يزعزعوا مكانة الوفد الراسخة فى نفوس الأمة على نحو ما غرت «زيور» سنة ١٩٢٤ وعلى نحو ما غرت محمد محمود فى صيف سنة ١٩٢٨ وكما تغر إسماعيل صدقى فى يونية الآن سنة ١٩٣٠؛ إذ سولت له شياطينه أنه يستطيع سحب ثقة الأمة بالوفد، وأغواه بذلك القصر والإنجليز فألف الوزارة فى نفس اليوم الذى استقال فيه النحاس.

وبدأ صدقى فى اليوم التالى لتأليف وزارته بتأجيل انعقاد البرلمان شهرًا، وماجت البلاد بالثورة ضده، ومضى يحاول قهر الشعب بإطلاق الجند والشرطة النار عليه مما زاد الثورة اشتعالا، وخاصة حين رآه الشعب يفض الدورة البرلمانية.

وجزع الإنجليز لتلك الثورة، وإذا برئيس وزرائهم ماكدونالد يصرخ فى مجلس العموم عندهم بأن إنجلترا تقف من الأحداث فى مصر موقف الحياد، مع تنصلها من تبعات صدقى فى اعتدائه على دستور البلاد ومع عده مسئولاً عن أرواح الأجانب وممتلكاتهم فى مصر إذا تعرضت للخطر.

وأبلغ الإنجليز التصريح رسميًا إلى صدقى، فرد عليه بمحافظته على أرواح الأجانب ومصالحهم، أما ما يتصل بالاعتداء على دستور البلاد فلم يتنصل منه بل قال: إن مصر لم تلتمس فيه معونة من إنجلترا إذ هو من شئونها الداخلية التى لها الحق كل الحق أن تتصرف فيها كما تشاء.

وهى مناورة سياسية من ماكدونالد وصدقى، فماكدونالد يعلن حياد إنجلترا وهو حياد كاذب؛ إذ هى التى أغوت صدقى من وراء ستار أن يعتدى على الدستور ويتمادى فى عدوانه كما سنرى بعد قليل، وصدقى يعلن فى جرأة اعتداءه على حقوق الأمة فى دستورها آخذًا بذلك موثقًا من الإنجليز.

وكان الطلبة غادين على بيت الأمة رائحين للقاء النحاس ورجال الوفد، وكانوا يذهبون إلى بيوت كبار الساسة المصريين يسمعون منهم رأيهم فى تلك الغيوم التى أخذت تتعقد فى سماء مصر.

ومن أطرف النكت التى قيلت بصدد رد صدقى على ماكدونالد بأنه ليس من حق إنجلترا أن تتدخل فى شئون مصر الداخلية ما جاء على لسان المحامى الكبير إبراهيم الهلباوى حين تعرض له أحد الطلبة يسأله عن رأيه فى هذا الرد وكيف تقبله إنجلترا فى صمت؟ حينئذٍ أجابه الهلباوى: لا تعجب يا بنى فإن الإنجليز يحسبون صدقى منهم ولو أعلن رئيس وزارة مصرية آخر فى وجه الإنجليز ما أعلنه صدقى لأرسلوا إليه غاضبين توعدًا وتهديدًا وإنذارًا شديدًا.

٧



كان الفتى قد أنهى دراسته بالتجهيزية وصمم فى العام الدراسى الجديد: ١٩٣٠/ ١٩٣١ على الالتحاق بقسم اللغة العربية بكلية الآداب فى جامعة فؤاد (جامعة القاهرة الآن) وقُبل بين كثيرين كانوا نحو ثمانين طالبًا من الأزهر والتجهيزية، جاءوا جميعًا مشوقين إلى الاستماع لطه حسين ولمحاضراته وما يحدث من دراسات نقدية جديدة فى الأدب العربى وأدبائه، ورأى قسم اللغة العربية أن ينتظموا فى سنة تمهيدية قبل دخولهم السنة الأولى بالكلية يتعلمون فيها اللغات الأجنبية حتى يصبحوا على قدم المساواة فى تلك اللغات مع من ينتظمون فى الكلية من طلاب المدارس الثانوية المدنية.

وخُيِّر هؤلاء الطلاب الجدد بين تعلم اللغات: الإنجليزية والفرنسية والألمانية ليتخذوا من إحداها لغة أساسية أولى ومن

ثانية لغة فرعية، واختار الفتى الإنجليزية لغة أولى والفرنسية لغة ثانية، وعكف على درس هاتين اللغتين الأجنبيتين ليل نهار، وكان يدرسهما له ولرفاقه مدرسون أجانب: إنجليز وفرنسيون من مدرسى أقسام اللغة الأجنبية فى الكلية، وكان تعلم الإنجليزية أسهل على الفتى من تعلم الفرنسية لصعوبة نبراتها وكثرة الحروف الصامتة فى كلماتها.

وطوال هذا العام الدراسى كان الوفد - ومعه الأمة - يقاوم هو وصحفه صدقى مقاومة باسلة، بينما كان هو سادرًا فى بغيه وطغيانه، وبدأ العامَ فى أكتوبر بإلغائه دستور سنة ١٩٢٣ ووضع دستور أبتر جديد، واحتجت الأحزاب: حزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين والحزب الوطنى، واحتجت معها صحفها بشدة، وهبت عواصف المظاهرات، وقمعها صدقى بقوة.

ولم يلبث صدقى أن عمد فى نوفمبر إلى تأليف حزب جديد من ذوى الأطماع والمآرب العاجلة ليكون لحكمه سندا . ولو صوريا . وفعلاً كان سندًا صوريًا هزيلا، وقد سماه حزب الشعب - من باب تسمية الأشياء بأضدادها - وأنشأ له صحيفة باسمه، وكأنما أعاد به من جديد حزب زيور وأعوانه فى القصر: حزب الاتحاد الذى انهار من قواعده فى انتخابات سنة ١٩٢٦ وَغَدَ كأن لم يكن شيئا مذكورا.

وكان عباس العقاد - منذ تولى صدقى الوزارة - يصليه نارًا حامية بمقالاته الملتهبة، وقد مضى يصبها فوق رأسه حميمًا لا

يطاق، وكانت كلمته السالفة فى البرلمان: «إن الأمة على استعداد بأنْ تسحق أكبر رأس فى البلاد يخون الدستور ولا يصونه» لاتزال تتردد على الأفواه، وسياط مقالاته السياسية لا تزال تكوى وجه صدقى كيًا أليما، فدبر له هو وأعوانه محاكمة جائرة باسم العيب فى الذات الملكية وحكم عليه بالسجن تسعة أشهر طوالا.

وكان ذلك نكسة فظيعة للحريات فى مصر، إذ لم تعد السيادة للقانون بل أصبحت للأشخاص الذين يسومون الأمة وأبناءها الأحرار العسف والقهر والبطش. وغضب طلاب الجامعة غضبًا شديدًا على صدقى بل أخذت الأمة بمختلف طبقاتها تعلن غضبها رغم أن الصحف كانت مقيدة وكانت الأفواه مكممة، وصدقى ومن ورائه القصر والإنجليز يحكمون الشعب بالحديد والنار... لقد داسوا بأقدامهم الحريات الشرعية للشعب وأبنائه الأبرار وألقوا بالعقاد كاتب الأمة الحر فى غياهب السجون، وكأنما وضعت على مصر جميعها الأغلال وهى ترزح تحت أثقالها معلنة سخطها وغضبها، وصدقى يغلق صحفها، وكلما أغلق صحيفة خرجت صحيفة جديدة ترميه بشواظ من نار لا تخمد أبدا.

وفى شهر مارس سنة ١٩٣١ تم الائتلاف بين حزبى الوفد والأحرار الدستوريين لمناهضة صدقى ومقاومته، وجعلوا لائتلافهم ميثاقاً سموه عهد الله والوطن، تعهدوا فيه بالنضال لإعادة الحياة الدستورية السليمة وإعادة دستور سنة ١٩٢٣ ومقاطعة انتخابات صدقى التى ينوى إجراءها، وقد مضى يعد العدة لإجراء هذه الانتخابات بتعطيل حرية الرأى وحرية الصحافة وحرية الكلمة

وحرية الاجتماعات، وضرب للانتخابات موعدًا فى شهر يونية، حتى إذا كان اليوم الموعود حاول أن يفرضها على الأمة قسرًا بقوة الجيش والشرطة وتحولت الشوارع فى القاهرة والإسكندرية والمدن الكبرى إلى ساحات قتال ونزال بين الشعب وجنود الحكومة، وامتد ذلك إلى بعض القرى فى الريف وأريقت دماء زكية كثيرة.

ولم يحدث انتخاب حقيقى ولا اقتراع حقيقى للأمة؛ إنما حدثت معارك حامية بينها وبين جند الحكومة. وعمد صدقى إلى التزوير الشنيع لنتيجة الانتخاب؛ فأعلن زورًا وبهتانًا أن نسبة من أدلوا بأصواتهم فيه بلغت $\frac{٧}{٨}$ ٦٧٪ وانعقد برلمانه المزيف فى يونية، ومضى فى غيه وبغيه لا يرتدع ولا يزدجر.

وخرج العقاد من سجنه فى يولية، وزار ضريح سعد زغلول، ولم يكد يصل إلى فنائه حتى أسرع إليه جمهور كبير من الشعب لاستقباله، فأنشد فيه قصيدة طنانة أعلن فيها ثباته على مبادئه الوفدية وإصراره على الاستمرار فى منازلة أعداء الأمة الآثمين، وقد صور حياته فى السجن بكتابه المعروف: «عالم السجون والقيود» وهو أنشودة بديعة فى الحرية ورفض الظلم والطغيان وأخذ يهوى بمقالاته بل بسياطه النارية على رأس صدقى وأعوانه وكلما أغلق له صحيفة كتب فى أخرى مصوِّبًا إليه قلمه بل رمحه طاعنا به طعنات مصمية فى صدره وصدور من ورائه من الإنجليز ومن القصر وحواشيه.

وبدأ عام دراسى جديد وفيه انتظم الفتى فى السنة الأولى بكلية الآداب مع الطلاب المدنيين الذين يدخلون الكلية فى أول كل عام ومع من كان يدخلها معهم من الآنسات فقد كان لطفى السيد مدير الجامعة حينئذ، فتح أبواب الجامعة للفتيات ودخلت كثيرات منهن كلية الآداب، وتذكر الفتى أيام صباه فى القرية، وكأنما عاد من جديد هذا الاختلاط الذى بدأ به حياته التعليمية فى القرية. وكانت الآنسات سافرات، وكثيرون يظنون أن دعوة قاسم أمين إلى سفور المرأة المصرية انتظرت حتى دخلت الفتيات الجامعة والواقع أنها كانت قد نجحت النجاح المنتظر مع الثورة المصرية سنة ١٩١٩؛ إذ خرج نحو ثلاثمائة من كرام العائلات فى القاهرة تقودهن صفية زغلول فى مظاهرة كبيرة محتجات بقوة على سفك الإنجليز للدماء الزكية فى الثورة.

وفى الحق أن الحجاب إنما كان منتشرًا بين النساء فى المدن المصرية بتأثير الأسر التركية التى عاشت طويلاً فى المجتمع المصرى وكان يحاكى أسر المدن بعض أسر الريف وخاصة الثرية، أما عامة الريفيات فكن يشتغلن فى الحقول مزاملات للرجال من قديم سافرات دون أى حجاب أو نقاب.

وكانت الآنسات فى كلية الآداب موضع تقدير كبير لا من الأساتذة - فقط - بل - أيضًا - من زملائهن جميعًا لما يأخذن به أنفسهن من الجد مبالغات فيه إلى أقصى حد، يردن التفوق على

الشباب ويعملن له بكل ما يستطعن حتى يزول إلى غير رجعة الاستخفاف بالمرأة.

وقد مضى الشاب يشارك زملاءه من الشباب وزميلاته من الآنسات فى الاستماع إلى محاضرات الأساتذة فى جميع مواد هذه السنة وكانت مواد عامة؛ إذ كانت سنة إعدادية تعد الطلاب للتخصص فى أقسام الكلية المختلفة، وكان لكل قسم مادة فى تلك السنة يدرسها الطلاب، وكانت أقسام الكلية حينئذ سبعة أقسام هى أقسام اللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والدراسات القديمة: اليونانية واللاتينية ثم أقسام الفلسفة والتاريخ والجغرافيا، وكان قسم الدراسات القديمة يدرس للطلاب فى تلك السنة الإعدادية اللغة اللاتينية.

وكانت تموج الجامعة طوال العام بالغليان ضد صدقى وحكومته الباغية، وكان على رأس الجامعة لطفى السيد وعداده فى الأحرار الدستوريين، ومثله - حينئذ - طه حسين - عميد كلية الآداب ورئيس قسم اللغة العربية بها، وحاول صدقى أن يستدرج طه حسين لكى يكتب فى صحيفة حزبه الزائف صحيفة الشعب، وقلما كان يقرؤها أحد.

ورفض طه حسين رفضًا باتًا أن يكتب فى صحيفة عدو الشعب، ورد وسطاءه ردًا غليظا؛ إذ كيف يتعاون مع من ألغى دستور الأمة وخنق الحريات واضطهد الأحرار وسفك دماء المواطنين الطاهرة فى انتخاباته المزورة... فعزله صدقى من منصبه فى شهر مارس

ونقله إلى ديوان وزارة المعارف (التربية والتعليم الآن) فلم يذهب إليها وقدم إلى وزيرها استقالته.

وأضرب طلاب الجامعة، وكان يومًا مشهودًا؛ فقد خرجوا فى مظاهرة ضخمة إلى منزل طه حسين وهناك ظل خطابؤ هم يتبادلون فى اعتداء صدقى على الجامعة وظلوا يهتفون بحياة مصر وحياة مفكريها الأحرار، وغضب لطفى السيد - مدير الجامعة - بسبب هذا العدوان على استقلال الجامعة وقدم إلى الحكومة استقالته.

وكان طبيعيًا أن يهدد خروج طه حسين من الجامعة الطلاب الجدد الذين جاء بهم من الأزهر والتجهيزية ليكملوا دراستهم فى الكلية وخاصة أن صدقى وأعوانه ظنوا أن لهم يدًا فى حركة الجامعة الثورية ضد الحكومة، وفعلاً خيروهم بين الاستمرار فى الجامعة - مع ما فى ذلك من صعوبة تعلم اللغات الأجنبية بحيث يقفون على قدم المساواة مع الطلاب المدنيين الذين أمضوا فى تعلمها سنوات طويلة - وبين أن يعودوا من حيث جاءوا إلى الأزهر ودار العلوم، وعادت الكثرة الغالبة، وكان الفتى بين من صمموا على إكمال التعليم الجامعى فى كلية الآداب حتى النهاية، ومضى يكب على دراسة الإنجليزية والفرنسية واللاتينية.

وكان الفتى يعجب بمحاضرات التاريخ، وكان موضوعها تاريخ مصر؛ وقد توزعه أساتذة القسم، كلٌ يحاضر فى دورة من دورات التاريخ المصرى، فكان أستاذ الفرعونيات أو التاريخ القديم

يحاضرهم فى موضوع طريف اختاره هو: المعاهدات التى عقدتها مصر بينها وبين جاراتها فى الأزمنة العتيقة مصورًا بما احتوت من مواد مختلفة دلالاتها الحضارية، وأخذ أساتذة التاريخ بعده يتلونه فى عرض تاريخ مصر زمن البطالمة وفى الأزمنة الإسلامية والعصر الحديث، وكان أستاذ التاريخ فى العصر الأخير بارعًا فى عرضه وإلقائه.

وكان الطلبة يتخوفون من اللاتينية والجغرافيا لكثرة من يرسبون بهما فى آخر العام، وكان الراسبون فى الجغرافيا أكثر وأوفر لا لصعوبة امتحانها التحريرى فحسب، بل - أيضًا - لصعوبة امتحانها الشفوى. ولا يزال الفتى يذكر امتحانه فيها آخر العام، وكان مطلوبا منه ومن رفاقه فى الامتحان التحريرى الإجابة علىّ خمسة أسئلة، وانتهى الوقت قبل أن يجيب على السؤال الخامس؛ إذ انتهى الزمن المحدد دون أن يشعر، ودون أن يتمكن من أخذ الفرصة للإجابة عليه.

واستعد الفتى بعد ذلك للامتحان الشفوى، وكانت اللجنة الخاصة بالجغرافيا تضع بين أيديها أوراق الإجابة فى الامتحان التحريرى لمراجعة الطلاب فى إجاباتهم إذا لزم الأمر، وعجب إذ رأى الممتحنين يعيدون عليه نفس الأسئلة التى أجاب عليها فى الامتحان التحريرى!! وبعد أن فرغ من إجاباته قال لهم: إننى تركت السؤال الخامس لأن الوقت المحدد للإجابة كان قد انتهى وأنا مستعد الآن للإجابة على هذا السؤال.. غير أنهم لم يلتفتوا إلى ما قاله، وأمروه بالانصراف مكتفين بما سمعوا منه.

وكانت دهشة الفتى كبيرة حين ظهرت نتيجة الامتحان؛ إذ عرف أنه نال أكبر درجة فى الجغرافيا بين أقرانه، وهى ١٤ من ٢٠ فى التحريرى؛ وكذلك فى الشفوى. وإن الفتى ليحمد الله الآن أن اللجنة لم تزد درجته فى الامتحان الشفوى عن درجته فى الامتحان التحريرى إذ ربما دفعه ذلك إلى دخول قسم الجغرافيا وترك قسم اللغة العربية الذى كان يتفق مع ثقافته وميوله الحقيقية.

وكان طه حسين حين خرج من الجامعة انضم إلى الوفد وأخذ يكتب فى صحيفة «كوكب الشرق» ثم استقل بصحيفة خاصة به سماها «الوادى» وأخذ فيها يكوى لحم صدقى الأثيم بسياط مقالاته. وكان غُلُّ الوظيفة قد خُلع عن حافظ إبراهيم بخروجه إلى التقاعد، فانضم إلى المقاومين لصدقى وأخذ ينشر أشعارًا فى الصحف مصورًا فيها بطش صدقى بمواطنيه وخنقه للحريات وكذب الإنجليز فيما يزعمونه من حيادهم ولهم يقول فى بعض ما نشره:

املأوا البحر إن أردتم سفينا ... واملأوا الجوَّ إنْ أردتم رجُوما

إننا لن نحول عن عهد مصر ... أو ترونا فى الترب عظمًا رميما

وكانت قد تعددت حوادث القنابل، وتعدد فيها المهتمون، وكان يترافع فيها كبار المحامين الوفديين من أمثال مكرم عبيد ونجيب الغرابلى وكانت مرافعاتهم أشبه بقنابل مدوية لما تثير فى النفوس من الحماسة والبغضاء لصدقى وعهده.

وصمم الفتى فى العام الدراسى التالى ١٩٣٢/ ١٩٣٣ على أن يختار لتخصصه قسم اللغة العربية الذى جاء إلى الكلية من أجله،

وانتظم بين طلابه، وكان هو ورفاقه يحملون فى غدوهم ورواحهم الصحف التى يكتب فيها طه حسين والعقاد وهيكل. وحدث فى شهر نوفمبر تصدع خطير فى الهيئة الوفدية؛ إذ خرج منها عشرة كانوا من المعدودين فى طليعة السياسيين المجاهدين من الوفديين ولم يلبث الوفد بزعامة النحاس أن ضم إلى هيئته اثنى عشر عضواً جديدا، فالتأم الجرح على مضض من الشباب الجامعى وألم مرير. ومما يحمد لمن انشقوا من الوفد أنهم ظلوا مخاصمين لصدقى، وظل سادراً فى حماقاته وفى عسفه وطغيانه وبغيه، وصحف الأحزاب جميعًا تعنف به وبحكمه عنفًا شديدا. وكانت الوزارة قد نقلت إلى قسم اللغة العربية الشيخ أحمد الإسكندرى أستاذ الأدب بدار العلوم ليشغل مكان طه حسين فيه، وكان شيخًا جليلا، وله مؤلفات فى الأدب وغيره، وكان حجة لا يبارى فى اللغة واشتهر ببحوثه اللغوية الفريدة، وكان يأخذ الفتى ورفاقه بالجد فى الدرس ناصحًا لهم مرشدًا ما استطاع من الإرشاد والنصح، وذكر لهم يومًا فيما ذكر من إكبابه على البحث أنه قرأ القاموس المحيط لفيروزابادى بمجلداته الأربعة وفى يده قلم ليكتب توًا كل كلمة يجدها فى هذا المعجم صالحة لأداء معنى حضارى جديد أو مصطلح علمى حديث؛ وبذلك ومثله كان يدفع الفتى ورفاقه للعكوف على القراءة والتحصيل والانتفاع بما يحصلون ويقرءون. وكان الفتى ورفاقه يدرسون الإنجليزية والفرنسية مع طلاب الأقسام المختلفة فى الكلية ودرسوا مع اللغتين اللغة السريانية لعام واحد مع ما درسوا من الأدب والنقد والنحو.

وكانت هذه السنة الدراسية ١٩٣٢/ ١٩٣٣ بقية السنوات المجدبة التى حكم فيها صدقى: سنوات عانت فيها مصر أزمة اقتصادية طاحنة ظلت تأخذ بخناقها، وكلما تقدمت الأيام ازدادت هولا لم يسبق له مثيل؛ إذ هوت أثمان العقارات والحاصلات إلى الحضيض، وبدلاً من أن تعمل الوزارة على عون المزارعين والفلاحين أخذت تستخدم السياط فى القرى لجباية أموال الضرائب.

وكان صدقى وأعوانه يشيعون أنه اقتصادى كبير، وتبين إخفاقه إزاء تلك الأزمة الاقتصادية الخطيرة وأنه لم يجلب إلى البلاد إلا الخسار والبوار، وإلا ما أذاقها من البطش والتنكيل بالمواطنين، وإلا فساد الحكم فسادًا من الصعب أن يصلح بعده، حتى إذا كان صيف هذه السنة أحس الطاغية الباغى بالإعياء، والشعب يغلى والصحف تزداد عليه سخطًا وعنفًا، فاضطر إلى تقديم استقالته فى سبتمبر سنة ١٩٣٣ وخلفه عبدالفتاح يحيى على رأس وزارة جديدة.

وكانت وزارة عبدالفتاح يحيى صورة ممسوخة من وزارة صدقى؛ إذ تشبثت بنظامه فى الحكم ودستوره الزائف، وتبين سريعًا تخاذل حزب الشعب وبرلمانه، فإنه انفضّ توًا عن صدقى واتخذ رئيسَ الوزارة الجديد زعيمًا له ورئيس...!! وهكذا ذهب صدقى وكل ما دبره خلال سنواته الثلاث أدراج الرياح.

وكان الفتى حينئذ فى السنة الثالثة بقسم اللغة العربية. وكانت الدراسة فيه محببة إليه وحقًا خرج منه طه حسين، أخرجه

صدقى، ولكن كانت به صفوة من الأساتذة، ملأت قلب الفتى وقلوب رفاقه حبًا للمواد التى كانوا يدرسونها لهم وعناية بالتعمق فيها؛ فهذا إبراهيم مصطفى أستاذ النحو يدرس لهم النحو بطريقة جديدة لم يألفها الفتى فى الأزهر ولا فى تجهيزية دار العلوم ولا فى كتب النحو القديمة التى اطلع عليها، طريقة نقدية تحليلية يُدَرَّسُ فيها الباب من أبواب النحو دراسة تاريخية تصور آراء النحاة القدماء فيه على مر الأجيال، ولا يكتفى الأستاذ بذلك بل يعرض الباب مبينا ما جاء عن العرب من شواهد شعرية فيه محاولاً أن ينفذ من خلال ذلك إلى رأى جديد يبسطه للفتى ورفاقه، وكان قد وضع نصب عينيه أن يخلِّص النحو من شوائبه الكثيرة التى جعلته أشبه بغابة ملتفة، وكان يحاول بكل جهده أن يفتح الأبواب أمام الفتى ورفاقه كى ينقدوا الآراء المتشعبة للنحاة فى الباب أو فى المسألة الواحدة وما أثاروه من علل وأقيسة، وكان الفتى يعجب بهذا الاتجاه الجديد فى دراسة النحو، ويحاول النفوذ - على غرار أستاذه - إلى بعض الآراء الجديدة، وكثيرًا ما كان الأستاذ يبتسم ويقول له: ما أحراك أن تعنى بتأليف القصص، فإن عقلك كثير الخواطر كثير الاقتراحات والآراء.

وكان الفتى مثل رفاقه يشغف بمحاضرات أستاذ البلاغة والتفسير أمين الخولى، وكان قد تخرج فى مدرسة القضاء الشرعى - مدرسة عاطف بركات - وعين إمامًا فى سفارة مصر بإيطاليا وألمانيا، فرأى الغرب ووقف على جوانب من الحضارة والفكر فيه؛ وجعله ذلك يجمع بين القديم والجديد مع محافظة واضحة على

القديم فى زيه، فقد عاد بعد رجوعه من الغرب إلى الزى الأزهرى؛ وهو مع ذلك يكره الجمود ويحب التجديد، وكان يحاول أن يصطنع نهجًا جديدًا فى تدريس البلاغة، وكان لا يزال يدفع الفتى ورفاقه إلى نقد كل ما يقرءون - وأيضًا - إلى نقد كل ما يدلى به من آراء، وكان يتقبل أفكارهم بصدر رحب وسعة أفق غير مظهر لأى طالب تبرمًا أو ضجرًا مهما أطال فى حواره معه وفى مناقشته وجداله. وكان الفتى ورفاقه يعجبهم فيه هذا الجانب، فكانوا يستعدون - دائمًا - لجداله ويأخذون الأهبة لمناقشته وهو هاش لهم؛ بل ما يزال يستزيدهم محاولاً أن يوضح لهم الصواب من الخطأ، وكان قد اختار فى التفسير للفتى ورفاقه أقسام القرآن الكريم فى مطالع بعض سوره لدراستها طوال العام، وأخذهم بقراءة كتاب التبيان فى أقسام القرآن لابن قيم الجوزية، وظل يحاول معهم بيان النسق القرآنى بين القسم فى مفتتح سوره وما يليه، وكانت دراسة أدبية طريفة مرّن فيها الطلاب من بعض الوجوه على التذوق الفنى لآى الذكر الحكيم.

وبدأ الفتى فى هذه السنة بقسمه يدرس اللغة الفارسية وآدابها وكان أستاذها عبدالوهاب عزام قد تخرج فى مدرسة القضاء الشرعى - مدرسة عاطف بركات - وعين إمامًا فى سفارة مصر بلندن. وهناك التحق بجامعتها دارسا فيها اللغة الفارسية، وكان مثلا رفيعا من أمثلة الدأب العلمى الخصب، وهو أول أستاذ مصرى علم الفارسية للطلاب فى جامعة القاهرة، وكان يؤمن بالعروبة

والإسلام إيماناً عميقًا، شاعرًا بأن الوطن العربى جميعه وطنه بل إن الوطن الإسلامى جميعه وطنه ويصور ذلك كتابه: «الأوابد» تصويرًا حيا، وجعلته دراسته للآداب الفارسية يتعمق التصوف عند شعرائه الفرس وكان لذلك أصداء بعيدة فى نفسه؛ إذ تميز بنزوع حقيقى إلى التصوف.

وكان عبدالوهاب عزام أديبًا بارعا، عرفه الفتى فى أول سنة من سنينه فى كلية الآداب حين رآه وهو يناقش فى رسالته التى حصل بها على درجة الدكتوراه إذ استطاع أن ينشر لأول مرة «الشاهنامة» للفردوسى ملحمة الفرس المشهورة وكان قد ترجمها الفتح البندارى نثرًا إلى العربية فى أيام الأيوبيين وكانت بها صحف ساقطة سقطت من يد الزمن، فاستكملها وحققها تحقيقًا علميًا رائعا، مما جعل مناقشيه يضفون عليه ثناء عطرا، وكانت دروسه فى الفارسية محببة إلى الفتى ورفاقه وسرعان ما عرفوا الفارسية، وكان يقتطف لهم منها أزهارًا يانعة من قصص الشيخ سعدى ومن أشعار حافظ الشيرازى وجلال الدين الرومى ومحمد إقبال شاعر باكستان العظيم، وكان خفيف الظل لا يعبس فى وجوه تلاميذه ولا يتجهم بل يتلقاهم - دائمًا - صافى الروح وادع النفس.

وكان من أساتذة الفتى المحبَّبين إليه فى هذه السنة الدراسية أحمد أمين أستاذ الحياة العقلية الإسلامية، وكان من خريجى مدرسة القضاء الشرعى، وعليه درّس فيها أستاذ اللغة الفارسية وأستاذ البلاغة والتفسير المذكوران، وحين تخرج فى مدرسته

اختاره ناظرها عاطف بركات ليكون معيدًا له فيما يدرس من علم الأخلاق لطلاب القسم العالى بالمدرسة، وكان يوضع له كرسى ليستمع مع الطلاب إلى عاطف بركات وهو يلقى دروسه فى علم الأخلاق، وكان مما درسه معهم رسالة عن مذهب المنفعة للفيلسوف الإنجليزى «ستيوارت ميل» جاء فى مقدمتها: «منذ جلس الشاب سقراط يتلقى العلم على الشيخ «فيثاغورس» فلقب الطلاب الشاب المعيد لأستاذهم: الشاب سقراط، وكان قد عكف على اللغة الإنجليزية فتعلمها، وتبوأ مكانه فى قسم اللغة العربية سنة ١٩٢٦ ورأى أن يغير زيه وكان قد نُقل إلى كلية الآداب من القضاء الشْرعى فغيّر عمامته إلى الطربوش وخلع الجبة والقفطان ولبس البدلة انسجامًا مع بيئته الجامعية الجديدة.

وكان أحمد أمين يُعد فى طليعة من جمعوا بين الثقافتين القديمة والحديثة جمعا رائعًا يعينه عقل بصير ونظر دقيق ودأب لا يماثله دأب فى البحث واستيعاب لا يدانيه استيعاب لكنوز الفكر الإسلامى وذخائره، وكان يحاضر الفتى ورفاقه فى الحياة العقلية الإسلامية، ولم تكن صورة هذه الحياة واضحة فى نفوس المثقفين فأكبَّ عليها يدرسها ويذلّل صعابها وعقابها، فإذا كل ما كان يحجبها عن الأعين ينزاح لا يفترق فى ذلك جانب عن جانب؛ بل كل الجوانب يسلط عليه ضياء قوى، وساعدته على تسليط هذا الضياء ثقافته القديمة فى الأزهر ومدرسة القضاء الشرعى وثقافته الغربية الحديثة وما قرأه من آراء المستشرقين.

وكان الفتى يعجب إعجابًا شديدًا بكل ما يعرضه أستاذه أحمد أمين وخاصة حين يراه يتعمق فى وصف الظواهر العقلية للأمة العربية وما وضعته من العلوم وما صاغته من الأفكار وكان - دائما - يوصى الفتى ورفاقه أن يعنوا بتسجيل معلوماتهم فى جذاذات وأن يتعودوا فى بواكير حياتهم أن يلتقطوا من الكتب التى يقرءونها خير ما فيها ويدونوه فى هذه الجذاذات أو الوريقات حتى إذا احتاجوا إليه فى المستقبل وجدوه مَدَّ أيديهم وتحت أبصارهم.

وكان يذكر للفتى ورفاقه أن الكتب القديمة غير مفهرسة وأن الباحث إذا لم يستخدم طريقة الجذاذات فى أثناء قراءتها أفلتت منه المعارف الطريفة التى وقع عليها واضطر إلى قراءة الكتب ثانية. ولم يعرف الفتى قيمة هذه الوصية إلا بعد أن عُنى بالبحث وعرف بوضوح أنه فاته الكثير بسبب إهماله هذه الطريقة واتكاله الخاطئ على ذاكرته، والذاكرة كثيرًا ما تخون صاحبها، وقد يذكر الإنسان الفكرة التى تصادف أن قرأها وينسى المصدر الذى جاءت فيه.

وكان ينهى طلابه أشد النهى عن الجدل العقيم وما يحمل من مغالطات ويكرر أن طريقة الجدل اللفظى عند القدماء حلت محلها فى العصر الحديث طريقة التحليل والاستقراء؛ ولعل هذا ما جعل الفتى فيما بعد يحرص على ألا ينزلق فى مجادلة عقيمة لا تجدى نفعا، وجانب مهم فيه كان يعجبه هو ورفاقه وهو: حسن انتقائه للنصوص التى تصور الفكر العربى الإسلامى، وكأنما كانت لديه حاسة يلتقط بها أدق ما يقرؤه وأروعه. وكان يألف الفتى ويوده

مودة صادقة، وهى مودة ظلت تزداد مع الأيام دعمًا وتوثقا.

وكان الفتى قد أخذ يقرأ فى كتب النقد الأدبى الغربى، يدفعه إلى ذلك ما رآه عند طه حسين والعقاد والمازنى وهيكل من آثار مطالعاتهم فى تلك الكتب، فرأى أن يزود نفسه ببعض الزاد منها حتى تتسع خبرته بالأدب ومقاييس نقده، وكان كلما سمع باسم كتاب من كتب هذا النقد اشتراه وعكف عليه يقرؤه، حتى إذا كان فى هذه السنة الثالثة بقسمه صمم أن يأخذ نفس الطريق الذى أخذه من قبله كبار النقاد المذكورون وأن يكتب بعض المقالات النقدية فى الشعر على ضوء النقد الغربى الحديث.

وتصادف أن طه حسين - وكان لا يزال خارج الجامعة - كتب مقالاً فى مجلة الرسالة عن قصيدة المقبرة البحرية للشاعر الفرنسى المتفلسف «بول فاليرى» حامل لواء الشعر والفلسفة فى فرنسا حينئذ، وأشاد بما فى قصيدته من غموض، وانبرى كاتب عراقى يرد عليه قائلا: إن الغموض والجمال الفنى لا يجتمعان فى صعيد واحد وإن الوضوح هو مرجع كل جمال فى الشعر، وبدونه لا يمكن أن ينعت بالجمال.. ورد عليه الفتى بمقال جعل عنوانه «حول الوضوح والغموض» أرسل به إلى مجلة الرسالة وكانت أهم مجلة أدبية أسبوعية فى مصر، وكان يكتب فيها أعلام الأدب من أمثال طه حسين والعقاد كما كان يكتب فيها أساتذة الجامعة النابهون.

وكان الأستاذ أحمد أمين هو الذى يراجع فى تلك المجلة المقالات النقدية، فما ارتضاه منها أخذ طريقه إلى النشر وما

رفضه أُهمل ولم ينشر، ولم يكن الفتى يعرف ذلك، وفوجئ به يقول له فى مستهل إحدى محاضراته: أنا قرأت لك مقالك عن الوضوح والغموض، وسينشر فى العدد المقبل من مجلة الرسالة. وظل الفتى ينتظر يوم صدورها بفارغ الصبر ليراه، ورآه فى عدد اليوم الثامن من شهر يناير سنة ١٩٣٤ وكاد يطير فرحًا حين أبصر مقالاً له ينشر فى مجلة الرسالة بجانب أعلام الأدب والنابهين من أساتذته.

وكان شعورًا غريبًا شعر به الفتى حين قرأ كلامه لأول مرة بحروف الطباعة، لقد كان معتادًا أن يقرأه مخطوطًا بقلمه، أما أن يقرأه مطبوعا وفى مجلة أدبية ذائعة فإن ذلك حلم من أحلامه، وقد أبصره يتحقق، فينزل اسمه فى فهرس مجلة مع طه حسين والعقاد وأحمد أمين ونظرائهم. ويقرأ المقال معتبطًا مبتهجًا وكان حين عرف أن مقالاً سينشر له فى مجلة الرسالة سارع فكتب مقالاً ثانيًا بعنوان «الشعر» وقدمه إلى المجلة، فنشرته فى العدد التالى، استهله بالحديث عن تعريفات الشعر عند العرب، وفى الغرب، مبينًا أنها جميعًا قاصرة عن أن تحيط بمعناه، وناقش فى المقال فكرة الابتكار التى أثارها أرسطو فى كتابه عن الشعر وتحدث عن عناصره الأربعة: الفكرة والعاطفة والخيال والموسيقى.

وأحس الفتى بسعادة غامرة؛ فحلمه يتحقق ثانية، وها هم رفاقه يقرءون المقالين ويناقشونه فى أفكاره، لقد أصبح محط أنظارهم وموضع تقديرهم. وكتب كثيرًا بعد ذلك، كتب مقالات وكتبًا ولكنه لم يشعر يومًا بمثل هذه السعادة وهو طالب فى السنة الثالثة بقسم

اللغة العربية يكتب مع الأعلام من الأدباء من أساتذته فى مجلة الرسالة الأسبوعية، وكتب فيها مقالاً ثالثًا بعنوان «الشعر والفن» نشرته له فى عددها التاسع والعشرين من نفس الشهر تحدث فيه عن العلاقة الوثيقة بين الشعر والفنون الجميلة موضحًا كيف أن كثيرين من الشعراء الغربيين يعنون بدراسة هذا الفن أو ذاك من الفنون الجميلة بحيث يكون الشاعر مثلاً شاعرًا ورسامًا فى آن واحد.

وكان عجب الفتى شديدًا حين عاد إلى هذه المقالات فى سن متأخرة ليرى بواكير كتاباته؛ إذ رآها بنفس الصورة التى يكتب بها حين علت سنه: صورة الأسلوب الرصين الذى يعنى صاحبه فيه باختيار الألفاظ وحسن موقعها فى الأسماع، مع الاهتمام من حين إلى حين بالصور والأخيلة يريد أن يجعله أسلوبًا سائغًا، وكان يظن أن رصانة أسلوبه أتته - بمر الزمن - من قراءاته الكثيرة - فيما بعد - للجاحظ وإعجابه بروعة أسلوبه. ويبدو حقًا ما قاله بعض النقاد الفرنسيين من أن الأسلوب هو الشخص وأنه يوجد معه حين يمسك بالقلم حتى الأنفاس الأخيرة.

وكان كثيرون ينادون بعد سقوط حكومة صدقى الطاغية بما ينبغى للعقاد من تكريم، وأقيم له فى أواخر شهر أبريل حفل تكريم فى مسرح الأزبكية برياسة مصطفى النحاس، وفيه خطب طه حسين خطابًا صافيًا مشيدًا بشاعرية العقاد، وأنه بفضله لم يرتحل - بوفاة شوقى وحافظ إبراهيم - سلطان الشعر عن مصر،

ولم يلبث أن أعلن مبايعته له بإمارة الشعر العربى المعاصر قائلا: «ضعوا لواء الشعر فى يد العقاد وقولوا للأدباء والشعراء استظلوا بهذا اللواء فقد رفعه لكم صاحبه».

وكانت وزارة عبدالفتاح يحيى تشغل كراسى الحكم طوال هذا العام الدراسى، وكانت شخصيته ضعيفة فاستهان به الإنجليز والقصر وحواشيه، وركع على قدميه أمامهم جميعًا، صادعًا لمشيئاتهم منفذًا لرغباتهم... وظل على ذلك نحو عام يتلقى اللطمات من هنا وهناك حتى إذا لم يبق فى قوس كرامته منزع.. قدم استقالته فى نوفمبر سنة ١٩٣٤.

وخلفت وزارته فى الحكم وزارة محمد توفيق نسيم وقد استهلت عملها بإلغاء دستور صدقى دستور سنة ١٩٣٠. وتنفست مصر الصعداء، ولم يلبث أن أقام الوفد فى شهر يناير مؤتمرًا كبيرًا لبحث أحوال مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وظل المؤتمر منعقدًا يومين، وكبار خطباء الوفد يتبارون فيهما من أمثال مصطفى النحاس ومكرم عبيد وأحمد ماهر؛ وكأنما تحول المؤتمر وما كانت تنشره الصحف الوفدية من تلك الخطب إلى ما يشبه سوقًا سياسية أدبية كبرى للشباب كى يمتلئوا حماسة للوفد ومبادئه وسياسته من جهة، وكى يغذوا مشاعرهم وعواطفهم الوطنية وأفكارهم بقطع خطابية من البلاغة الرائعة.

وحاولت وزارة نسيم أن تعيد دستور سنة ١٩٢٣ ووافق القصر، وسرعان ما عارض الإنجليز فى عودته؛ وبذلك انكشف الغطاء

الذى كانوا يتسترون خلفه زمن صدقى بإعلانهم الحياد فى كل ما يتصل بشئون مصر الداخلية؛ إذ تبين بوضوح أنهم كانوا وراء إلغاء صدقى لدستور سنة ١٩٢٣ ووضع دستوره الزائف الجديد.

وكان الفتى فى السنة الرابعة النهائية بقسمه، وكان طوال هذه السنة والسنة السابقة يشغف بمحاضرات الشيخ مصطفى عبدالرازق أستاذ الفلسفة الإسلامية، وكان قد تخرج فى الأزهر وتتلمذ للإمام محمد عبده، وقربه منه حتى كان يعده ابنًا له؛ لما رأى فيه من فرط الذكاء والدأب على الدرس، ومما كتبه إليه فى أثناء تلمذته عليه: «ما سررت بشىء سرورى أنك شعرت فى حداثتك بما لم يشعر به الكبار من قومك.. ولو أذن لوالد أن يقابل وجه ولده بالمدح لسقت إليك من الثناء ما يملأ عليك الفضاء».

وبعد تخرجه فى الأزهر سافر إلى باريس والتحق هناك بجامعة «السوربون»، ودُعى بعد سنتين ليحاضر بجامعة «ليون» فى الشريعة الإسلامية والأدب العربى، وترجم إلى الفرنسية مع «برنار ميشيل» رسالة التوحيد لأستاذه الإمام محمد عبده، وألفا معًا عنه كتابًا بالفرنسية، وله عنه كتاب بالعربية. وعُين الشيخ مصطفى بكلية الآداب أستاذًا مساعدًا للفلسفة الإسلامية، وظل يحتفظ بزيه الأزهرى فى صورة أنيقة دون بهرجة، وكان يحف به وقار ومهابة وجلال، كما كان يحف به حب طلابه لسماحة نفسه وكريم شمائله؛ إذ كان يفتح قلبه لهم، وكان غاية فى التواضع وأدب الحديث دون أى طرف، وكأنه أب رؤوف أو صديق عطوف.

وكان يذهب فى محاضراته مذهبا لم يسبق إليه هو: أنه ينبغى ألا يعول فى دراسة الفكر الإسلامى على كتب الفلسفة الإسلامية وبيان جذورها وفروعها فيه؛ بل يعول على كتب أصول الفقه والتشريع الإسلامى حيث يتضح اتضاحًا تامًا استقلال هذا الفكر وأنه لا يستمد من مصادر أجنبية؛ بل يعتمد على ذاته إذ نشأت مقوماته وتطورت داخل العقل العربى الإسلامى الخالص، وكان يتتبع حياة هذا والفكر وأصوله تتبعًا علميًا خصبا.

وكان الفتى ورفاقه يشغفون شغفًا شديدًا بمحاضرات الشيخ مصطفى عبدالرازق وما يثير فيها من آراء وأفكار، وكان قد تعمق الثقافتين: الأزهرية القديمة والفرنسية الحديثه فكان محافظا وفى الوقت نفسه كان مجددا - أو بعبارة أخرى كان يجمع بين المحافظة وخير ما فيها والتجديد وخير ما فيه؛ فهو من الرعيل الذى استظهر إلى أقصى حد شخصية أمته الإسلامية العربية المصرية مع التزود بالفكر الغربى الحديث تزودًا من شأنه أن يجلو هذه الشخصية ويبرز خصائصها العقلية على نحو ما كان يبرز الشيخ مصطفى عبدالرازق الفكر الإسلامى بخصائصه ومقوماته وطوابعه.

وكان ما يزال يعرض على الفتى ورفاقه فى محاضراته آراء الفلاسفة والمفكرين الغربيين والعرب من أمثال: رينان وكارادى فو وجولدتسيهر والشهرستانى وابن القيم وابن خلدون، ويناقشهم جميعًا محاولاً بكل قوته أن يرفع صرح الفكر العربى الإسلامى فى

مجال أصول الفقه لبنة من فوقها لبنة، وفكرة تعلوها فكرة. وكان حين يتناول آراء القدماء والمحدثين من العرب والغربيين يحصيها ويستقصيها مع الإنصاف الشديد فى عرضها دون أى تحيف أو تعصب لفكرة أو لشخص، وكأنما كانت فى يديه موازين عادلة؛ فهى تزن بالقسطاس دون أن تميل يمن أو يسرة؛ وكان لهذا الإنصاف والعدالة فى الأحكام والآراء أثرهما البعيد فى نفس الفتى؛ إذ تعمقا ضميره ووجدانه.

وفى شهر ديسمبر من هذا العام الدراسى الأخير للفتى فى قسمه أعادت وزارة نسيم طه حسين إلى كلية الآداب بالجامعة وما إن علم طلابها بيوم مجيئه إليها حتى هرعوا من جميع كلياتها إلى استقباله وحملوه على الأعناق بين الهتاف والتصفيق. وكان سرور الفتى عظيمًا بعودة أستاذه الذى دخل الجامعة من أجله للاستماع إلى محاضراته واختار طه حسين أن يحاضره هو ورفاقه فى كتابين قديمين من كتب النقد العربى هما: كتاب نقد النثر الذى كان منسوبا خطأ إلى قدامة، وكتاب الموازنة بين أبى تمام والبحترى للآمدى، واختار للفتى ورفاقه معهما مقدمة كتاب تاريخ الأدب الإنجليزى للناقد الفرنسى «تين» ليتبينوا من خلالها تطبيقه على الأدب الإنجليزى نظريته المشهورة التى ذهب فيها إلى أن الأدباء تحكمهم فى آثارهم الأدبية - دائمًا - ثلاثة قوانين: الجنس فلكل جنس بشرى خواصه التى تميزه، والبيئة - فلكل بيئة خصائصها الإقليمية التى تتفرد بها، والزمان - فلكل زمان أحداثه وظروفه السياسية والثقافية والدينية والاقتصادية؛ وهى فى رأيه

قوانين كقوانين الطبيعة، قوانين جبرية ملزمة لا يعدوها أى أديب فى أدبه، فهو أثر حتمى لها، أثر لا يتخلف أبدا.

وكان الفتى ورفاقه يستمعون إلى محاضرات أستاذهم طه حسين فى هذه الكتب الثلاثة معجبين بملاحظاته وما ينثر من أفكاره التحليلية النقدية، وكان يخلب ألبابهم بصوته الساحر، صوت غذاه فى صباه من قديم بعلم التجويد حين كان يتلو القرآن الكريم ويرتله على شيخه وعريفه فى الكُتّاب، صوت تتئد فيه الكلمات ومقاطعها ونبراتها وكأنها توقع على آلة موسيقية.

ولم يعرف الفتى محاضرًا شد إليه الأسماع وجذب إليه القلوب كما عرف ذلك عند أستاذه طه حسين؛ فقد كانت محاضراته وصوته فيها مهوى الأفئدة، وكان ـ أحيانًا ـ يلقيها بالجمعية الجغرافية أو بقاعة إيوارت فى الجامعة الأمريكية، فكنت لا تكاد تجد مكانًا لا للجلوس فحسب، بل ـ أيضا ـ للوقوف؛ وكل ذلك ـ أو قل كثير منه – بفضل صوته المحبب الرائع الذى اكتسبه لنفسه خلال تعلمه لتجويد الذكر الحكيم، وكان قد أتقن هذا التجويد صبيا، وكثيرون مثله فى أيامه أتقنوه، ولكن أحدًا منهم لم يستطع أن يلائم بينه وبين محاضراته ومخارج كلامه وصورة إلقائه كما لاءم طه حسى.

وكان طه حسين يضيف إلى ذلك ملكة أدبية خصبة وقدرة بارعة فى اختيار الكلمات وبث نسق صوتى بديع فيها: نسق يقوم على حسن الأداء واكتمال الجرس فيه حتى يبهر السامعين ويخلبهم

بجمال لغته المصفاة العذبة. وقد يبدو فى أساليبه وكلامه شيء من التكرار، وكان بعض رفاق الفتى يلاحظ ذلك فكان الفتى يراجعهم فيه محاولاً أن يلفتهم إلى أن تكراره ليس تكرارًا لفظيًا، كما قد يتبادر إلى بعض من يسمعونه أو يقرءونه؛ بل هو تكرار معنوى لا يزال يدخل عليه إضافات ذهنية وخواطر عقلية بحيث يترابط بناؤه ويرتفع كصرح مشيد دون أى خلل أو نقص أو عوج بل مع النسق الصوتى الفريد، ومع المتاع بالفكر الخصب الذى يعنى أشد العناية بالكليات ـ أو بعبارة أخرى الفكر الثرى الذى يستطيع أن يستخلص ـ دائمًا ـ من الجزئيات الحقائق الكلية الكبرى، مع عرضها فى صور وهيآت تجليها وتدفع دفعًا إلى تمثلها عن اقتناع. وقد يكون إعجاب الفتى بمحاضرات أستاذه وما كان يوفر لها من جرس صوتى بديع سببًا من أسباب عنايته بأسلوبه وانتخاب ألفاظه، وربما كان يتأثر أستاذه طه حسين ـ أيضًا ـ فى عنايته بالكليات فى كتاباته؛ إذ يحرص فيها ـ دائمًا ـ على التحول بما يقرأ من الدقائق والجزئيات إلى الكليات العامة.

وكان مصطفى كمال ماضيًا ـ منذ إسناد رياسة الجمهورية التركية إليه ـ فى تغريب تركيا أو جعلها جزءًا من الغرب متخذًا إلى ذلك كل وسيلة، حتى يحدث ثورة اجتماعية كبرى ـ كما أسلفنا ـ فى بلاده؛ من ذلك أنه أصدر قانونًا بأن يكون لكل أسرة تركية لقبها الخاص مما جعل الجمعية الوطنية الكبرى تطلق عليه لقب «أتاتورك» ومعناه أبو الترك، عرفانًا بجميله فى تحرير البلاد والنهوض بها.

ومن هذا التغريب لتركيا أن مصطفى كمال أمر بخلع الترك للطربوش شارة زيهم واتخاذهم الزى الغربى والقبعة إعلانًا منه بأنه لا رجعة فى هذه الحركة. وكانت المرأة التركية قد اقتحمت ميادين العمل منذ قيام الجمهورية، فدفعها فى هذا الطريق حتى أصبحت على قدم المساواة مع الرجل فى جميع الحقوق. وفى ربيع هذا العام: ١٩٣٥ جعل لها حق الاقتراع فى الانتخابات حقًا مشروعًا، ودخلت الجمعية الوطنية الكبرى لأول مرة سبع عشرة نائبة.

وأقبلت أيام الامتحان النهائى - امتحان الليسانس - ولا يزال الفتى يذكر من الامتحان وأيامه طرائف منها: أنه فى ليلة امتحان الفارسية حلم أنه فى محل كبير لبيع سجاجيد إيرانية وأنه اشترى منه ثلاث سجاجيد، وعجب إذ رأى إحداها مقطوعة فى أحد جوانبها، واشتراها بهذا العيب، واستيقظ من حلمه دون أن يلتفت إليه، وذهب إلى الامتحان ووزعت أوراق الأسئلة وتناول ورقته ووجدها ثلاثة أسئلة وأجاب عليها حتى إذا خرج من الامتحان عرف أنه أجاب إجابة كاملة عن سؤالين، أما السؤال الثالث فعرف أن إجابته عليه ناقصة وظهرت النتيجة وعرف أنه اخذ فى اللغة الفارسية وأدبها ست عشرة درجة من عشرين وكانت أقل درجاته من حيث نسبتها المئوية؛ وحينئذ تذكر حلمه، وتعجب من هذا الاتفاق بين الحلم والحقيقة، وهو ممن لا يؤمنون بالأحلام، مما جعله يعتقد أن هذا مجرد اتفاق حدث لخوفه من الامتحان فى هذه المادة.

ودخل امتحان البلاغة ووجد بين الأسئلة سؤلاً عن ترتيب البلاغيين لصور التشبيه من حيث قيمتها البلاغية، وهم يجعلونها ثمانى منازل أو ثمانى درجات يعلو بعضها فوق بعض بلاغيًا، ومن الصعب أن يذكرها الطالب ويضعها مرتّبة حسب منازلها الدقيقة، فماذا يفعل الفتى؟ لقد رأى أن يذكر فى إجابته الأسس التى رتبت عليها هذه المنازل مع بيان أنها لا تفى ببيان درجات التشبيه وقيمتها البلاغية ثم وضع للتشبيه وأمثلته ترتيبًا بلاغيًا جديدًا.

ولقى أستاذ البلاغة الفتى فقال له لقد اعتبرت إجابتك عن هذا السؤال كاملة وقد أخذت أعلى درجة بين رفاقك. ولا ينسى الفتى إعجاب أستاذ الفلسفة الإسلامية بإجابته فى مادته، وكان عادة يسأل سؤالاً واحدًا يشغل الطلاب مدة الامتحان المقررة، وكانت ثلاث ساعات، وكان قد قرأ إجابته وأعجب بها، ولقيه قائلاً له: لقد حققت ظنى.

ولا يزال التى يذكر امتحانه الشفوى فى الأدب، وكانت اللجنة مؤلفة من طه حسين وأحمد أمين، وكان قد ظهر للأخير قبيل الامتحان بأشهر معدودات كتابه «ضحى الإسلام» وقرأه الفتى قراءة متأنية، وكان قد بسط فيه الحياة الاجتماعية بوجهيها المادى والمعنوى والحياة الثقافية بكل جداولها الإسلامية والعربية والأجنبية، مصورًا ما أخذه العرب عن الفرس والهند واليونان وأهل الكتب السماوية. وسأل طه حسين الفتى: هل اطلعت على هذا الكتاب؟ وأجابه: نعم، حنيئذ أخذ يتسع معه فى مناقشة جوانبه

وفى مدى اطلاعه على مصادره وكان من المصادر التى خصها بسؤاله كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيرونى، فبمجرد أن ذكره الفتى سأله عن مؤلفه وعن عصره الذى عاش فيه وعن محتوياته، وكان قد تصادف أن اطلع عليه الفتى فى مكتبة الجامعة.

وأخذ الفتى يحاول الإجابة عن أسئلة أخرى لطه حسين تتصل بالكتاب، وأعطاه أحمد أمين جزءًا من كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى، وقد فتح له صفحة فيه، وسأله أن يقرأ ما فيها من شعر، وكان مقطوعة منسوبة إلى شاعر جاهلى، وقرأها الفتى قراءة حسنة فيما يبدو لأنه لم يراجع فى قراءته، وأخذ طه حسين يسأله عن صياغتها وعن معانيها، ثم سأله عن مدى اقتناعه بأنها حقًا جاهلية، وأخذ الفتى يحاول نقد صياغتها ومضى يبرهن على ما يقول من لغتها وأسلوبها، وقال طه حسين لصاحبه مبتسمًا: لقد أكثرنا على الفتى من الأسئلة وحسبه ذلك. وكان الامتحان قد استغرق من الوقت نحو ثلاثة أرباع ساعة، وشعر الفتى كأنما أرضى أستاذيه الكبيرين.



٨

تخرج الفتى فى شهر مايو من سنة ١٩٣٥ وقد تجاوز سن الفتوة وحداثة الشباب، وكان السابق بين رفاقه، ورأى أن يزور أستاذه طه حسين فى منزله، فذهب إليه، ووجده كأنما كان فى انتظاره، وبعد أن هنأه على تفوقه فى الامتحان سأله أى عمل تريد أن تعمل فيه؟ فتلعثم الشاب ولم يدر ماذا يقول، وسرعان ما طلب طه حسين من سكرتيره أن يسأل هاتفيًا عن مدير إدارة المطبوعات بوزارة الداخلية وردَّ المدير، وحدثه طه حسين مقدمًا له تلميذه آملاً أن يكون فى إدارة المطبوعات وظيفة خالية له، ووعده المدير بتدبير الوظيفة، وسافر طه حسين إلى أوروبا كعادته لقضاء الصيف بها، ولم يكتب للشاب أن يعين فى الوظيفة المبتغاة؛ إذ كانت مصر حينئذ تمر منذ أيام صدقى المشؤمة بأزمة اقتصادية خانقة، وكانت أبواب الوظائف مغلقة أمام الخريجين فى الجامعة وخاصة فى الكليات النظرية.

ورأى الشاب أن يزور أستاذه الشيخ مصطفى عبدالرازق، وقد لقيه فى منزله لقاء كريمًا، ولم يكن منزلاً أو قصرًا للأسرة فحسب، بل كان - أيضًا - منتدى كبيرًا يجمع الأزهرى العصرى والمثقف ثقافة قديمة والمثقف ثقافة حديثة والوزير وغير الوزير من رجال الفكر والقلم. وكان أستاذه كوكب هذا النادى بما يجمع من الثقافة الحديثة والفكر الجديد مع التمسك الشديد بالشريعة الإسلامية وروح الإسلام.

وكل من عاش هذه الحقبة فى تاريخ مصر يعرف ما كان لهذا المنتدى من التأثير الواسع فى الفكر المصرى حينئذ، فلما ألم به الشاب راعه وقار المجلس ومن فيه، ولاحظ ذلك عليه أستاذه، فأخذ يتلطف إليه وبلغ من تلطفه أن كان حين يعرف جلساءه به واحدًا بعد واحد يذكر لهم منصبًا جامعيًا رفيعًا آملاً أن يشغله الشاب بعد حين، وأخذ يقترب منه فى الحديث مع أدب بالغ حتى يدنيه منه وحتى يرفع عنه ثقل ما أحسه فيه من كلفة، حتى إذا رأى الشاب الانصراف ضرب له موعدًا آخر يلتقى به.

ولم يكن هذا اللقاء الكريم للشباب شيئًا آثره به الشيخ مصطفى عبدالرازق؛ فقد كان يلقى تلاميذه جميعًا هذا اللقاء الباش البار، وإن الشاب ليذكر ذلك كأنه بالأمس ويذكر معه لطف أستاذه طه حسين - بل لطف أساتذته جميعًا - فى لقائه إذ لم يكونوا أساتذة لتلاميذهم - فقط بل كانوا - أيضًا - آباء يمتلئون لهم برًا وعطفًا. ولا يذكر الشاب أنه لقى أحدًا منهم إلا كان طلاقة وجه مجسدة

ومؤانسة ومودةً، وبفضل هذه المنزلة التى كانوا يرفعون إليها تلاميذهم، وبفضل الثقة التى كانوا يضعونها فيهم، وبفضل ما غرسوه فى نفوسهم من مثل عليا؛ استطاع تلاميذهم أن يحققوا على الأقل بعض ما كانوا يؤملونه فيهم من شغف بالبحث والدرس.

وأقبل العام الدراسى الجديد فى الجامعة وانتسب الشاب فيه إلى قسم الماچستير، وكانت الصحف - وكذلك الأمة - لا تزال تضغط على محمد توفيق نسيم حتى يعيد دستور ١٩٢٣ وإذا صموئيل هور «وزير» الخارجية البريطانى يصرح فى التاسع من نوفمبر بأن حكومته نصحت الحكومة المصرية ألا تعيد هذا الدستور لأنه غير صالح؛ وبذلك بدا للأمة ولشباب الجامعة أن الإنجليز يتدخلون علانية فى شأن الدستور وشئون الشعب الداخلية، حتى إذا كان اليوم الثالث عشر من نوفمبر يوم عيد الجهاد ثارت مظاهرات عنيفة ضد الإنجليز الغاشمين، واستمر ذلك فى اليوم التالى وخرجت جامعة فؤاد (القاهرة الآن) ثائرة، واتجهت من ساحتها إلى القاهرة لا يثنى جموعها الرصاص ولا إطلاق النار، وسقط شهيدًا عبدالحكيم الجراحى من طلبة كلية الآداب ومحمد عبدالمجيد مرسى من طلبة كلية الزراعة. وتكررت المظاهرات فى الأيام التالية وسقط فى ميادين الجهاد شهداء عديدون. وتظل مصر ثائرة غاضبة، حتى إذا كان اليوم الثامن والعشرون من نوفمبر عم الإضراب فى الجامعات والمدارس واحتجبت الصحف وأغلقت المتاجر والمصانع وعطلت الأعمال، ولبست القاهرة ثياب حزن رهيب وحداد أليم على أبنائها الشهداء

الأبرار، وشاد طلاب الجامعة فى فنائها نصبًا تذكاريًا لشهدائنا تخليدًا لذكراهم العطرة، وحفروا أسماءهم على قاعدته، حتى لا تتساهم الأجيال القادمة أبدًا، وفى اليوم السابع من ديسمبر أزاحوا الستار عن النصب فى احتفال مهيب، واندفعوا إلى القاهرة فى مظاهرة كبرى يهتفون بسقوط الاحتلال وإعادة دستور سنة ١٩٢٣.

وكان الطلاب قد أخذوا يسعون - منذ شهر نوفمبر - إلى عودة الائتلاف بين الأحزاب كما حدث فى سنة ١٩٢٥ حتى تسترد مصر دستورها وحقوقها السياسية المغتصبة، وكللت مساعيهم بالنجاح فى شهر ديسمبر فائتلفت الأحزاب وتكونت منها جبهة وطنية للمطالبة بعودة دستور سنة ١٩٢٣ وإجراء انتخابات حرة والعمل على عقد معاهدة مع الإنجليز، وسرعان ما أعيد الدستور فى الثانى عشر من ديسمبر استجابة لمطلب الجبهة الوطنية، وأظهرت الأحزاب أنها لا ترضى عن وزارة محمد توفيق نسيم، فقدم استقالته فى يناير، وألف على ماهر بعده الوزارة.

وبينما كان الشاب يحضر فى مساء أحد الأيام محاضرة لأستاذه طه حسين كان يلقيها على طلبة الماچستير؛ إذا أحد رفاقه يطلب إلى أستاذه أن يساعده فى تعيينه بمجمع اللغة العربية، ولم يكن طه حسين عضوًا فيه حتى هذا التاريخ، وفوجئ بطه حسين يقول لرفيقه: إن زميلك فلانًا رشح فعلاً لوظيفة محرر بالمجمع اللغوى، ولم يكن فلان سوى الشاب، وكان لا يعرف ذلك، فتقدم إلى أستاذه شاكرًا فقال: لست أنا الجدير بالشكر لأنى لم أرشحك لهذا العمل

إنما الذى رشحك له الشيخ أحمد الإسكندرى أستاذك الذى عرفك أثناء محاضراته فى القسم حين خرجت منه، فهو الذى اختارك لمعرفته السابقة بك حين كان يدرس لك.

وكان الشيخ أحمد الإسكندرى عضوًا بارزًا فى المجمع، فذهب الشاب إليه شاكرًا، ولقيه لقاء كريمًا، وقال له ينبغى أن تمضى توًا إلى مراقب المجمع - وكان الشيخ عبدالعزيز البشرى الأديب المعروف - وتتسلم منه العمل، وذهب الشاب إليه وتسلم العمل، وانتظم فى المجمع يذهب إليه يوميًا، ولم يسند إليه عملاً يملأ به فراغ الساعات التى يمضيها فيه؛ إذ كانت أعمال المجمع لا تزال محدودة، وكان به مكتبة غنية بالكتب ودواوين الشعر القديمة والحديثة فجعلها مرتاده اليومى.

وكان يقرأ حينئذ فى كتب النقد الغربى، فرأى أن يضم إليها كتب النقد العربى، واستطاع أن يحول ما بها من ملاحظات نقدية إلى جذاذات أو وريقات بادئًا بالجاحظ ومنتهيًا بابن الأثير، ومن هذه الجذاذات ألف - فيما بعد - كتابًا عن النقد العربى، وكتب مقالات مختلفة فى بعض المجلات الأدبية عن نقاد العرب المهمين.

وكان فى المكتبة دواوين للشعراء المهاجرين إلى أمريكا الشمالية والجنوبية من أمثال جبران وفوزى المعلوف وأخيه شفيق، فأكب عليها يقرؤها، وكان قد بدأ التعرف على هؤلاء الشعراء حين كان صبيًا فى دمياط يختلف إلى دكان جاره التاجر اللبنانى ولكن

بونا بعيدًا بين التعرف الجديد على هؤلاء الشعراء الذين هاجروا إلى أمريكا الشمالية والجنوبية والتعرف القديم؛ إذ اتسعت مداركه وثقافته وعرف المذاهب الأدبية الغربية الحديثة وخاصة المذهب الرومانسى الذى تنعكس منه إشعاعات كثيرة على أولئك الشعراء.

وكان من أول ما عنيت به وزارة على ماهر تأليف وفد للمفاوضات مع المندوب السامى البريطانى ومعاونيه، وتألف الوفد برياسة مصطفى النحاس، وفى الثامن من شهر مارس بدأت المفاوضات فى قصر الزعفران بالقاهرة، وبينما كان على ماهر يعد العدة للانتخابات فى أول مايو توفى فؤاد ونودى بابنه فاروق ملكًا، وأُلِّفَ له مجلس وصاية ظل نحو سنة وثلاثة أشهر؛ إذ لم يكن قد بلغ سن الرشد.

وأجريت الانتخابات فى اليوم الثانى من مايو سنة ١٩٣٦ وفاز الوفد فيها بأغلبية ساحقة، وألف مصطفى النحاس رئيسه الوزارة وكانت وفدية خالصة. وكانت المفاوضات مع السفير البريطانى مستمرة وانتقلت فى أواخر يولية إلى قصر أنطونيادس بالإسكندرية، وانتهت بوضع مشروع لمعاهدة أقرتها وزارة الخارجية البريطانية سريعًا فى ٢٦ من أغسطس، وكان أهم ما جاء فيها تضييق مناطق احتلال بريطانيا لمصر مع احتفاظها بعشرة آلاف جندى فى قناة السويس، واستعدادها لإلغاء مصر الامتيازات الأجنبية، وأن تضع مصر فى حالة نشوب حرب جميع مواردها تحت تصرف بريطانيا وأن إدارة السودان تحت إمرة حاكم بريطانى عام.

وكان طه حسين قد انتُخِب عميدًا لكلية الآداب، وفى العام الدراسى الجديد ١٩٣٦/ ١٩٣٧ رأى أن تأخذ الكلية بنظام المعيدين لأول مرة فى تاريخها الجامعى، واختارت أقسام اللغة العربية والفلسفة والدراسات القديمة بعض خريجيها ممن أثبتوا تفوقًا فى الدراسة حتى يعدوا إعدادًا علميًا حسنًا، وكان الشاب من بين من اختارتهم الكلية، وكلف بالمحاضرة لمجموعة من فصول السنة الأولى الإعدادية فيها، وكانت محاضراته تتناول جوانب من النقد الأدبى.

ولا يزال الشاب يذكر نادرة حدثت له فى إحدى محاضراته الأولى؛ إذ كان عدد الآنسات لا يزال قليلاً فى المحاضرات، وجرت العادة حينئذ أن يجلسن فى مقدمة الصفوف ويجلس الطلاب خلفهم، ودخل الشاب المحاضرة، فرأى الطالبات منتثرات فى المدرج والطلاب يجلسون فى مقدمة الصفوف دون أى حساب للطالبات، وأحس الشاب فى ذلك خروجًا على التقليد المتبع، فنبه الطلاب إلى خطئهم فى هذا السلوك، وأنه ينبغى - دائمًا - أن يتركوا الصفوف الأولى للطالبات كما يصنعون فى بقية المحاضرات.

وفى المحاضرة التالية فوجئ بترك الطلاب للصفوف الأولى للطالبات وهن يجلسن فيها، غير أنهم تركوا وراءهن طائفة أخرى من الصفوف خالية، ومنهم من ذهب إلى أعلى المدرج، فطلب منهم أن يهبطوا من أماكنهم، وتردد نفر منهم فى الاستجابة إليه، فبدأ يلقى محاضرته بصوت خفيض فجاءوه وهم يبتسمون.

وتعود منذ الدرس الأول له فى الجامعة أن يمضى فى محاضرته حتى انتهائها دون أن يخرج عن موضوعها أو ينطق بكلمة خارجة عنها، فلم يحدث أن ذكر نكتة أو نادرة لطلابه، ومن أكبر الغلط - فى رأيه - أن يشغل معيد أو مدرس أو أستاذ جزءًا من محاضرته بفكاهة يعن له أن يحكيها للطلاب أو أن يقص عليهم حادثة وقعت له أو ذكرى من ذكريات ماضيه فى الدراسة استجمامًا أو استرواحًا... وحقًا قد يصفق له الطلبة استحسانًا ولكنه استحسان وقتى إذ سرعان ما ينكرون ذلك على محاضرهم. وأخطر شىء أن يصبح ذلك عادة للمحاضر فتلتصق به فى محاضراته ولايستطيع منها خلاصًا، وليس من ريب فى أن من حق الطلاب فى الجامعة على المحاضر فى أى موضوع أن لا يشغلهم بشىء سواه حتى يَطَّرد نسقه فى أذهانهم، وحتى يتضح لهم نهجه فيه ومقدماته ونتائجه اتضاحًا تامًا.

وكانت الوزارة الوفدية برياسة النحاس تحكم البلاد وتصرف شئونها طوال هذا العام الدراسى وكل شىء بيدها مقاليده وزمامه، ويذكر لها حينئذ أنها نقلت رفات سعد زغلول إلى الضريح الذى بنى له بجوار بيت الأمة - بيته وبيت قرينته العظيمة - كما يذكر لها أنها دعت فى شهر أبريل الدول صاحبة الامتيازات الأجنبية فى مصر إلى مؤتمر عقد فى منترو بسويسرا وانتهى فى مايو بإعلان الدول المذكورة إلغاء الامتيازات الأجنبية فى مصر إلغاء تامًا.

وبينما البلاد مستجيبة للنحاس ووزارته الوفدية إذا هو يحول تشكيلات للشباب موالية له إلى فرق سياسية وفدية سماها أو

سميت فرق القمصان الزرقاء، وسرعان ما استحالت فرقًا إرهابية لخصوم الوفد؛ فهى تعتدى على اجتماعاتهم وعلى صحفهم، وكان ذلك خطأ كبيرًا من النحاس إذ أصبحت حرية الرأى السياسى مهدرة.

وشغل الشاب فى هذا العام باختيار موضوع لرسالة الماجستير، واختار لرسالته نشر كتاب من كتب التراث النقدى القديم، وأخذ يحاول إعداده، مع انتظاره لمصورات مخطوطات منه مبثوثة فى مكتبات إستانبول. ودار العام الدراسى وحل عام دراسى جديد دون أن تأتيه تلك المصورات، فرأى أن يختار للماجستير موضوعًا جديدًا هو النقد الأدبى فى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى، ويعد الكتاب أهم مرجع للشعر العربى وشعرائه من العصر الجاهلى حتى نهاية القرون الثلاثة الأولى للإسلام، ويموج بملاحظات اللغويين والشعراء والنقاد على الشعر، وهو فى واحد وعشرين مجلدًا، وكأنما استهوته مجلداته الكثيرة.

وكان النحاس قد سار فى وزارته سيرة حزبية تقوم على كثرة الاستثناءات فى تعيين الموظفين من أنصاره وترقيتهم سريعًا مفتاتًا على القوانين الحكومية دون مراعاة لأية كفاءة، وساء ذلك وفديًا كبيرًا هو محمود فهمى النقراشى، كما ساءه استخدام فرق القمصان الزرقاء فى كبح المعارضة السياسية للنحاس، فأصدر بيانًا فى سبتمبر دعا فيه النحاس ووزارته إلى النزول على إرادة المصريين فى المساواة بينهم وفى احترام آرائهم السياسية، وطالب بحل فرق القمصان الزرقاء.

وأجاب الوفد على هذا البيان بفصل النقراشى منه فى سبتمبر، ولم يوافق أحمد ماهر رئيس مجلس النواب على هذا القرار وأيد النقراشى فى موقفه بعض الوفديين. وبدا كأن انشقاقًا كبيرًا سيحدث فى حزب الوفد، وانتهز القصر الفرصة فى آخر ديسمبر وأقال النحاس، وألف الوزارة فى نفس اليوم محمد محمود. ولم يلبث الوفد أن فصل أحمد ماهر فى أوائل يناير لتضامنه مع النقراشى، وانضم إليهما بعض الشخصيات الوفدية، وكونوا حزبًا جديدًا باسم «الهيئة السعدية» جعلوا رياسته لأحمد ماهر.

أما محمد محمود فبدأ بتأجيل انعقاد البرلمان الوفدى شهرًا، وفى الشهر التالى حل مجلس النواب، وحدد شهر أبريل لاجتماع المجلس الجديد، وأجرى الانتخابات، ففاز حزب الهيئة السعدية بثمانين مقعدًا، مما دفعه إلى التعديل فى وزارته وإشراك حزب الهيئة السعدية فيها مع حزبه الدستورى، وفى عهد هذه الوزارة تقرر إنشاء جامعة الإسكندرية كما تقرر فى أواخر أغسطس إزاحة الستار عن تمثالى سعد زغلول بالقاهرة والإسكندرية.

وظل الشاب فى العام الدراسى الجديد ١٩٣٨/١٩٣٩ منهمكًا فى إنجاز رسالته التى يعدها للحصول على درجة الماجستير، وكان قد استخرج ما فى كتاب الأغانى من نقد، ومضى يكمل فصولها وطبعها. وفى شهر يناير نوقش فيها ونال الدرجة المأمولة. وحمد الله كثيرًا أن وُفِّق لاختيار هذا الموضوع؛ لا لما ظفر فيه بنتائج علمية فى النقد الأدبى العربى القديم فحسب؛ ولكن - أيضًا - لأنه

أتاح له أن يقرأ فى بواكير حياته العلمية الجامعية أكبر مصدر للشعر العربى وشعرائه فى الحقب الأولى.

وبذلك سيطر مبكرًا على مادة هذا الشعر التاريخية والنقدية، وهى سيطرة مكنته - فيما بعد - أن يكتب فى الشعر العربى وشعرائه مؤرخًا تارة وناقدًا تارة أخرى، ولو أنه لم يتح له أن يقرأ هذا الكتاب بمجلداته الضخام التى تتجاوز عشرين مجلدًا لظل الشعر العربى بتاريخه القديم الطويل محجوبًا عنه، ولا لذوى فى عصر أو ركن منه يبحث فيه لا يعدوه، أما وقد قرأ هذا الكتاب فإن أبواب هذا الشعر فتحت له ولم توصد أبدًا فى وجهه، مما أعطاه فرصة بل فرصًا كبيرة كى يبحث فيه بحوثًا كثيرة لا يقف فيها عند عصر بعينه دون غيره من العصور أو بيئة بعينها دون غيرها من البيئات.

وعقب امتحان الماجستير عرض طه حسين على الشاب موضوعًا للحصول على درجة الدكتوراة هو: التكلف الشديد فى الشعر العباسى فى القرن الرابع الهجرى، وطلب إليه أن لا يبت فى قبول الموضوع قبل أن يعرضه على هذا الشعر وشعرائه وأن يظل فى هذا العرض حتى العام الدراسى الجديد؛ إن رآه جديرًا بالبحث ورأى المادة العلمية فيه وافرة اشتغل به، واتخذه موضوعًا لرسالته وإلا انصرف عنه وعلى هذا النحو لم يكن طالب الدكتوراه يسجل موضوعًا لنيل درجتها بمجرد التفكير فيه وما يتبادر إليه من أنه صالح لدراسته بل كان يطلب إليه أن يظل أشهرًا معدودات يَسْبُر

الموضوع المقترح لرسالته ويختبره..؟ لتتضح له أغواره وتستبين له مادته، وهل هى خصبة أو غير خصبة. ولو أنك قلت الآن ذلك لطالب يعرض موضوعًا للحصول على درجة الدكتوراة لعده شيئًا عجيبًا..! وليس عجيبًا ولا غريبًا بل إن ذلك ينبغى أن يكون ـ دائمًا ـ تقليدًا لطالب الدكتوراه قبل أن يسجل موضوعه نهائيًا ويتقيد ـ ويقيد القسم ـ به حتى لا يتبين له ـ فيما بعد ـ أنه تسرع وأنه كان عليه أن يتمهل تمهلاً يقيه الندم أو ما يشبه الندم.

وظل الشاب يقرأ فى شعراء القرن الرابع الهجرى من أمثال المتنبى ومهيار وأبى العلاء، وقرأ فى الشعراء السابقين لهم من أمثال البحترى وأبى تمام، حتى إذا كان مفتتح العام الدراسى الجديد لقى أستاذه بعد عودته من أوروبا، وكان معتادًا تمضية الصيف بها سنويًا، فقال للشاب: ماذا صنعت؟ أجابه: إننى قرأت شعراء كثيرين، وأخذ الموضوع يتضح فى نفسى، غير أنى أرى إحداث تعديل فيه ليكون دراسة لفن الشعر العربى منذ ظهوره إلى العصر الحديث؛ فقد لاحظت أنماطًا من التصنع أو التكلف الشديد عند شعراء القرن الرابع وما بعده، وأنه سبق هذه الأنماط مذهبان فى صناعة الشعر ونظمه: مذهب كان يقوم على التصنيع أو التنميق الحسى والمعنوى، فالشعر ينبغى أن يكون محسنات عقلية وبديعية، ومذهب ثان كان يقابله وهو أقدم منه هو: مذهب الصنعة أو الجهد الذى لابد منه فى أى عمل شعرى... وارتضى طه حسين من الشاب هذا التصور للموضوع.

وكانت قد حدثت فى الصيف بعض أحداث سياسية تتصل بالوزارة فإن القصر طلب إلى رئيسها محمد محمود فى أغسطس سنة ١٩٣٩ أن يقدم استقالته، وقدمها راغمًا، وألف الوزارة بعده على ماهر، ولم يدخلها أحد من الأحزاب، وكانت الحرب العالمية الثانية على الأبواب، فطلب إليه الإنجليز إعلان الأحكام العرفية فأعلنها فى أول سبتمبر.

واشتعلت الحرب بين الحلفاء وألمانيا، وشُغل الناس وشغلت الصحف بأخبارها، حتى إذا كان شهر أبريل سنة ١٩٤٠ قدم الوفد إلى الحكومة البريطانية مذكرة شديدة اللهجة، مطالبًا بأن تعلن إنجلترا توا: أنه بمجرد أن تضع الحرب أوزارها ستسحب قواتها من مصر، وتلغى الأحكام العرفية التى جلبتها الحرب، وتعقد مع مصر معاهدة تكفل لها حقوقها فى السودان... ولم يتضح أثر لهذه المذكرة. وفى شهر مايو أقامت وزارة على ماهر احتفالاً كبيرًا أزاحت فيه الستار عن تمثال مصطفى كامل المقام فى ميدانه بشارع قصر النيل.

ولم يلبث على ماهر أن قدم استقالته فى شهر يونية، وألف الوزارة بعده حسن صبرى، واشتركت الأحزاب معه فيها ما عدا حزب الوفد، واستطاعت وزارته أن تنهض بعمل خطير فى الشهر التالى لتوليها الحكم هو إلغاء صندوق الدين الذى فرضته أوروبا على مصر فى عهد الخديوى إسماعيل لوضع رقابة أوروبية على شئونها المالية وظل وصمة فى جبين حكام مصر حتى ألغته وزارة حسن صبرى.

ولم تطل أيام حسن صبرى؛ إذ توفى فى شهر نوفمبر، فألف الوزارة بعده حسين سرى، واشترك معه فى وزارته حزب الأحرار الدستوريين، وفى عهد هذه الوزارة كثرت الغارات الجوية خاصة على الإسكندرية، وأنشأت بها الدولة مخابئ كثيرة، وبالمثل فى القاهرة وبعض المدن الكبرى. وفى أواخر يولية سنة ١٩٤١ قبلت الهيئة السعدية الاشتراك مع حسين سرى فى وزارته، ودخلها منهم خمسة وزراء .

وكان الشاب فى هذه الأثناء يقصر اهتمامه على رسالته التى يعدها للحصول على درجة الدكتوراة بوضع المذاهب الفنية للشعر العربى على مر العصور، وظل يعنى بجمع مادتها من دواوين الشعراء على اختلاف بيئاتهم وتفاوت عصورهم، ومن تراجمهم المبسوطة فى كتب الشعر العربى وتاريخه عند القدماء والمحدثين من العرب والمستشرقين، ومن كتابات نقاد العرب والغرب فى النقد الأدبى وما نثروه من ملاحظات كثيرة على فن الشعر وصناعته... حتى إذا كان العام الدراسى الجامعى الجديد: ١٩٤٠/١٩٤١ ذكر لأستاذه طه حسين أنه ماض فى كتابة رسالته، وحبذا لو بدأ يقرأ فصولها معه، وسر أستاذه، وجعل له يومًا معينًا فى كل أسبوعين هو يوم الخميس، وساعة معينة هى الساعة التاسعة وكان يذهب إلى أستاذه فى الموعد المحدد فيجده دائمًا فى انتظاره.

وما إن استمع طه حسين إلى الفصل الأول من فصول الرسالة حتى أخذ يثنى على الشاب وعلى رسالته فى اجتماعات قسم اللغة العربية، وكلما مضى الشاب فى قراءة فصول رسالته على أستاذه

ازداد ثناؤه، وهو ثناء كان يجعل الشاب يزداد تجويدًا ودأبًا فى رسالته باذلاً لها كل ما يستطيع من جهد ومشقة حتى يرضى أستاذه وحتى يكون مستحقًا لثنائه.

وإن الشاب ليذكر - دائمًا - هذا الثناء الكريم، وكيف كان يدفعه دفعًا إلى مضاعفة جهده حتى لينجز رسالته - منذ تسجيلها - فى نحو عام ونصف؛ وطه حسين بذلك كان أستاذًا مشرفًا على رسالة الشاب بالمعنى الدقيق لإشراف الأساتذة، بحيث يستخرج من تلميذه كل ما عنده من طاقة ومقدرة.

ومن طريف ما يذكره الشاب عن أستاذه فى هذه الفترة التى كان يعد فيها رسالته أنه غدا عليه ذات يوم لقراءة فصل من فصولها فسأل الأستاذ التلميذ عن محاضرة له كان قد ألقاها فى الجامعة الأمريكية فأجابه: «كانت محاضرة طيبة»، فقال له متعجبًا: «طيبة فقط» فقال التلميذ لأستاذه: كل ما تلقيه من محاضرات رائع! فاستغرق طه حسين فى الضحك طويلاً، واضعًا إحدى يديه على الأخرى ثم قال له: ما رأيك فى أننى ظللت أعدُّ هذه المحاضرة فى نحو شهر أقرأ لها كتبًا مختلفة، حتى استوعبت موضوعها وألقيت فيه المحاضرة التى سمعتها.

وخجل التلميذ من أستاذه لأنه لم يكن يطرأ على باله أن يعنى بالإعداد لمحاضراته العامة كل هذه العناية، وخاصة أنه كان يمتاز ببراعة فائقة فى الأداء، براعة لم تتح لأى محاضر فى أيامه. وكان لا يذكر إسمه وأنه سيلقى محاضرة عامة فى أى مكان حتى ينطلق

إليه الجمهور يريد أن يستمع إلى بيانه المصفى، وما يكاد صوته يرتفع بهذا البيان حتى تصغى إليه القلوب والألباب.

وكان ذلك درسًا رائعًا للتلميذ ليعلم بل ليستقر فى نفسه أنه لا يوجد عمل أدبى - محاضرة أو غير محاضرة - جدير بالتقدير مهما صغر حجمه دون أن يكلف صاحبه مؤنة مجهدة ومشقة متعبة، حتى طه حسين صاحب البيان الساحر الذى كان يخلب به مستمعيه يتحمل جهدًا مضنيًا لا فى بحوثه الطويلة وكتبه فحسب، بل - أيضًا - فى محاضراته.

وكان التلميذ يكثر من ذكر ذلك لرفاقه بأستاذه ودأبه فى السعى إلى مثله العليا فى كل قول يلقيه، وكل بحث يمليه، ملحًا - دائمًا - فى هذا السعى، مع ما اكتسب حينذاك من المجد الأدبى. وكان من الطبيعى للتلميذ أن يقتدى بأستاذه فى السعى العلمى المتصل، وأن يحاول بكل ما يستطيع من جهد وعناء شاق إتقان رسالته.

وبلغ من تقدير طه حسين لرسالة الشاب أن أذن له بالابتداء فى طبعها حين أوشك على الانتهاء منها وعادة لا يؤذن للتلميذ بطبع رسالته التى يعدُّها لدرجة الدكتوراه إلا بعد قراءة الأستاذ المشرف لكل فصولها، وكأن طه حسين أراد أن يصور لتلميذه تقديره لما سمع من فصول رسالته وأنه أصبح واثقًا من نفوذه إلى غايته منها فى منهج سديد وطريق قويم.

وبدأ الشاب يطبع ما قرأه على أستاذه من فصول الرسالة من جهة ويكتب ويقرأ ما بقى منها عليه من جهة ثانية، حتى إذا أتم

طبعها قدمها إلى الكلية مع خطاب من طه حسين لتكوين لجنة المناقشين، وكانت حينئذ تتكون من خمسة أساتذة منهم الأستاذ العميد. ونوقشت الرسالة مناقشة علنية فى أواخر شهر يناير، وغص المدرج رقم ٧٨ الذى عقدت فيه المناقشة بكلية الآداب بحشد كبير من الطلاب والجمهور حتى لم يكد يبقى فيه مكان لقدم..! وفى أثناء تلخيص الشاب لرسالته حانت منه التفاتة فوجد أباه الشيخ واقفًا مع عشرات من الطلاب مكدسين فى مدخل المدرج ولم يكن أنبأ أباه بيوم امتحانه، غير أن أباه قرأ خبرًا عنه فى الصحف صباحًا، فسافر إلى القاهرة توًا، واتجه إلى الجامعة، فسمع ابنه - وهو لا يزال على أبواب الجامعة الخارجية - يلقى تلخيص بحثه! وما أعجب الآباء...! إنهم يمنحون أبناءهم الحياة والوجود، ويمنحونهم أنفس ما يملكون.. يمنحونهم القلوب والأفئدة وكل ما تشتمل عليه الأفئدة والقلوب من الحب الخالص لا يبتغون عليه جزاءً ولا شكورا... ومهما صنع الأبناء لآبائهم، ومهما قدموا لهم من العون ومن الرفق والود وصفو الحياة فلن يستطيعوا أن يوفوهم حقوقهم، لا حقوق رعايتهم وتربيتهم فحسب بل - أيضًا - حقوق البر والرحمة والحنان والعطف والشفقة..

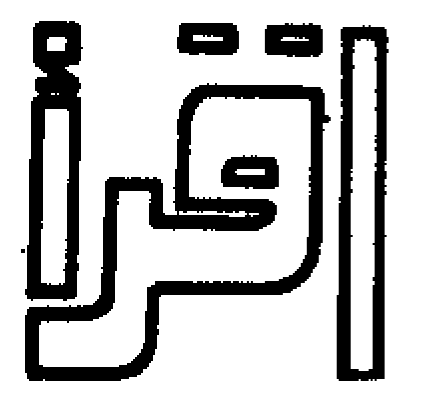
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٦٨٣ / ٢٠٠٣

I.S.B.N 977 - 01 - 8870 - 0



دكتور شوقي ضيف
معي ٢
ذكريات ومشاهدات
اقرأ



[٥٣٩]





دكتور شوقي ضيف



٢

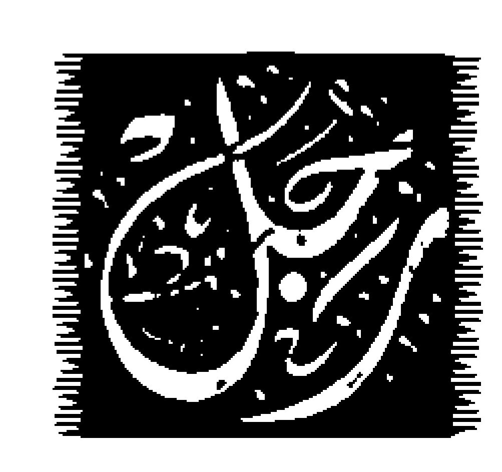
ذِكْرَيَاتٌ وَمُشَاهَدَاتٌ





دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج٠م٠ع٠



١

عُيِّن صاحبى - بعد حصوله على درجة الدكتوراه - مدرسا بقسم اللغة العربية فى آداب جامعة القاهرة سنة ١٩٤٢ وظل طوال نهوضه بالتدريس فى قسمه - يشعر بصلة صداقة وثيقة منعقدة بينه وبين تلاميذه أو طلابه، وطالما اعتدَّ بهذه الصداقة وعدَّها نعمة كبيرة من نعم الله عليه، وهى نعمة يمنّ الله بها على المدرسين الجامعيين دائما، إذ تجعلهم - مهما تكبَّدوا فى دروسهم وتدريسهم من عناء ومشقة - يحسون براحة ومتعة فى أدائهم لعملهم، معتقدين بينهم وبين أنفسهم - أن بين تلاميذهم مَنْ يقدرونهم ويحفظون لهم صنيعهم، بل من يودونهم ويجلّونهم نفس الإجلال والمودة اللذين ينعقدان بين الآباء والأبناء.

وربما كان ذلك أكبر جزاء معنوى يكافأ به مدرس الجامعة،

إذ تتوثق الصداقة بينه وبين نفر من تلاميذه، وكان صاحبى ينوه دائما بالصداقة، ويقول إنها تتفوق على جميع الخصال الإنسانية حتى على خصلة الحب التى طالما تغنّى بها الشعراء، محتجا لقوله بأن الحب يربط بين اثنين فقط ولا ثالث، ومن شأنه أن يقيد كلا منهما بصاحبه وأن يستغرقه فى خواطره، بحيث لا يفكر فى أحد سوى من أحبّه، فتفكيره منحصر فيه، وهو كل متاعه ونعيمه فى دنياه، وكأنما ليس للحب إلا باب واحد يفتح لمن آثره بحبه، ويغلق من ورائه إلى الأبد. أما الصداقة فتفتح الأبواب على مصاريعها لاستقبال غير واحد، وبعبارة أخرى لانعقاد الأواصر بين صديق ومجموعة من الأصدقاء. والحب بذلك أنانى مسرف فى أنانيته، والمحب كأنه معصوب العينين إذ لا يبصر فى الدنيا سوى من أحبه، وإنه ليملؤها عليه من جميع أقطارها بخلاف الصداقة فإنها لا تعرف الأنانية ولا الأثرة ولا الاقتصار على فرد واحد، إذ يستطيع الصديق أن يضم لصداقته فئة قليلة أو كثيرة من الأصدقاء، والصداقة بذلك أرحب من الحب وأوسع آفاقا كالشجرة الطيبة لا تزال تمد فروعها وأغصانها يمينًا ويسارًا فيستظل بها كثيرون ويطمئنون عندها ويستريحون. والصداقة

لا تمنح الصديق الراحة والطمأنينة فى الحياة فحسب، بل إنها كثيرا ما تساعد على تحمل مشاق الحياة وصعوباتها لا بالتسرية وحدها، بل أيضا بمدٍّ يَدِ العون. ومعروف أن الإنسان يلقى فى اجتيازه لمرحلة الحياة الطويلة عقاب وصعاب شتى، وليس سوى الصديق الذى يعينه فى اجتيازها، على الأقل بالنصيحة وشد الأزر.

ولم يكن صاحبى ينعم بصداقة تلاميذه فحسب، بل كان ينعم أيضا بصداقة أساتذته، إذ طالما أسبغوا عليه صداقتهم، وفى مقدمتهم طه حسين، وكانت فيه خصلة كريمة، هى الترحيب دائما بتلاميذه حين يزورونه فى منزله، وكان إذا رأى فى أحدهم - ممن يعدون معه رسائلهم العلمية - استعدادا وقدرة على متابعة البحث والنفوذ إلى بعض الآراء الطريفة شجعه وأطراه لزملائه وأساتذته. وكان ذلك يدفع تلاميذه إلى مضاعفة جهدهم ودأبهم فى البحث. وهو جانب مهم فى الأساتذة الجامعيين المرموقين الذين يشرفون على طلاب الدراسات العليا، إذ واجبهم أن يقرِّبوا منهم من يعملون بإشرافهم فى بحوثهم، وأن يملئوهم ثقة واعتدادا بأنفسهم وحماسة متقدة للنهوض بأعمالهم مطرين لها إذا استحقت

الإطراء. ومن المؤكد أنه حين يزرى أستاذ جامعى على عمل طالب يشرف عليه أو على بعض فصوله دون أخذه بالرفق وبيانه له - بدقة - ما ينبغى أن يسلكه من نهج محكم فإنه يكون حينئذ أداة تعطيل له دون المسيرة السديدة فى بحثه، بل قد يحطمه تحطيما. وما أشبه الشباب الجامعى فى بدء عنايتهم ببحوث الدرجات الجامعية العليا بالأزهار فى كمامها الغضة، وكما أن الأزهار تحتاج إلى ندى السَّحَر لتتفتح فى كمامها ولتستتم أريجها كذلك شباب البحوث الجامعية العلمية فى حاجة إلى إطراء أساتذتهم وتشجيعهم، حتى تتفتح ملكاتهم العقلية، وحتى يقبلوا على البحث بِنَهَمٍ، بل حتى ينقضّوا على بحوثهم انقضاضا نافذين إلى نتائج علمية ذات قيمة.

وكان صاحبى - حينئذ - كثير اللقاء بأستاذه طه حسين، وتصادف أن سأله فى أحد لقاءاته عن أحد زملائه ممن تخرجوا فى قسم اللغة العربية ولم يكن من حظهم أن يعينوا فيه، ما رأيك هل ترى فلانا جديرا بأن يعيَّن معيدا فى القسم؟ وكان صاحبى يعرف عنه الجد فى الدراسة فأثنى عليه، وبالغ فى الثناء، وفوجىء صاحبى بطه حسين يهز رأسه ويضرب كفا بكف ويغرق فى الضحك على عادته حين يستمع إلى كلام أو

إلى رأى لا يعجبه، وما لبث أن قال لصاحبى: أنا أخالفك الرأى فى زميلك، وقد عرفت الآن أنه لا علم لك بالرجال. ويبدو أنه كان قد سأله عن صاحبى كزميل له فى حديثٍ دار بينهما، ولم يذكره سامحه الله بخير، ووجم صاحبى وكفَّ عن الكلام وعاد طه حسين يتحدث معه فى بعض شئون الأدب.

وظلت معرفته بالناس توسم بهذا الوصف الذى وصفه به أستاذه طه حسين فى مطالع حياته الجامعية، إذ قلما يتبين حقائقهم وضمائرهم، وكأنما لا تعنيه هذه الضمائر والحقائق فى شىء، وكثيرا ما ندم لعقده صداقات بينه وبين من لا يعرفهم حق المعرفة من الأقرباء والبعداء، إذ ظل من أهم ما يميزه حسن ظنه بالناس. وقد يكون من الخير التحفظ فى عقد الصداقة، حتى لا يتورط شخص فى صداقة كاذبة لمغرض يطلب بصداقته مأربا، حتى إذا تحقق المأرب امحت الصداقة كأنها لم تكن شيئا مذكورا، وهى - فى واقع الأمر - لم توجد إلا من طرف واحد، أما الطرف الثانى فكان يتظاهر بها رياء وخداعا لغرض فى نفسه. ولعل أسلافنا - لذلك - قالوا من قديم: احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة يريدون - على الأقل - مثل هذا الصديق الكاذب أو الدَّعِىّ، فإنه إذا

عرف مداخلك ومخارجك وانكشفت له عيوبك – ولكل شخص عيوبه – أذاعها – أو أذاع بعضها فى الناس – وربما استغلّها يوما ضدك فأساء إليك إساءة شديدة. أما العدو فإنك – بطبيعتك تحذره، وأنت لذلك بمأمن منه وإنما الخطر كل الخطر فى الصديق غير المخلص الذى تتخِذه – بسلامة نيتك – خِدْنًا وصديقا، فإنك إذا أطلعته على أحوالك وأسرارك ربما ضَرَّك – من حيث لا تحتسب – ضررا بليغا. وغريب أمر الناس، منهم من يطلب صداقتك، فإذا أصبحت له صديقا عدَّ ذلك منك مكرمة كبيرة، وعاش حفيًّا بك وفيًّا لك، ومنهم من يطلب صداقتك مستخدما كل وسيلة من تحية طيبة ومن ابتسامة باشة ومن كلمات وُدٍّ معسولة، حتى إذا وقعت فى شباكه، واتخذته صديقا ودارت بك وبه الأيام، وواتته الفرصة فتمكن منك أخذت عقاربه تلدغك لدغات متصلة أو متقطعة.

وفى السنة الدراسية التالية لتعيين صاحبى معيدا فى قسمه حمل إليه أستاذه طه حسين بشرى بأن عبد العزيز فهمى سيَطْبع له رسالته على نفقته، وكان من الصفوة التى اختيرت سنة ١٩٤٠ لعضوية مجمع اللغة العربية، وتصادف أن ظل

حبيسَ مرضٍ بداره نحو عام، فرأى أن يطبع بمكافأته المجمعية فى أثناء مرضه أو ببعض منها كتابا لأحد الشبان الجامعيين، وتحدث فى ذلك إلى طه حسين، فنوَّه له برسالة صاحبى التى نال بها درجة الدكتوراه، وكان موضوعها: «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى» فرحَّب بأن تكون هى الكتاب الذى يطبع من حساب مكافأته. وحين أبلغ طه حسين صاحبى بهذا النبأ سره ذلك، لا لأن رسالته ستطبع وتنشر فى الناس فحسب، بل أيضا لأنها ستقترن باسم عبد العزيز فهمى أحد أعلامنا السياسيين والقانونيين الأفذاذ، ومعروف أنه كان أحد ثلاثة دَقُّوا دار المعتمد البريطانى فى ١٣ من نوفمبر سنة ١٩١٨ فلما دخلوا عليه صرخوا فى وجهه مطالبين بجلاء الإنجليز عن مصر إلى غير رجعة، وكان ذلك بدء الاندلاع لبركان حركتنا الوطنية، وسُمِّى هذا اليوم يوم عيد الجهاد الوطنى، وأصبح – فيما بعد – عيدا رسميا للأمة.

وأخذت مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر تُعْنَى بطبع الرسالة وأكبَّ صاحبى على قراءة تجارب الطبع المرة بعد المرة مخافة أن يظلّ بها شىء من الأخطاء المطبعية، ورغبة فى أن تصبح الرسالة خالية من الشوائب والهنات، وكان بين

الأشعار المذكورة فيها بيت للشاعر العباسى بَشَّار بن بُرْد قسم فيه العِيَّ، وهو فقدان القدرة على البيان والإفصاح عن المعنى المقصود، أقساما، إذ لم يجعله بشار خاصا بالكلام وعجز اللسان عن بيانه، بل جعله أيضا فى الفعل كما جعله فى الصمت، وكأن عجزا يصاحبهما أحيانا يشبه العجز عن الكلام، مما جعل صاحبى يقول فى تعليقه على البيت: «انظر إلى بشار يقسم العى أقساما غريبة» وذكرها. وجاءته تجربة الطبع الأولى مبدلة فيها كلمة «العى» فى عبارته السابقة بكلمة «الغِنَى». وصوَّبها فى التجربة، غير أنها عادت إليه فى التجربة الثانية مصحَّفة إلى «الغنى» كما كانت فى التجربة الأولى، فأعاد تصحيحها، حتى إذا طُبع الكتاب، وراجع هذا الموضع من مواضع تصحيحاته وتصويباته أصابه دهش بالغ، إذ وجد الطابع قد ضاق بكلمة «الغنى» التى صُحِّحت ورُدَّت فى التجربتين الأولى والثانية، فوضع مكانها كلمة «المال» لتكون أكثر وضوحا، وبذلك أصبحت العبارة فى الرسالة المطبوعة هكذا: «انظرْ إلى بشار يقسم المال قسمة غريبة إذ يقول:

وعِيُّ الفِعال كعيّ المقالِ ... وفى الصمت عِيٌّ كعيِّ الكَلِمْ

ولعل فى هذا المثال الذى حدث له فى طبع رسالته لأول مرة ما يخفِّف على المؤلفين ما قد يظهر فى بعض مؤلفاتهم من أخطاء مطبعية تحرِّف الكلم عن مواضعه. ويقال إن أحد الكتاب الغربيين عُنى أشد العناية بمراجعة تجارب الطبع لأحد كتبه، حتى إذا ظهر الكتاب لم يجد خطأ فى صفحاته لشدة عنايته فى تصحيحها، غير أنه فوجىء بخطأ لم يكن فى حسبانه، إذ رآه على صفحته الأولى فى عنوانه.

ولما أتم طبع رسالته جلَّد منها بعض نسخ لإهدائها إلى عبد العزيز فهمى صاحب الفضل فى طبعها ونشرها تحت أعين القراء. وحدثه صاحبى فى التليفون مستأذنا فى لقائه، ولقيه مرحبا، ورآه شيخا نحيفا لابسا جلبابا أبيض متلفعا عليه بعباءة، مما يؤذن ببساطته، وذكر لصاحبى - متلطفا - أنه كان يقرأ تَوًّا فى ديوان المتنبى وأحد شروحه، وقال له: إنه لفته فيه ما يلفته دائما فى الكتب العربية من تشابه الحروف فى الخط، فالباء والتاء والثاء والنون جميعها صورتها الخطية واحدة. وصمت صاحبى يريد أن يسمع بقية ما عند الشيخ الجليل من أفكار، غير أنه أقبل على

رسالته، يقرأ ما بين يديها من تمهيد يصوِّر منهجها وأقسامها وفصولها، ولم يستغرق ذلك منه إلا لحظة قصيرة، وكأنها ثوان لا دقائق، فقد كان يصوِّب نظره إلى الصفحة فى التمهيد بضع ثوان، فإذا ذهنه شفَّها واستقصى كلَّ ما فيها، وسرعان ما شفَّ ذهنه الصفحات. ووضع الرسالة بجانبه، وأخذ يناقشه فيما وضع للشعر العربى من مذاهب فنية، تدرجت مع عصوره مناقشة الحاذق البصير الذى يستوعب - بدقة - ما يقرؤه. وعجب صاحبى منتهى العجب من هذا الاستيعاب السريع، وهو استيعاب - أو بعبارة أدق - شَفٌّ للكلام، وهو لا ينشأ عند صاحبه إلا بعد دُرْبة طويلة على القراءة، إذ لا ينشأ عفوا، إنما ينشأ عن القراءة المستمرة المردَّدة، ولا بد أن يصحبها تركيز ويقظة شديدان. وفى رأى صاحبى أنه حرىّ بمن يُعلمون التلاميذ فى التعليم العام أن يدرِّبوهم عليها وأن يجعلوا لها - طوال العام الدراسى - مسابقات وجوائز، إذ من شأنها أن تعوِّدهم القراءة السريعة والإلمام فى أثنائها بأمهات المسائل فيما يقرءون من كتب. وحسب التلميذ الذى تدرب على القراءة السريعة للكتب شفّ صفحاتها

ومعرفة ما تحتويه باللمح السريع، إذ يقف - بمجرد أن يتناول كتابا ويتصفحه فى ساعة أو بعض ساعة - على أهم ما يتناوله من قضايا وأفكار وآراء، وهى خاصة عظيمة الأهمية والقيمة للجامعيين، إذ تجعل من يتصف بها من كبار المطلعين لكثرة ما شفت «كَمِرا Camera» ذهنه من كتب ومؤلفات، حتى ليصبح موسوعيا فى معارفه، بل قد يصبح فعلا من مؤلفى الموسوعات، بالإضافة إلى أنه تتكوَّن لديه ما يشبه حاسَّة سادسة، وهى حاسة تعين صاحبها على أن يعرف توا الموضوعات التى تهمه فى أى كتاب يتصفحه بلمحة خاطفة.

وعاد عبد العزيز فهمى يتحدث عن صعوبات الخط العربى وأنها ليست فقط فى تشابه كثير من الحروف كالجيم والحاء والخاء مثلا، بل هى تجثم أيضا فى خلو الخط العربى من حروف الحركة المعروفة فى خط اللغات الأجنبية الغربية. وذكر عبد العزيز فهمى لصاحبى صنيع الترك فى نَبْذ الخط العربى وحروفه واتخاذ الخط اللاتينى وحروفه بدلا منه. وقال له: وكيف يكون موقفنا إزاء تراثنا الإسلامى والعربى ومئات الألوف من مجلداته؟ وهل

نعيد كتابتها بالحروف اللاتينية؟ ومضى عبد العزيز فهمى يؤكد لصاحبى فكرته. ولم يلبث أن استأذن منه فى الانصراف وكرر له الشكر الجزيل على إتاحته له طبع رسالته. ومرت أشهر معدودة، وإذا عبد العزيز فهمى يتقدم إلى مجمع اللغة العربية باقتراحه المشهور، وهو استبدال الحروف اللاتينية بحروف الخط العربى فى كتابة العربية، واقترح لخطِّنا أبجدية جديدة تتألف من تسعة عشر حرفا لاتينيا دون زوائد وأحد عشر حرفا لاتينيا بإضافة زوائد إليها تدل بها على الحروف العربية التى ليس لها مقابل فى الحروف اللاتينية كوضع شرطتين على الحرف هكذا (ť) للدلالة على الثاء. وهبَّت الصحف فى وجه المشروع، وهبَّ كثير من المجمعيين فى مقدمتهم عباس العقاد وعلى الجارم، كما هبَّ بعض الجامعيين وفى مقدمتهم عبد الوهاب عزام. ورفض المجمع المشروع فى فبراير سنة ١٩٤٤.

وفى أحد الأيام بتلك السنة دخل صاحبى مكتبه فى قسمه بكلية الآداب، وإذا بشاب عربى يتهلَّل وجهه بشرا، يعرِّفه بنفسه، إنه سامى الدهان الحلبى السورى الطالب

بجامعة السوربون بباريس، زار القاهرة، ورأى فَضْلا منه: أن يزور قسم اللغة العربية بآداب جامعة القاهرة وأن يتعرَّف على صاحبى، وكان يقرأ له مقالاته التى كان ينشرها فى مجلة الثقافة. وكان سامى قد أنجز تحقيقه الرائع لديوان أبى فراس الحمدانى، وتمنى لو وافقت جامعة القاهرة على مناقشته فيه، وحصل منها على درجة الدكتوراه فى الآداب بدلا من حصوله عليها من السوربون الفرنسية، لعروبة كانت متأصلة فى نفسه، جعلته يشعر فى عمق أنه أولى له أن يحمل درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة لا من جامعة باريس. ووقفت لوائح جامعة القاهرة عقبة كأداء فى سبيله، فلم تتحقق له أمنيته، مما جعله يشد الرحال ثانية إلى جامعة السوربون، ومنحته درجة الدكتوراه بتقدير عظيم. وقد كفل للديوان من التحقيق العلمى ما ظل يبهر به دارسى أبى فراس إلى اليوم. وفرح صاحبى بلقاء هذا الأديب المحب لتراث الآباء حبا يفوق كل وصف مما جعله يعنى دائما بالتحقيق لبعض كنوزه وفرائده. وسأله بعد لقائه والترحيب به أن يرافقه إلى منزله ليتناول الغداء معه، غير

أنـه قال لـه: لعلك توافقنى عـلى الـذهـاب إلى حـديقـة الحيـوان، فنقضى بهـا بعض الـوقت للغـداء والاسـترواح والمتعة، ووافقه صـاحبى، ودخلا الحـديقة وأخـذا يتصفحان بعـض منـاظرها ومشـاهدها وتناولا بعـض الطـعام بحديـقة الشاى، وسـامى يتحدث حديثا رشيقا، إذ كان خفيف الروح حـاضر البديهة سـريع الجـواب رقيق الشمائل، لا تمل الاستماع إليه، بل تبتغى دائـماً المزيد منه استحسـانًا واغتباطًا. وحين هـمَّ مع صديقه بالانصراف وضـع يده فى «جَيْبه»، فإذا هـو قـد نسى كيس نقوده فى بيته، فلم يحمله معه، وظهر على وجهه شيء من علامات الارتبـاك، وأدرك صـديقه مـا دهاه فـابتسم قائـلا: لا تحـاول إنـك ضيفى، ولا تعجب، فـأنت دائـما ضيف، يشـير بـذلـك إلى لقبـه، وانعقدت بينهما من حينئذ صداقة صافية لم تشبها يوما أى شائبة، وظلت تزداد مع الأيـام توثقـا، وظل نعم الصـديق وفاء وإخاء.

وكان صولجان الحكم بيد حزب الوفد ورئيسه مصـطفى النحاس، ومما يذكر لوزارته - حينئذ - دعوتها الحكومات العربية لإقامة جامعة لهم باسم الجامعة العربيـة، واجتمعت

لذلك وفود من مصر ولبنـان وسوريـا والأردن والعراق فى هيئة لجنة تحضيرية، ووضعت هـذه اللجنة مـا عُرف بـاسم بروتوكول الإسكندرية، غير أن وَضْع ميثاق الجامعة تـأخر إلى شهر مارس سنة ١٩٤٥ لعهد وزارة أحمـد ماهـر. وفى مـايو من هـذه السنة استسلمت ألمـانيا للحلفـاء دون قيد أو شـرط، وتبعتها اليـابان فى أغسـطس بمجـرد أن ألقت الولايات المتحدة القنابل الذرية على مدينتيها: هـيروشيما وناجازاكى، وبذلك انتهت الحرب العالمية الثانية.

وعجب صـاحبى من أن مصر لم تسـارع عقب انتهـاء هـذه الحرب إلى الثـورة على الإنجليـز، كما ثـارت عليهم عقب انتهـاء الحرب العـالمية الأولى سنـة ١٩١٨ ثـورتهـا العنيفة المشهورة، وفيها اشترك أبناء مصر جميعـا: الشباب والشيـوخ والنسـاء والعمـال والقـرويـون إذ هبَّ الجميع ينـاضلون الإنجليز نضـالا مستميتـا، حتى المـوت الـزؤام. وظلت هذه الروح الوطنية الثائرة مشتعلة لا تخمد سنوات طـوالا، مما أرغم الإنجليـز على إعـلانهم تصريـح ٢٨ من فبراير سنة ١٩٢٢ معترفين باستقـلال مصر، وإن تنقَّصـوه بما قَصُّوا من أجنحته. وكان منتظرا أن تعود سـريعا هـذه

الروح الوطنية الثائرة بعد الحرب العالمية الثانية وأن تكون أشد اشتعالا واضطراما وضراوة، غير أنها لم تعد بنفس القوة، وكأنما أصابها وهن، وهو وهن تتحمل مسئوليته - من بعض الوجوه - الأحزاب السياسية التى نسيت قضايا الوطن ومصالحه العليا ومطامحه فى الاستقلال التام، ومضت تتطاحن وتتصارع فى سبيل الوصول إلى كراسى الحكم. على أن من الحق أن جذوة هذه الروح ظلت مكتنَّة فى صدور الشباب الجامعى، وظلت تتَّقد - من حين إلى حين - فى مظاهرات صاخبة. واستدار العام ونشر صاحبى كتاب «الفن ومذاهبه فى النثر العربى» على غرار كتابه: «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى» الذى طبعه على نفقته - كما مرَّ - عبدالعزيز فهمى، فرأى أن يهدى إليه نسخة من كتابه الجديد تكرارًا لشكره على صنيعه فى الكتاب السالف، وكلمه فى التليفون ولقيه - كما لقيه فى المرة السابقة - مرحبا به، ولابسًا جلبابا أبيض متدثرا عليه بعباءة، حتى إذا جلسا معا قدم إليه الكتاب، فقرأ مقدمته فى سرعة تشبه سرعة البرق الخاطف للأبصار، ثم وضعه بجانبه وأخذ يحاوره فيما وضع للنثر العربى بمختلف

عصوره من مذاهب ومدارس فنية. وتشققَّ الحديث، وكان مما حدثه عنه ترجمته لمدَّونة جوستنيان فى الفقه الرومانى، وأخذ يصوِّر له مدى ما تجشَّم فى ترجمة الكتاب من عناء ومشقة. وذكر له كيف أنه رجع فى ترجمته إلى أدق الترجمات الفرنسية للمدوَّنة عن أصلها اللاتينى وأدق ما كُتب حولها من شروح. وقد ذكر ذلك مفصَّلا فى مقدمته لترجمة الكتاب، وذكر لصاحبى شيئا لم يصوره فى تلك المقدمة، ولم يعرف السبب فى أنه لم يتحدث عنه، وقال: ربما كان سبب ذلك التواضع، وودَّ لو أنه تحدث عنه طويلا وتفصيلا كى يكون حافزا للشباب من المترجمين كى يحاكوه فيه، بل حافزا للمترجمين عامة، حتى يؤدوا للترجمة حقوقها كاملة، أو على الأقل حتى يحاولوا - جاهدين - النفوذ إلى أدائها على خير وجه ممكن، فقد ذكر أنه حين همَّ بترجمة المدوَّنة لم يكتف بإتقانه للفرنسية، فقد رأى أن يتزوَّد باللاتينية: اللغة الأصلية للمدوَّنة، حتى إذا انبهم عليه فهم عبارة أو لفظة فى الترجمة الفرنسية رجع إلى أصلها فى اللاتينية، وقال لصاحبى: إنه كان قد عرف مبادئ تلك اللغة وبعض ألفاظها وصيغها فى أثناء

دراسته بمدرسة الحقوق العليا فى أواخر القرن الماضى. ثم ذكر أنه حاول أن يحصل على نسخة لاتينية للمدوَّنة وسأل عنها بعض أصدقائه الحقوقيين. فلم يجدها، وكاد ييأس من عثوره عليها، وأخيرًا عرف أن حقوقيا بارزا هو الدكتور كامل مرسى - يقتنيها، فطلبها منه، فحملها إليه مغتبطا، ومضى ينظر فيها أحيانًا - كما قال - حين تغمض عليه عبارة أو كلمة فيما بين يديه من الترجمات الفرنسية، حتى يؤدى معانى المدوَّنة القانونية على وجهها الصحيح، وحتى يؤدى دلالات ألفاظها أداء دقيقا سديدا.

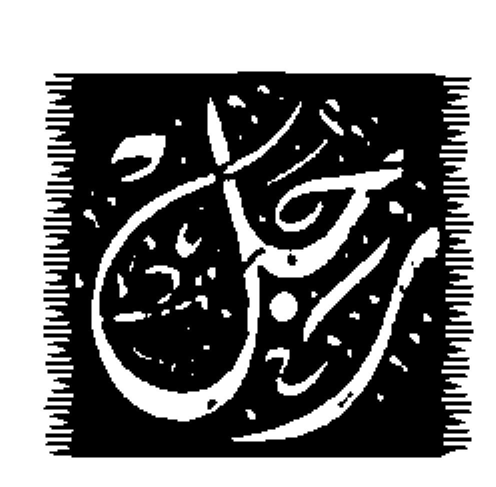
وتولَّى صاحبى العجب من هذا الجهد العنيف فى الترجمة وما بذله فيها من عناء شديد هذا الشيخ الهرم وقد بلغ الثمانين أو أكثر من عمره، وكانت لا تكاد تمضى دقائق معدودة حتى تنتابه نوبة شديدة من نوبات مرض الرَّبْو الثقيل، أو قل عاصفة، إذ كان جسمه يهتز مع كل نوبة اهتزازا شديدا، وكان نحيفا ضامرا: جِلْدا على عظم، كما يقولون، وكان صاحبى مع كل نوبة أو عاصفة للرَّبو يخال أن هذا الجسم النحيل قد تداعى بنيانه، حتى ليوشك أن يسقط جسمه فى العباءة المتلفع بها. غير أنه سرعان ما كان

ينهض من جديد ويعود إليه جَلَده فيتابع حديثه. وعلى الرغم من هذا المرض الوبيل ومن سنِّه العالية أكبَّ على ترجمة مدونة جوستنيان فى الفقه الرومانى محيلا كل سطر فيها إلى ما يشبه صراعا بينه وبين ترجماته الفرنسية وأصله اللاتينى من جهة، وبينه وبين اللغة العربية لتحمل أوانيها اللغوية معانى المدوَّنة وما يطوى فى دلالاتها من خفايا ودقائق غامضة.

وكان صاحبى يقول: لعل فى ذلك ما يصوِّر بعض الفروق بين كثيرين من الجيل المعاصر حين يترجمون من لغة أجنبية إلى لغتهم العربية وبين الجيل الماضى وأعلامه النابهين الذين كانوا يشقُّون على أنفسهم فى كل ما ينهضون به من ترجمة وغير ترجمة. ولو أنك طلبت اليوم إلى شاب يترجم نصا أدبيا ألمانيا من الإنجليزية أن يتعلم الألمانية ليقارن بين الأصل الألمانى وترجمته الإنجليزية حتى يكون نقله النصَّ إلى العربية أكثر وفاء بدلالاته ومعانيه كما ترسمها لغته الأصلية لظن أنك تمزح معه، وهذا شيخ عالى السنِّ يوشك أن يستنفد العقد الثامن من عمره أو لعله تجاوزه، وَالرَّبْو يجثم بكلكله على صدره ويأخذ بخناقه وأنفاسه، ولا يقعده الرَّبْو ولا علوُّ السن ولا ضعف البنية ولا وهن العظم عن أن يحقق لترجمة

مدوّنة جوستنيان ما ينبغى لها من أن تكون مثلا أعلى فى الترجمة للفقه الرومانى دون أن يملأ الدنيا ضجيجا بعمله وأنه أتى فيه بما لم يأت به الأوائل، كما يحلو لبعض المعاصرين أن يقول ذلك عن نفسه مباهيا. أما عبد العزيز فهمى فإنه يقدم ترجمته لرجال القانون وطلابه بكل تواضع ومع الحياء الجمّ. وهى صورة باهرة لأحد رجالاتنا الثلاثة الذين صاحوا فى وجه المعتمد البريطانى: اخرجوا من مصر، فتزلزلت الأرض تحت قدميه وانفجر بركان الثورة المصرية وظل يرمى الإنجليز بحممه وقذائفه الملتهبة. وكان عبد العزيز فهمى مفخرة من مفاخر القانون المصرى وها هو بأخرة من عمره ومرض الربو يعصف بجسمه الضاوى النحيل يعكف على مدونة جوستنيان فى الفقه الرومانى، ينقلها إلى العربية فى أدق صورة للغة الفقه والقانون.

وكان طلاب الجامعة لا يزالون من وقت إلى آخر يثورون على الإنجليز ويخرجون فى مظاهرات ضخمة، يخترقون بها بعض شوارع القاهرة، وكانت تنضم إليهم بعض جموع من الشعب، ويهتف الجميع مطالبين الإنجليز بالجلاء. وكان يحدث أحيانا صدام عنيف بين طلاب الجامعة وبين قوى الشر والعدوان، وتسوّل للإنجليز شياطينهم أن يصوبوا من سياراتهم المصفحة الرصاص إلى صدور الشباب ويسقط فى ميدان الشرف غير شهيد. واضطر الإنجليز بتأثير غضب الطلاب والشعب عليهم أن يجلوا عن القلعة فى يولية سنة ١٩٤٦ وفى شهرى فبراير ومارس لسنة ١٩٤٧ جلوا عن ثكناتهم ومعسكراتهم فى القاهرة والإسكندرية ورُفع العلم المصرى على ثكنات قصر النيل. وكان محمود فهمى النقراشى رئيسا للوزارة، فرأى عرض قضية مصر على مجلس الأمن، وعرضها فى شهرى أغسطس وسبتمبر، واستخدم الإنجليز أفاعى مكرهم السياسى، واستطاعوا أن يحملوا مجلس الأمن - وكان يرأسه جروميكو ممثل الاتحاد السوفيتى - على اتخاذ قرار خطير بتأجيل النظر فى قضية مصر إلى أجل غير مسمى، مع الاحتفاظ بها فى جدول أعماله.



٢

وكانت مصر قد أخذت تُشْغَل بقضية العرب مع اليهود بفلسطين، واتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارا خطيرًا بتقسيمها إلى دولتين: دولة عربية، ودولة يهودية. وصوَّت - فى جانب القرار مع الدول الغربية - الاتحاد السوفيتى والدول التى تدورُ فى فلكه، فإذا هى توافق على قيام هذه القاعدة العسكرية - بل الإسفين المسلَّح - بين الدول العربية، واشتدَّ هياج العرب فى كل مكان، وأعلن الإنجليز فى ١٥ من مارس سنة ١٩٤٨ مغادرة فلسطين وتصفية إدارتهم المدنية بها وجلاءهم عن «تل أبيب» والمناطق اليهودية، وبذلك أتاحوا لليهود الفرصة للاستيلاء على أداة الحكم فى فلسطين وعلى المطارات والمرافق العسكرية. وتمادى اليهود فى عدوانهم على القرى العربية بفلسطين، وهاجموا فى أبريل قرية «دير

ياسين» وذبحوا أهلها: رجالا ونساء وشيوخا وشبابا وأطفالا غير مراعين ذمة ولا عهدا ولا أى معنى من معانى الإنسانية، وكثرت المظاهرات فى البلدان العربية احتجاجا على هذا العدوان الوحشى الغاشم. ومضى الإنجليز فى عَوْن اليهود فسلَّموهم مدن حيفا ويافا وصفد وطبريَّة. وهاج الرأى العربى العام، ودفع حكوماته إلى التدخل العسكرى لإنقاذ فلسطين. وزحفت الجيوش العربية فى شهر مايو، وكالتْ لليهود ضربات قاصمة، وسرعان ما صرخوا واستغاثوا بالولايات المتحدة، وأغاثتهم عن طريق مجلس الأمْن فقرر هدنة بين الطرفين المتحاربين، ظلت أربعة أسابيع، واستغلَّها اليهود، فاستكملوا نقصهم فى السلاح والعتاد الحربى. واستؤنفت الحرب فى أوائل يولية، وكبَّد العرب اليهود خسائر فادحة، غير أن القوة الأردنية انسحبت، وتلتها فى الانسحاب القوة العراقية، وقرَّر مجلس الأمن هدنة ثانية. وظل الجيش المصرى وحده ينهض بعبء القتال فى الجنوب، وحاصر اليهود اللواء الرابع فى الفالوجا، وصمد فى استبسال نادر إلى أن وافقت مصر على هدنة ثالثة فى يناير سنة ١٩٤٩.

وهكذا أنشأ اليهود بمساندة الاستعمار دولة لهم فى فلسطين

مغتصبين ديارها بالسلاح والمذابح الإرهابية وإرغام أهل فلسطين على الخروج من ديار آبائهم وأجدادهم، حتى لقد بلغ اللاجئون منهم إلى الضفتين الشرقية والغربية لنهر الأردن نحو نصف مليون نسمة، وأربى اللاجئون إلى لبنان على مائة ألف، وكذلك إلى سوريا، وأيضا إلى غزة، غير من لجئوا إلى مصر والبلدان العربية. ويبلغون جميعا نحو مليون انتزعهم اليهود من جذورهم فى المدن والقرى الفلسطينية، وشتتوهم، وكم من قرية فلسطينية محوها محوا بحيث لن نعود نراها ثانية على خريطة فلسطين. وكل ذلك اقترفوه دون أن يتعظوا بتاريخهم القديم وما حدث لأجدادهم الأولين حين اجتاحت جحافل بختنصر ملك بابل عاصمتهم أورشليم ودمَّرتها ودمَّرت هيكل سليمان وساقت أهلها من اليهود فى السلاسل والأغلال إلى بابل، وظلوا هناك نحو قرن مسترقِّين مستعبدين إلى أن فتح الفرس بقيادة قورش بابل، فأذنوا لهم بالعودة إلى فلسطين وكانوا يحتلونها، واحتلها بعدهم اليونان فالرومان فبيزنطة، ومنها استخلصها العرب فى الفتوح الإسلامية واستوطنوها، وظل منهم جمهور سكانها، وظل صولجان الحكم بأيديهم أكثر من ثلاثة عشر قرنا، بينما كانت

مدة دولة اليهود القديمة المسماة مملكة أورشليم لا تزيد عن ثلاثة قرون. وإذا كانت ديار فلسطين ظلت لا تبرح ذاكرة أسلافهم الذين نفوا منها إلى بابل، وظلوا ينوحون عليها ويبكون حتى عادوا إليها بعد نحو قرن من الزمان أفيكون معقولا أن تبرح تلك الديار ذاكرة أهلها من العرب بعد أن ظلوا يسكنونها أربعة عشر قرنا متعاقبة، وهم لم يجلوا عنها نهائيا كما جلا أسلاف اليهود إلى بابل، فقد جلا منهم شطر لا يزال يعيش أكثره على تخومها فى انتظار العودة، وشطر ثان لا يزال يعيش فى دياره، وهل يمكن لأحد فى الشطرين أن ينسى وطنه وداره وأرضه وما فيها من بساتين وكروم وزيتون؟ إن كثيرين من الشطرين يقفون على أبواب فلسطين وفوق أرضها وبين أشجارها يحملون النصال والسهام، ويزرعون الألغام، ويلقون بالقنابل على رؤوس اليهود وبين الأقدام. وإنه لحرى بإسرائيل أن تعرف أن اغتصاب أرض بالقوة من أهلها وإقامة دولة عليها لا يمكن أن يدوم فضلا عن أن يفرض على منطقة عربية ضخمة وشعبها الكبير.

وفى صيف هذه السنة رأى صاحبى أن يقضى مع أسرته شهرا فى جزيرة قبرص، المعروفة بشرقيِّ البحر المتوسط،

وكان العرب قد فتحوها فى ولاية معاوية على الشام، وظلت موالية لهم إلى أن استولى عليها الصليبيون، وفى سنة ١٤٢٥ للميلاد حرَّرها السلطان المملوكى برسباى، ثم استولت عليها البندقية إلى أن فتحها العثمانيون وأصبحت جزيرة تركية. وفى سنة ١٨٧٨ تنازلوا عنها للإنجليز بثمن بخس: جنيهات إنجليزية معدودة. وكان جمهور سكانها - حينئذ - من الترك، غير أن اليونانيين ظلوا يهاجرون إليها إلى أن أصبحوا بها الآن أضعاف الترك، واحتكروا لأنفسهم الأنحاء الجنوبية الخصبة فيها والمصيف الجبلى وبلدانه، وتركوا للترك الأنحاء الشمالية الجرداء. ورحل إليها صاحبى مع زوجته وابنه الصغير ونزلوا جنوبيها فى ميناء ليماسول، وكان قد سأل عن بلدان المصيف واختار لإقامته بلدة «بيدولاس» وخُيِّل إليه كأنها محرفة عن كلمة «بيت الله» وأن اسمها كان هكذا فى العهد التركى، وأمضى بها نحو شهر قضاه فى منزل صغير استأجره، وكثيرا ما كان يتناول إفطاره عند عين مياه ثَرَّة على بعد نحو ثلثى ساعة من بيدولاس فى طريق صاعد على جبل وعر تحفّ به غابات، وكان يحمل فيه ابنه، محتاطا أشد الحيطة، إذ كان الطريق الجبلى وعرًا شديد الضيق، وعلى أحد

جانبيه حافة الجبل تردّه إن أراد الانحراف إليها وعلى جانبه الآخر وادٍ تَهْوِى الأرض فيه إلى دَرْك بعيد. ويصل مع زوجته وابنه إلى العين بعد جهد جهيد، وبعد المتعة بمناظر الغابات والأشجار السامقة. وعند العين ساحة واسعة ومقهى لراحة روادها، وماء العين صاف وخفيف جدا مع عذوبة وبرودة، ويقال إنه يشفى من أمراض كثيرة. وكان كل شىء فى قبرص من طعام وغير طعام رخيصا رخصا غير عادى، وكان أهلها - حينئذ - يعانون من احتلال الإنجليز للجزيرة واعتصارهم لطيبات أرضهم وما تنتج من الفواكه وخاصة الكريز، وكانت طياراتهم ماتنى تنقله إلى لندن بأرخص الأثمان، بينما يعيش القبارصة معيشة ضنك وإعسار وإقتار. ودائما كان أهلها يرحبون بصاحبى وبزوجته، وهو ترحيب يسبغونه على كل من يفد على جزيرتهم من المصريين. وزار نيقوسيا العاصمة، وصلى بمسجدها الكبير، وتعرَّف على إمام المسجد، ووجد به مكتبة حافلة أطلعه أمينها التركى على فهرسها، وتصفح طائفة من كتبها الفقهية واللغوية والتاريخية، ورأى من ذلك كله كنوزا، وعلى كثير من هذه الكنوز إهداء هذا السلطان العثمانى أو ذاك أيام أن كانت الجزيرة تابعة

للترك فى العهد العثمانى.

وذات ليلة رأى أهل بلدة «بيدولاس» يمضون فرادى وجماعات كأنما يريدون الفرجة على شيء، فسأل أحدهم عن وجهتهم وعرف منه أنهم متجهون للفرجة على «أراجوز» وعجب أن يكون فى قبرص أراجوز يضحك الناس، وقال لزوجته: هيًّا بنا نذهب معهم للفرجة على هذا الأراجوز القبرصى، ووجداه مثل الأراجوز الذى كان يختلف إليهِ أبناء القاهرة فى الجيل الماضى للفرجة عليه: نفس الصندوق ونفس الدمى التى كانت تظهر متحركة عليه ناطقة بلسان من يحرِّكها، والناس جلوس على «دِكَك» أو أرائك مصفوفة يتفرَّجون ويضحكون. وجلس صاحبى مع زوجته وابنه الطفل على «دكة» وتوالت أمامهم مشاهد مضحكة تتخللها سخريات كثيرة من حاكم طائش، يعرض الناس عليه قضاياهم فيحكم فيها أحكاما جائرة تصور غفلته وذهوله واختلاط الأمور عليه، فيضحك النظارة ويغرقون فى الضحك، وكأنه قراقوش حاكم القاهرة لعهد صلاح الدين الذى صوَّر ابن مماتى أحكامه بين الناس فى صور ساخرة مضحكة تعرض غباءه وبلاهته وغفلته. وقد هاجرت كلمة

«قراقوش» فى العصور الوسطى إلى تركيا وتحولت هناك إلى «قراجوز» وأصبحت هناك - كما كانت فى مصر - ملعبا من ملاعب خيال الظل يصور الحاكم الظالم لعبة أو دمية تتحرك بأسلاك الغفلة والغباء، إذ لا يكاد الحاكم يبدأ النظر فى قضية حتى يضطرب عليه الأمر ويتشوش تشوشا شديدا، فيقلب الأوضاع، فإذا المدعى متهما والمتهم مدعيا، ويضرب المشاهدون كفا بكف ضاحكين ساخرين. وهذا المسرح الهزلى القديم انتقل من تركيا إلى القبارصة الأتراك، وأخذه عنهم القبارصة اليونانيون للتندير على حكامهم، وظلوا يتخذونه فى أيام الاحتلال الإنجليزى لغرض الضحك والفكاهة وتسلية المشاهدين.

وكان يصطاف حينئذ ملك مصر: فاروق فى جزيرة كابرى بإيطاليا، وتمادى فى طيشه وغَيِّه وقماره وأخذت الصحف القبرصية - مثل الصحف الأجنبية - تتحدث عن نزقه وسفاهته. وفى صيف السنة التالية: ١٩٥٠ اصطاف فى دوفيل بفرنسا وازداد نزقه وقماره وغَيّه سوءًا ما بعده سوء، وأخذت الصحف فى أرجاء العالم تتحدث عن بعثرته الأموال الطائلة دون حسيب أو رقيب من حكومته، ولكن أى

حكومة؟ لقد دأبت الحكومات المصرية على تقديم فروض الولاء له، حتى أصبح مع كل نزواته يشعر أنه صاحب السلطان المطلق فى البلاد. وأخذ الشعب ييأس من إصلاحه وردِّه إلى الطريق السوىِّ السليم، كما أخذ ييأس من الأحزاب، وخاصة أحزاب الأقلية التى استحالت إلى فئات من المستوزرين، وكل فئة تنتظر دورها فى الحكم. وكان الشعب قد يئس منها: فلا هى قادرة على إرغام الإنجليز أن يردوا على الأمة حريتها واستقلالها التام، ولا هى قادرة على كبح جماح الغلاء الجاثم كابوسه على صدر مصر منذ انتهاء الحرب. وأخذ الشعب الباسل يقاوم بنفسه الإنجليز فى قناة السويس مقاومة ضارية، إذ تألفت منه فرق فدائية: من شباب الجامعة ومن الإخوان المسلمين ومن أبناء محافظة الشرقية. ومضت هذه الفرق الفدائية تغتال كثيرين من جنود الإنجليز فى القناة، وكان بينهم بعض الشباب، فولولت أمهاتهم فى إنجلترا طويلا، وكان لذلك أثره - فيما بعد - فى خلاص مصر من نير الاحتلال البغيض.

وأخذ غضب الشعب على فاروق يزداد حدة وعنفا، حتى إذا كانت أواخر شهر يناير لسنة ١٩٥٢ إذا الشعب يوقد

النار فى متاجر القاهرة وملاهيها وبعض فنادقها الكبيرة، وظلت النار متأججة مشتعلة إلى ساعة متأخرة من الليل، وكان ذلك نذيرا واضحا بأن عهد الملكية يوشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. وكانت طائفة من ضباط الجيش الأحرار ممن عادوا من الحرب مع إسرائيل يألمون لما كان يُرْسَل إليهم فى تلك الحرب من الأسلحة الفاسدة، ولما صارت إليه أوضاع الحكم فى مصر من سوء، وأخذت قوتهم فى الجيش تتراءى فى وضوح إذ استطاعوا تغيير إدارة ناديه واختيار رئيس له بإرادتهم لا بإرادة فاروق وأشياعه. وكان صاحبى تعوَّد قضاء شطر من الصيف فى الإسكندرية ونزلها فى شهر يولية وفى ليلة الثالث والعشرين منه استيقظ فى أخريات الليل فشعر بحركة غير عادية لسيارات الجيش إذ تمر متعاقبة على الكورنيش، حتى إذ أطلّ الصباح استمع فى الإذاعة إلى نداء الثورة للضباط الأحرار، وفى الساعات الأولى من الصباح أخذ أزيز الطائرات الحربية يملأ سماء الثّغر، وأخذت تُلْقِى منشورات على المصطافين فى شواطىء الإسكندرية تبشرهم بقيام الثورة، وتطورت الأحداث سريعا، فأصبحت السلطة العسكرية والمدنية بيد الضباط الأحرار، وتنازل فاروق عن

عرشه لابنه أحمد فؤاد، ورحل عن مصر إلى إيطاليا.

واختار الضباط الأحرار محمد نجيب قائدًا لهم، وألفت وزارة انتقالية ألغت الرتب والألقاب المدنية، ثم تألفت وزارة برياسة محمد نجيب أصدرت قانون الإصلاح الزراعى وعفوًا عن المحكوم عليهم فى جرائم سياسية، وحلّت الأحزاب. وأعلنت قيادة الثورة وجوب تطهير الأداة الحكومية. وقدمت للوزارة كثرة من أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب فى جامعة القاهرة - لم يكن صاحبى بينهم - شكاوى ضد العميد واستحال ذلك إلى محنة خطيرة امتحنت بها الكلية امتحانا تكشفت فيه الأخلاق عن مكنوناتها من التنافس والتخاصم، وتألفت لجنة للتحقيق وأخذت الصحف تكثر من الحديث فى هذه المحنة. وفوجىء بخطاب من أستاذه الدكتور عبد الوهاب عزام عميد الكلية الأسبق ورئيس قسمه - وكان قد أصبح سفيرا لمصر بباكستان - وإذا هو يقول له فى خطابه: إذا كنت قد ضقت بشىء فى الكلية - وكان اللغط قد تكاثر عنها فى الصحف كثرة مفرطة - فإن لك عندى عملا فى السفارة على الرحب والسعة، وأنا فى انتظار ردّك، وردَّ عليه شاكرا ذاكرا له أنه لا علاقة له بكل ما حاق

بالكلية وأنه يؤثر البقاء فيها مع طلبته ولا يبغى بذلك بديلا.

وهى صورة رائعة من صور وفاء الأساتذة الجامعيين لتلاميذهم، إذ يحفظون لهم حقوق التلمذة عليهم، ويظلون يؤدّونها، قائمين منهم مقام الآباء من أبنائهم، وكما أن الأب يحنو على ابنه ويشفق عليه ويظل يتفقده، وإن مسّه - أو شعر بأنه سيمسّه - ضيم سارع إلى نجدته، وإن توقَّع أذى سيلُمّ به اتخذ كل الأسباب لدفعه عنه، كذلك الأساتذة الأوفياء لتلاميذهم، وحقا لا تصلهم بهم الرابطة التى تصلهم بأبائهم: رابطة العرق والدم، غير أنه تصلهم بهم رابطة العقل والفكر والروح، فهم - إن لم يكونوا آباءهم نسبا وقرابة - آباؤهم روحا وفكرا. ومنذ كان صاحبى طالبا فى قسمه ثم أصبح به معيدا فعضوا فى هيئة التدريس كان أستاذه عبد الوهاب عزام حفيا به وكان جم التواضع، وكان تلاميذه يحبونه ويجلونه ويُعزّونه، وحرى بأن يكون التواضع خلقا عاما فى كل أستاذ جامعى، إذ ينهض بأشرف الأعمال من تربية الشباب فى الأمة، فينبغى أن يكون لطلابه لينِّ الجانب موطَّأ الكنف لا يستعلى عليهم ولا يستظهر عُجْبا بعلمه، ولا يعنف بهم أى عنف، ولا يتنقّص من قدرهم بل دائما بِشْر

وطلاقة وجه وكلمات طيبة، بذلك تسود المودة بين الأستاذ الجامعى وطلابه فيكونون موضع تقديره ورعايته ويكون هو موضع توقيرهم وإجلالهم، ولا يكون العلم فى الجامعة علما فحسب، بل يكون أيضا تربية سديدة وخلقا قويما.

وفى أول يونية من سنة ١٩٥٣ قرر مجلس قيادة الثورة إلغاء النظام الملكى بمصر وقيام النظام الجمهورى برياسة محمد نجيب وكان بعض النقاد قد أخذوا يشنون فى الصحف والمجالات حملات عنيفة على الشاعر شوقى لما له من مدائح فى الأسرة العلوية، فكانوا يلقبونه شاعر أسرة محمد على وشاعر القصر وشاعر السراى، وهو لم يكن يمدح من اعتلى أريكة مصر من الأسرة العلوية لشخصه، وإنما لأنه من حكام مصر التى عاش يتغنى لها أمجادها الفرعونية ومشاعرها الوطنية وعواطفها القومية مذكيا فيها وفى الشعوب العربية الحمية لنضال المستعمرين الباغين نضالا مستميتا. وكانت الحملات الظالمة على هذا الشاعر العبقرى الذى أكسب مصر - بين البلاد العربية - مجدا عظيما فى الشعر العربى ما تنى تملأ الجو الأدبى بغبار كثيف يحجب حقائق شعره.

وتأثر صاحبى لمصر وشاعرها الكبير شوقى، فكتب عنه

كتابا حلَّل فيه شعره الغنائى والتمثيلى موضحا مكانته فى الشعر العربى الحديث. وكانت الدولة قد رصدت - قبيل عهد الثورة - جائزة فى الآداب نالها أدباء كبار مثل طه حسين وعباس العقاد ومحمد حسين هيكل، فرأى القائمون على الثورة إعادتها فى سنة ١٩٥٥ وألفت لذلك لجنة بينها طه حسين وعباس العقاد. وكانت عادة تمنح لأديب وينوَّه فيها بأحد كتبه، دون أن يتقدم إليها، فاللجنة هى التى تختار مستحق تلك الجائزة، ولم يكن يقع فى خاطره أنه سيرشح لها أو أنه سينالها، وحين اقترب موعد الإعلان عن مستحقها لتلك السنة أخذ بعض أصدقائه يقولون له: إن اسمك سيلمع فى الصحف، وهو يبتسم، ويظن ذلك من باب المزاح، وفى يوم من أيام الصيف وكان مسافرا إلى الإسكندرية لقضاء فترة من إجازته السنوية إذا هو يقرأ فى الصحف أن لجنة جائزة الدولة للأدب قررت منحها له مناصفة لكتابه عن شوقى شاعر العصر الحديث، وتولاه العجب لأنه كان بين أعضائها طه حسين وعباس العقاد وكان قد عرض فى الكتاب نقدهما العنيف لشوقى الذى نشراه فى حياته، وتصادف أن أحدا لم يتصدَّ للرد عليهما بقوة وبيان ما فى نقدهما لشوقى من تجن

مسرف وطعن مجحف فى شاعريته. وقد ناقش فى كتابه هذا النقد وأوضح ما فيه من تعصب على شوقى وتهجين وتنقص شديد لشعره، وفنَّد منه ما يستحق التفنيد مع وضع شوقى فى مكانته الرفيعة من الشعر العربى الحديث.

وحمد صاحبى لطه حسين وعباس العقاد موقفهما منه ومن كتابه، مع أنه فيه يعارضهما وينقض آراءهما النقدية فى شوقى مما يدل - بوضوح - على مدى ما كان يتحلَّى به كل منهما من نزاهة فى الحكم على ما يقرأ وعدم التأثر فيه بأى شيء حتى لو كان متصلا ببعض آرائه، بل حتى لو ناقض هذه الآراء وأثبت بطلانها. وهذا الموقف النبيل إزاء الكتاب وما يحمل من نقض آرائهما صحح لصاحبى ما كان يقال - ويتردد عن العقاد - من أنه عُدْوانى وأن أحدا لا يستطيع أن يعارضه فى بعض ما يذهب إليه من آراء - وخاصة فى الشعر والشعراء - إلا ويصبّ عليه جام غضبه، ويصليه نارا حامية من كلمه، فقد تراءى له بوضوح أنه ليس عدوانيا كما يقال، فإنه حين قرأ ردوده عليه فى الكتاب، ورآها ردودا لإحقاق الحق الأدبى فى ذاته لم تأخذه - كما لم تأخذ طه حسين - العزة

بالإثم، بل أعجبا بالكتاب وأثنيا عليه، بل هما اللذان اقترحا له الجائزة مناصفة قبل تقسيمها - فيما بعد - إلى تقديرية وتشجيعية.

٣



وفى ٢٦ من يولية سنة ١٩٥٦ أعلنت مصر تأميم شركة قناة السويس العالمية، وكانت تلك الشركة مأساة كبرى لا مثيل لها فى التاريخ، فإن مصر حُرمت من قناتها التى حفرها أبناؤها، والتى جرت أول ما جرت بدمائهم الزكية، ولم تخسر القناة فقط، بل خسرت أيضا أرضها باحتلال إنجلترا لديارها كى تصبح القناة مفتاح الطريق إلى الهند ملك يدها وطوع إرادتها. وثارت ثائرة الدول الاستعمارية - لتأميم الشركة - وخاصة إنجلترا وفرنسا، وقد جمَّدتا ما لمصر من الأرصدة المالية، وحذت الولايات المتحدة حذوهما، وتكاثر الإنذار والوعيد، ومضت مصر لا تأبه لأى تهديد.

وكان اتحاد الكتَّاب فى رومانيا وروسيا وجَّه دعوة إلى اتحاد كتَّاب مصر كى يرسل وفدا منه لزيارة البلدين، ووقع الاختيار على صاحبى مع أربعة تألف منهم جميعا الوفد، وبارحوا القاهرة فى الحادى عشر من شهر سبتمبر متجهين إلى روما. وفوق جبال أبنين فى جنوبى إيطاليا أبعدت الطائرة فى الارتفاع صاعدة فى السماء، وسمع موسيقى بديعة، فقال لجاره بعد برهة: ما أجملها من موسيقى، يظن أنها تصل من أحد أركان الطائرة، فقال له: إنى لا أسمع شيئا، فتنبه إلى أن ما يسمعه من هذه الموسيقى إنما هو بسبب ارتفاع الطائرة فى أجواز الفضاء، ووضع قطنا فى صماخ أذنه حتى لا يسمع شيئا، وظل مع ذلك يحس ألما فى أذنيه بضعة أيام. وتذكَّر الأسطورة الإغريقية عن جزيرة السيرينات فى البحر المتوسط جنوبى بلاد اليونان، إذ زعم الإغريق قديما أن بحارة السفن حين كانت تقترب من هذه الجزيرة يستمعون إلى غناء مَنْ بها من السيرينات، ويخالون كأنما يمددن إليهم أذرعتهن البَضَّة البيضاء الجميلة لعناقهم، وويل للسفينة التى كانت تستجيب إليهن، إذ سرعان ما كانت تتحطم - حين اقترابها منهن - على الصخور الممتدة مثل السوار حول الجزيرة ويغرق كل من فيها ولا ينجو منهم أحد. وكان بحَّارة الإغريق يتواصون - فيما بينهم - بالابتعاد عن الجزيرة وأن

يضع بَحَّارة السفن شمعا فى آذانهم إذا لاحتْ لهم من بعيد، حتى لا يستمعوا إلى أغانى السيرينات ويغرينهم بالاقتراب منهن، وبذلك ينجون من هلاك محقق - كما تزعم الأسطورة - وكان منهم قاب قوسين أو أدنى.

ونزل روما مع رفاقه، وأمضى بها يومين شاهد فيها أهم معالمها من المتاحف والملاعب، وزار قصر الفاتيكان وجاس خلاله يتأمل فى آيات التصوير والفن الرائعة، فهذا المسيح فى أعلى الباب يعطى سان بيترو مفتاحى الجنة والنار، وعلى يمين الداخل صورة العذراء تضم ابنها المسيح الوليد إلى صدرها، وتتراءى على القبة الكبيرة من الداخل تماثيل بديعة نحتها ميكل أنجلو للمسيح وحوارييه، وفى كل ركن وجانب أعمال كبار الرسامين العالميين من أمثال رافاييل. وطاف بشوارع روما، ورأى أهلها يحتفظون حتى اليوم - بكثير من آثارها القديمة دون أى مساس بها. وشاهد ساحة الأسود التى كان يُلْقى فيها قياصرة روما بمن يريدون لهم موتا رهيبا يمزَّقون فيه إرْبًا إرْبًا وتجوَّل صاحبى فى روما ورأى بها طائفة من التماثيل، بينها تمثال غاريبالدى موحِّد إيطاليا فى القرن التاسع عشر. ودخل الحىَّ البلدى، ورأى مخبز الفَرَّانة التى كان يغازلها رافاييل، ورأى على بعض تلال روما - وكانت أقيمت قديما على سبعة تلال - هرما قزما أقيم محاكاة لأهرامات مصر الشامخة. ولاحظ أن حوائط المطاعم تزينها دائما رسوم تاريخية، وأن النُّدُل (الجرسونات) فى تلك المطاعم يلبسون ملابس الرومان العتيقة.

وغادر صاحبى مع رفاقه فى الوفد روما إلى ڤيينا ونزلها فى المساء وتجوَّل فى بعض شوارعها، وتناول العشاء مع رفاقه فى أحد مطاعمها، وفى الصباح توجَّه معهم إلى المطار ليأخذوا طائرة شرقية تنقلهم إلى رومانيا. واقترب منه أحد المسافرين إلى الغرب وتحدث إليه ولما عرف أنه مصرى سأله عن وجهته مع رفاقه فلما ذكر له أنها رومانيا وروسيا ظهرت على وجهه سمات التعجب، لأن مصر حتى هذا التاريخ لم تكن قد وثَّقت علاقاتها بروسيا والدول التى تدور فى فلكها. ونزل مع رفاقه بوخارست عاصمة رومانيا ووجدوا فى استقبالهم مندوبين عن وزارة الثقافة الرومانية وعن اتحاد الكتَّاب هناك، وصحب هؤلاء المندوبون الوفد إلى فندق أثينا المطل على ميدان الجمهورية والمحفوف بقصور الأسرة الملكية السابقة، وقد استحالت متاحف للجمهور، ليشاهد - تحت بصره - مدى

استغلال تلك الأسرة له.

وفى أول يوم له فى رومانيا زار مع رفاقه وزارة الثقافة الرومانية وتحولوا منها إلى مشاهدة مطبعة الدولة وهى تطبع بعض الصحف وكتب جميع المدارس والمعاهد ومجلات مختلفة للأطفال والعمال والفلاحين ولفتت صاحبى دار حضانة ملحقة بالمطبعة لأطفال العاملات بها، وهى معدة للأطفال إعدادا كاملا، فلكل طفل مهده الخاص وصوانه أو دولابه. وتستقبل الدار الأطفال حين يبلغون من العمر تسعة أشهر، ويظلون بها إلى سن الرابعة، ومنها يلتحقون بمدارس رياض الأطفال. وعادة يأخذ الأمهات العاملات أطفالهن مساء كل يوم أحد، وهو يوم إجازتهن وعطلتهن، ويعدن بهم إلى دار الحضانة صباح يوم الاثنين.

وفى اليوم التالى ذهب مع رفاقه للفرجة على مدينة السينما: وشاهد بها منظرا من «فيلم» كان يُعَدّ للإخراج عنوانه: «القلعة المحطمة» وأعيد المنظر أمامه مرارا، وقالوا إن هذه الإعادة تتكرر أحيانا عشرين مرة. وغادر مدينة السينما إلى قصر ملكى بجوار بوخارست تحوَّل إلى بيت

للأدباء، وفيه يقيم دائما نفر منهم فترة لإنجاز بعض أعمالهم الأدبية، والتقى فيه صاحبى بأديبة متقدمة فى السن، وذكرت أنها تقيم، فى هذا البيت منذ أربعة أشهر، وأنها أنجزت به مسرحية هى السابعة فى إنتاجها الأدبى أو بعبارة أدق فى إنتاجها المسرحى. وفى المساء زار مع رفاقه إدارة المسرح القومى، وسُئِلَ مديره عن المسرحيات التى يقدِّمها المسرح للجمهور هل هى مترجمة أو مؤلفة؟ فقال: إن نسبة الترجمة لا تزال عالية بالقياس إلى التأليف وقال إن الدولة تعنى بتشجيع التأليف بإتخاذ بيوت للأدباء ينزلون فيها كالبيت الذى زرتموه، وفيها تقدَّم لهم كل أسباب الراحة أثناء تأليفهم لأعمالهم الأدبية، وبجانب ذلك تكافئهم الدولة مكافآت سخية على ما يُنْجزونه من تلك الأعمال. وذكر أن عندهم معهدا كبيرا للمسرح والسينما يتلقَّى من يمثلون فيهما دراسات موحَّدة، وقال: إن الدولة تهتم بالمسرح اهتماما كبيرا لما له من دور مهم فى الثقافة، وذكر أن ثمن تذاكر الدخول فيه لا يرتفع كثيرا عن ثمن تذاكر السينما، لأن المسارح كلها ملك للدولة، وليست مؤسسات تجارية تبغى الربح، وهى لذلك ليست لمجرد التسلية وإنما هى للتثقيف والتهذيب.

وفى اليوم الثالث زار مع رفاقه دار اتحاد الكتَّاب، وهى قصر أنيق، فيه يعقد الكتاب اجتماعاتهم وندواتهم، وبه قاعة واسعة لمحاضراتهم ولعرض بعض الأفلام السينمائية، وسئل مُسْتَقْبِلهم عن اتجاهات الأدب عندهم، فقال إنه أدب هادف فى خدمة الثورة ولكنه لا يتنكر لجمال الصياغة، وسُئل عن حركة الترجمة من الآداب العالمية إلى الأدب الرومانى المحلى، فقال إنها نشطة ومتنوعة ومستمرة حتى لا تنقطع صلتهم بالآداب العالمية، وسُئِلَ عن حرية الكاتب عندهم، فقال إنها فى ازدياد، إذ كان لابدَّ أن تقيَّد بعد الثورة الشيوعية وأن تجنَّد الأقلام لتأييد الثورة.

وتحوَّل مع رفاقه من هذه الدار إلى الفرجة على بيت للرواد، وكان قصرا ملكيا، وبه حديقة كبيرة، ويختار له تلاميذ من سنّ التاسعة إلى الرابعة عشرة حيث ينمّون - فى أوقات فراغهم من دورتيهم التعليميتين فى المدارس الصباحية والمسائية - مختلف هواياتهم العلمية والصناعية والفنية مثل صناعة السيارات والنجارة والأشغال اليدوية، ومثل التعرف بدقة على جهاز التليفون وكذلك على جهازى الراديو والتليفزيون، مع القيام ببعض التجارب كيماوية وغير كيماوية.

وبالبيت حجر مختلفة للمكتبة وللموسيقى، ولهواة القصة حجرة خاصة بها مقعد كبير لأديب يجلس عليه ويقص على الناشئة بعض الحكايات القصيرة. وبالبيت أيضا حمام سباحة، وساحة كبيرة للألعاب الرياضية، وبه مسرح فى الهواء الطلق، والمقاعد فيه مستقيمة ومستديرة مثبَّتةٌ وليس لها مسند خلفى، وبالبيت حديقة بها بعض الحيوانات ومزرعة صغيرة لتدريب التلاميذ على زراعة نباتات مختلفة.

وزار مع الوفد المرافق له الأكاديمية الرومانية، وهى - على غرار الأكاديمية الروسية - مكونة من ثمانى شعب، أكثرها للعلوم، وزار أيضا نقابة المعلمين، وعرف أن اشتراك العضوية بها حينئذ واحد فى المائة من المرتب وأن مجلس إدارتها يشارك فى وضع لوائح التعليم ومناهجه، وقالوا إنهم قضوا على الأمية فى رومانيا قضاء مبرما، فسألهم كيف تمَّ لهم ذلك؟ قالوا إن جميع أفراد الشعب أسهموا فى ذلك، إذ فُرض على كل قارئ أن يعلم واحدا أو اثنين من أفراد الشعب، كما فرض على جميع النقابات والمؤسسات والهيئات أن تتولى كل منها مكافحة الأمية بين جميع المنتمين إليها، وبذلك تخلصت البلاد من الأمية نهائيا.

وشدَّ الرِّحال مع رفاقه إلى مدينة «كلوش» بمنطقة ترنسلفانيا فى الشمال الغربى لرومانيا، وهى مركز ثقافى مهم، وبها جامعتان، ونصف سكانها من الرومان والنصف الثانى من المجر، وبها أقلية ألمانية. وشاهد هو ورفاقه بها حديقة نباتات وأشجار تحتل نحو عشرين فدانا وهى مقسمة إلى مناطق بحسب النباتات محلية وعالمية، ودخل حوضا للنباتات الحارة كانت درجة الحرارة فيه مرتفعة جدا. وزار فى نفس المدينة متحف الأجناس، وهو يضم نماذج من آلات الزراعة والصيد، كما يضم أوانى منزلية وأدوات نسيج وصناعات صغيرة سوى ملابس الجنسيات المختلفة فى كلوش. وقضى المساء فى المسرح القومى، وكان برنامجه فكاهيا غنائيا، وكانت المشاهد فيه تدور على نقد ساخر للإدارات المشرفة على شئون الجمهور وعلى مَرافق المدينة. وتتعاقب المشاهد، وفى أحدها أناس يشكون من الروتين الحكومى وتعطيله لمصالح الشعب، وفى مشهد ثان يجرى حوار بين تلميذ وتلميذة، وتسأل التلميذة صاحبها عن عدد الصحارى الموجودة فى العالم، فيعدد لها بعض الصحارى، ويضيف إليها شارع مولوتوف أحد شوارع المدينة، ويقول لها: إنه يدخل فى عداد الصحارى لأن الإدارة المحلية لا تُعْنَى بغرس الأشجار فيه ولا بتزيين أرصفته. وفى مشهد ثالث يسخر أحد المواطنين من النظام النيابى عندهم وما يجرى فيه من معارك انتخابية، حيث يسرف المرشَّحون فى الوعود للجماهير حتى إذا نجحوا لم يحققوا لها شيئا مما وعدوها به. وفى مشهد رابع يظهر ملك قديم للمدينة من ملوك عصر النهضة يسمى ماتياس، وكان مجريا، واشتهر بأنه كان مصلحا، وله فى المدينة تمثال، ويُرَى فى المشهد نازلا عن تمثاله لينبِّه الجمهور إلى بطء الإدارة المحلية فى تنفيذ المشروعات الضرورية للمدينة، ويتوارى عن المسرح قليلا، ثم يعود وقد شهر سيفه فى يده معلنا أنه سيقطع به رقاب المسئولين إذا لم يسرعوا فى تنفيذ تلك المشروعات.

وفى الصباح رافق وكيل المجلس الشعبى صاحبى وزملاءه إلى المكتبة العامة، وهى أيضا مكتبة الجامعة، وقال إن بها مليونا ونصفا من الكتب، وبها للقراءة والاطلاع سبع صالات تشتمل على ٦٥٠ مقعدا، وبها مخطوطات قديمة كثيرة، وقال إنها تبلغ خمسة آلاف مخطوط، منها خمسمائة مخطوط عربى. وانطلق مع رفاقه بعد زيارة المكتبة العامة لزيارة المجلس الشعبى حيث كان ينتظرهم بعض أعضاء اللجنة التنفيذية

لمقاطعة كلوش وبعض الكتاب والصحفيين والأساتذة الجامعيين وكان بينهم أستاذ القانون الدستورى فى الجامعة وسُئل عن نظام القبول للجامعة، فقال: إن الطلبة عادة يؤدون امتحانا للقبول فى أربعة مواد، فمثلا فى كلية الحقوق يمتحن الطلبة قبل التحاقهم بها فى اللغتين الرومانية والروسية وفى تاريخ رومانيا وفى الدستور الرومانى. وقبل التحاق الطلاب بكلية الآداب يؤدون امتحانا فى اللغتين السالفتين وفى تاريخ رومانيا وأيضا امتحانا فى مادة التخصص.

وعاد ورفاقه إلى بوخارست، وزاروا بها معهد الفولكلور أو الفنون الشعبية، واستقبلهم مديره، وهو أستاذ كرسى الموسيقى فيه حينئذ وسُئل عن تاريخ المعهد، فقال إنه تأسس سنة ١٩٤٩ وكانت عنايته أولا منصبة على تسجيل القطع الغنائية، وقال إن به منها محفوظات نفيسة كانت لدى جمعية المؤلفين الموسيقيين منذ سنة ١٩٢٨. ثم قال: إن المعهد وسَّع اختصاصه، فلم يقتصر على الأغانى الشعبية، بل ضمَّ إليها الأدب والرقص الشعبيين، وذكر أن المعهد به (حينئذ) ستون ألف قطعة شعبية: وقال: عادة تسجَّل القطع الغنائية الشعبية على أشرطة أو على أسطوانات. أما الرقص الشعبى فيسجل

على أفلام، وقد يُسْتَخدم الرسم لتسجيل الأوضاع فيه. وذكر المدير أن المعهد ليس فيه دراسة، وإنما فيه مجموعة كبيرة من المسجِّلين مختلفى التخصص فى الفنون المتنوعة. وقال إن المسجِّلين يذهبون عادة إلى الحفلات والأعراس لتسجيلها كما يذهبون إلى المآتم والجنازات، وإذا سجَّلوا حَفْلًا سجلوه بكل ما فيه من موسيقى وأغان ورقصات، ولكل أغنية بطاقة توضح مضمونها، وهل غُنِّيت أو مُثِّلتْ أو اقترنت برقص؟ وأين تعلمها منشدها؟ ومتى سمعها؟. ولكل صاحب أغنية بطاقة تشتمل على الاسم والعمر والوضع الاجتماعى وعمَّن أخذها وتلقَّاها، وإذا سبق له سماعها من أكثر من مغن أو منشد سُجِّل ذلك فى البطاقة وحدَّد مكان سماعه لها وزمانه. وتدوَّن مع كل أغنية العبارة الموسيقية الأولى ويدوَّن الرَّقيم الموسيقى (النوتة الموسيقية) الذى يصحبها كلما أمكن ذلك. وسئل مدير المعهد كيف تتأكدون من أن الأغنية شعبية؟ فقال إن المعهد لا يسجِّل إلا ما غناه الشعب وأصبح فعلا من تراثه، وقال إن المسجل للأغنيات حين يذهب إلى إحدى القرى ليسجل بعض أغانيها الشعبية يجتمع له أهلها ويغنى المغنى – أو المغنية – أمامهم ليشهدوا بأن الأغنية شعبية،

وبذلك يكون الشعب رقيبا على تراثه. وقال المدير: إنه يوجد فى القرى عادة مغنيات ونائحات. وأسمعهم أغنية مرحة لشيخ يقول فيها: «ليتنى أتحوَّل إلى لعبة خشبية تتقاذفها بعض الشابات، وإنى لأحسد الشبان العُزَّاب لأنهم يمرحون دائما مع الفتيات، وإنى لشيخ ومع ذلك نحن الشيوخ تستهوينا التفاحات الجميلات». وقال المدير إن للمعهد مجلة تنشر ما يسجل من أغان ورقصات شعبية، وتصدر المجلة أربع مرات فى السنة، فهى مجلة فصلية، وقال إن فى المعهد قاعة قراءة وقاعة استماع، ودائما المسجلات الصوتية تحت تصرف الزائرين لسماع ما يريدون من غناء وموسيقى شعبيين. وذكر أن بالمعهد فهارس لكل فن من الفنون الشعبية، وأضاف أنهم يهتمون بالفنون الشعبية الخاصة بالأقليات مثل الصِّرْب والألمان والمجر والتتار والترك، وكانت بالمعهد حينئذ فتاة تركية من كونستانزا تغنى أغانى تركية شعبية، وكانوا يسجلونها لها على أسطوانات.

وشاهد بجوار بوخارست متحف القرى، وهو متحف تاريخى لقرى رومانيا، به مجموعة كبيرة من المنازل الخشبية الأثرية نقلت من مواطنها، وأقيمت - فى هذا المتحف - كما كانت بنفس صورتها وهيئتها، وكل منزل فيها يمثِّل بيئة من بيئات رومانيا. وأول منزل زاره منزل بُنى سنة ١٧٨٠، وحوله سوره وهو من خشب البلوط، والمنزل مؤلف من غرفتين بينهما ردهة أو صالة، وكل ما كان به من أدوات لا يزال موجودا مثل أدوات النسيج ومغزله، وبين الأدوات مصباح يماثل «لمبة الجاز» التى كانت معروفة فى القرى المصرية إلى عهد قريب. وجميع الأوانى مزخرفة، وبالمنزل مهد لطفل مشدود ببعض الحبال، وبه مجموعة من الثياب بينها ملابس للنساء واسعة جدا سواء الداخلية كالقمصان، أو الخارجية كالبنطلونات والسراويل، وكانت المرأة تلبس فى الشتاء «حرملة» منسوجة من صوف أو من وبر الغنم، وبالمنزل قدور مختلفة وميزان وعقد التملك، وبجوار المنزل بئر، وهو يمثِّل بيئة الغابات الشمالية. ودخل منزلا ثانيا من جنوبى ترنسلفانيا لراعى غنم وبه سرير ومجموعة من عصىّ المغازل وحزام للراعى من جلد عريض ومجموعة من ملابس الرعاة التقليدية فى ترنسلفانيا. وتحوَّل إلى منزل ثالث من جنوب جبال الكربات بُنى سنة ١٨٧٥ واسم صاحبه مكتوب على الحائط الخارجى بجانب الباب على ارتفاع غير قليل من

الأرض، وقد زُخرفت أعمدة المنزل وأخشابه الخارجية زخرفة بديعة، وفى ردهة المنزل مدخنة وأصونة أو دواليب وقدور مزخرفة وحجرة للنوم وحجرة للضيوف وملابس مزركشة. وزركشة الملابس مشهورة فى هذه البيئة من قديم، أشاد بها هوميروس، إذ كان يعجب بتطريز نساء تراقية للثياب، ومعروف أن تلك المنطقة التى تشغلها رومانيا الآن استعمرها اليونان والرومان قديما.

وركب مع رفاقه الطائرة من بوخارست إلى كونستانزا على البحر الأسود، ونزلوا فى فندق كبير على شاطئ ماميا، على بعد تسعة كيلو مترات من كونستانزا، وفى طريقهم إليها استوقفهم تمثال للشاعر اللاتينى: «أوفيد» الذى نفاه الرومان إلى تلك المقاطعة، وقد كتب على قاعدة تمثاله: «هنا يرقد شاعر الحب والشباب: عبقرية خالدة، كان يسمى أوفيد ذا الأنف الأشم، وحرىّ بك أيها المارّ الذى عرف الحب أن تدعو له: أن يخفف الثَّرى وطأته عليه، وتحت هذه الأبيات مصدرها وهو الجزء الثالث من ديوانه: «الأحزان». وكان أوفيد يعيش فى القرن الأول قبل الميلاد، وكانت «كونستانزا» حينئذ تسمَّى توميس، وتَغنَّى أوفيد طويلا بالحنين إلى وطنه.

وزار مع رفاقه مزرعتين بجوار كونستانزا إحداهما حكومية وتسمى: «سوفْ خوز» والثانية تعاونية وتسمى: «كولْ خوز». وسأل صاحبى المرافق لهم عن أى المزرعتين إنتاجها أكثر، فقال إن إنتاج المزرعة الجماعية أكثر، لأن الفلاح فيها لا يأخذ أجرا من الدولة مثل الفلاح فى المزرعة الحكومية، إنما يأخذ نسبة من المحصول الذى يحصده، وهى تقدَّر بحسب وحدات عمله وإنتاجه، مما يدفعه إلى زيادة كدِّه وكدحه فى العمل،وبالتالى يزيد إنتاجه وتزيد نسبته منه تبعا لذلك. وسُئل عن النظام فى المزارع التعاونية، فقال إن الفلاحين فيها أربعة أنواع: أجير وكبير وصغير ومتوسط، والتوسط والصغر والكبر بحسب القطعة التى يزرعها الفلاح ومقدار مساحتها بالهكتار، وهو عشرة آلاف متر مربع، وتدفع المزرعة للدولة ضريبة محددة عن كل هكتار، وتسدِّد المزرعة أثمان البذور والسماد اللذين أخذتهما من الهيئة الحكومية، كما تسدِّد أجرة الآلات التى استأجرتها من محطة الجرَّارات، وتسعون فى المائة من العمل الزراعى تقريبا آلى. ويُخصَّص من المحصول العام اثنان فى المائة لصندوق الإعانات الخاص بالمسنِّين والعاجزين عن العمل. ويمر بالمزرعة طبيب بيطرى،

وبالقرب منها مستشفى صغير لرعاية الفلاحين صحيا، وبها مدرسة أولية لتعليم الناشئة، وبها أيضا معمل للَّبَن. والمزرعة الجماعية - بذلك كله - أشبه بقرية. وذكر المرافق أن مساحة المزرعة الجماعية التى زاروها تسعمائة وخمسة وأربعون هكتارا، وكان بها حينئذ نحو تسعين أسرة. وأمضوا فى كونستانزا يومين وعادوا إلى بوخارست.



٤

وفى اليوم الثانى من أكتوبر انتهت زيارة صاحبى ورفاقه لرومانيا وبارحوها إلى موسكو، ونزلوا فى فندق مسمًّى باسمها، وفى اليوم التالى ذهبوا إلى اتحاد الكتاب، وأُخذت لهم فيه صور بجانب تمثال تولستوى، ولقيهم نائب سكرتير الاتحاد الخاص بالتبادل الثقافى، ورحب بهم، وعرَّفهم بأمناء الشُّعَب المختلفة للاتحاد، وسرعان ما جاء سيمانوف القائم بأعمال الأمين العام للاتحاد، وأخذ يشرح لهم تكوين الاتحاد ووظيفته، وذكر لهم أن الكاتب فى الاتحاد يشمل الشاعر والقصاص والمسرحى وكاتب السيناريو والناقد والمترجم، وقال إن للاتحاد مجلات ودور نشر خاصة، ويخصم للاتحاد من دخل كل كاتب عشرة فى المائة، ويبلغ عدد أعضائه (حينئذ) نحو أربعة آلاف يكتبون بالروسية أو بلغاتهم القومية المحلية،

وذكر أن كل جمهورية فى الاتحاد السوفيتى يدرس تلاميدها لغتين: اللغة المحلية واللغة الروسية، وقال إن فى كل جمهورية اتحادا فرعيا للاتحاد العام وينوب عنه فيه ممثل ينتخبه أعضاء الاتحاد الفرعى. وذكر أن للاتحاد لجنة مركزية مؤلفة من مائة وثلاثين كاتبا ينتخبون من بينهم مجلسا للرياسة يضم أربعين كاتبا يختارون كل أربع سنوات. ووظيفة الاتحاد القيام على أعمال الكتّاب وتيسير مصايف وبيوت راحة واستشفاء ومساكن جماعية لهم، ولا يُقْبَل فى الاتحاد إلا من كانت له مؤلفاتٍ مطبوعة ذات قيمة أدبية أو ثقافية، وتبحث طلبه اللجنةُ المركزية، وهى التى تقرر قبوله أو رفضه. وفى المساء شاهدوا أوبرا روسية لتشايكوفسكى، نظم أشعارها بوشكين، وهو عند الروس مثل شوقى فى مصر لعذوبة لغته.

وفى اليوم الثالث زار مع رفاقه معهد اللغات الشرقية، ورحب بهم أساتذته المشرفون على الدراسات فيه، وحدثوهم عن نشاطهم ونشاط أسلافهم فى ترجمة كثير من الكتب العربية القديمة والحديثة وكثير من الأشعار والأقاصيص، وأروهم ترجمة لكليلة ودمنة ولألف ليلة وليلة ولثورة سنة ١٩١٩ لعبد الرحمن الرافعى ومجموعتين من الشعر المصرى

الحديث والأقاصيص المصرية المعاصرة. وتناقش الأساتذة وبعض الطلاب معهم فى بحوث لهم تتصل بالأدب المصرى فى اللغتين: الفصحى والعامية، وأكد لهم أن الفصحى ستظفر بالعامية وتقضى عليها مهما طال الزمن

وفى يوم الجمعة صلّوا الجمعة فى مسجد للتتار العاملين بموسكو وبمجرد أن دخلوا فيه وعرفوا أنهم مصريون فسحوا لهم فى الطريق للصلاة بجانب المنبر، وكان واعظ يلقى موعظة باللغة الأوزبكية، ثم نهض الخطيب فافتتح خطبته الأولى بحمد الله والصلاة على رسوله الكريم، وتلا آيات من الذكر الحكيم وبعض الأحاديث النبوية، ثم أخذ يشرح الآيات القرآنية والأحاديث النبوية باللغة الأوزبكية ليفهمه سامعوه، والخطبة الثانية كانت عربية خالصة، وكذلك كانت الصلاة وصلى التتار المصلون ركعات السنة، ثم تلا مقرئ آيات وسورا قصيرة من القرآن. وأقبل الخطيب على صاحبى ورفاقه، فصافحهم، وهو أوزبكى ويجيد العربية، ووقف المصلون فى صفين متقابلين يحيونهم بتحية الاسلام: السلام عليكم، ولم يُسَرَّ صاحبى بشىء فى رحلته إلى رومانيا وروسيا كما سُرَّ بصلاته الجمعة فى مسجد التتار بموسكو، فهؤلاء

المسلمون يهتفون: الله أكبر، فى قلعة الشيوعية وعُقْر دارها، وكانوا يضعون أيديهم على ملابس إخوانهم المصريين الذين جاءوهم من جوار الحجاز ومدينتيه المقدستين، وكأنهم يلتمسون البركة.

وفى اليوم التالى حضروا باليه «كابيليا» وهو فى ثلاثة فصول، وفى فصله الأول تظهر الفتاة كابيليا مدلّهة بحب شاب من جيرانها، وكان بجوار بيتها مثّال تراءى له أن يعرف مقدار تأثير فنه فى الشباب، فوضع أمام نافذة بالدور الثانى من منزله تمثالا لفتاة رشيقة وبيدها كتاب مفتوح كأنها تقرأ فيه، وظن الشباب وصاحب كابيليا أنها فتاة حقيقية، فكانوا يغازلونها ويحاولون تقديم طاقات الورد إليها، وهى صامتة لا تجيبهم، ولاحظ المثّال ولوع الشباب وصاحب كابيليا بها، فوضع على نافذتها ستارة، فازداد ولوعهم، وكانت كابيليا تلاحظهم وتلاحظ صاحبها وتشتد غَيْرتها. وفى الفصل الثانى يخرج المثال فى صحبة بعض جيرانه، ويسقط منه مفتاح منزله فى غفلة منه، فتلتقطه كابيليا، وتصعد إلى المنزل مع بعض صواحبها محاولين مشاهدة تلك الفتاة، وتعتريهن ألوان من الخوف والفزع فى لقائها وتتجرأ كابيليا وتتقدم إليها

وتذهل إذ تعرف - ويعرف الفتيات معها - أنها دمية. ويعود المثّال إلى المنزل فتهرب الفتيات ماعدا كابيليا، إذ لا تعرف كيف تهرب، وتصارح المثّال بحقيقة الأمر، وفيما هى تحدثه ترى صاحبها صاعدا على سلم من الخارج وبيده صحبة ورد ليقدمها إلى صاحبة التمثال. ويجلس المثال كابيليا مكان الدمية، وبعد طائفة من المفارقات قدَّم الشاب طاقة الورد إلى كابيليا، وعرفها. وطلب منها الصفح، واتفقا معا على الزواج. وفى الفصل الثالث يعقد الشاب قرانه على كابيليا ويدخلان معا الكنيسة، وفى يده طاقة من الورود، ويدخل معهما عروسان، وتخرج كابيليا بعد العقد مبتهجة بزواجها، وترقص ويرقص معها نفر من الشباب، ويدوران على المسرح راقصين دورات كثيرة معبرين عن فرحهما، ويرقص مثلهما العروسان الآخران ويرقص فتيات وفتيان كثيرون، وينتهى الباليه.

ولم تَخْلُ ليلة لصاحبى ورفاقه فى موسكو من فرجة على باليه أو مسرحية، ومن طريف ما شاهدوه مسرحية مُثلت على مسرح العرائس، وكان موضوعها الغيرة، وتتألف من ستة فصول تتخللها استراحتان، وفيها تتعدد المشاهد، وتتحرك الشخوص على خشبة المسرح مستعينين على إخفاء محركيها

الذين تنطق بألسنتهم بستار قصير على المسرح يرتفع عنه نحو متر أو أكثر، وبذلك تصبح الدمى وكأنها شخوص حقيقية. والستارة الأمامية ترفع فى الفصل الأول، فنرى زوجين شابين يذاكران فى شقتهما استعدادًا لامتحان آخر العام فى الجامعة، ومن حين إلى حين يقترب الزوج من زوجته يريد أن يقبِّلها، فتقول له متلطفة: دَعْ ذلك الآن حتى نفرغ من الامتحان والمذاكرة، ودائما تَصُكُّ آذان الزوجين الشابين ألفاظ شجار بين زوجين يسكنان بجوارهما، كثيرا ما كان الخلاف يدبّ بينهما وتقول الزوجة الشابة لزوجها: استمع إلى هذين وكيف يعيشان سويا ولا ينفصلان. وكان الجار يغار أشد الغيرة على زوجته، وهى سبب الخلاف والشجار المستمر بينهما. وفى هذه الأثناء تدخل الجارة لتطلب من الزوجة الشابة قليلا من «صبغة اليود» وتقول لها معتذرة: ليس عندها منها شىء إذ لم يحدث لها ولا لزوجها أى جروح، وتعجب الجارة لأنها هى وزوجها كثيرا ما تحدث لهما جروح بسبب شجارهما العنيف. وكان زوج الشابة قد دخل الحمام غير أن الجار ظنَّ أنه لقى زوجته، وعادت زوجته إلى شقتها، فسألها الزوج - والغيرة تأكل نياط قلبه وشررها يتطاير من عينيه - أين

كنت؟ وتفتح صوانا أو دولابا وتختبئ فيه خوفا منه، وينطح الصوان برأسه مرارًا. وتخرج منه زوجته ويتشاجران. وتفكر الزوجة الشابة فى زوجها وأنه لا يغار عليها، وتخترع فِرْيةً تقصُّها عليه كى تنعم بغيرته مثل نعيم جارتها بما يظهره لها زوجها من غيرة، ويخرج زوج الشابة من الحمَّام فتقول له كاذبة عليه: سأقص عليك أمرًا ولا تغضب، ثم تذكر له أنه حين تركها فى صيف العام الماضى لمدة شهر ونصف تعرَّفت على شاب وقبَّلها، فيقول لها: لا بأس، فتردف قائلة: قبَّلنى مرارا . حينئذ يغضب زوجها الشاب، ويدير صوان الملابس فى الحجرة، حتى يقسمها بينهما قسمين، وهو فى أثناء ذلك ينذرها ويتوعدها بأنها لن تراه أبدا. وتقول له: إذن نقسم الكتب. ويحاول أن يأخذ دواوين الشاعر بوشكين، فتقول له: كلا أعمال بوشكين لى وحدى ويسألها عن اسم من أحبَّته، فتذكر له اسما خياليا. وتستدل ستارة المسرح الأمامية، فى هذا الموقف الحرج. وفى الفصل الثانى يتراءى عامل تصادف أن اسمه نفس اسم الحبيب المزعوم، كان ينتظر زوجته للفرجة على «سيرك» وتقبل زوجته وتصادف أيضا أن كان اسمها جوليا نفس اسم الزوجة الشابَّة. ويدخلان السيرك، وكان قد

سبقهما إليه الزوجان الشابان. وما يلبث الزوج الشاب أن يسمع زوجة العامل تناديه باسمه، فيتبادر إليه خطأ أنه عشيق زوجته المزعوم، ويغضب ويتركها ويخرج منفعلا. ويرفع الستار فى الفصل الثالث عن حديقة بها شيخ كبير كان مدرسا، وكانت معه زوجته، وضلَّ كل منهما صاحبه. ويتراءى فى جانب من الحديقة كهل مخمور يلتقى بزوجة المدرس الضالَّة. وفى ركن من الحديقة تظهر الزوجة الشابَّة باحثة عن زوجها الغاضب ويراها الشيخ الكبير الضال فيقترب منها ويسألها: ما شأنها؟ ويسير وراءها فيطآن بعض الأزهار والحشائش وتراهما حارسة الحديقة، فتنفخ فى بوقها ويحضر شرطى، ويأخذهما إلى مركز الشرطة. وفى الفصل الرابع نراهما فى المركز ويخرجان، وتدخل سيدة ضامَّة إلى صدرها رضيعا وجارَّة معها طفلا، وتذكر أن زوجها هارب ممن طلبوه للتجنيد وأن لها ابنا ضلَّته فى الحديقة، ويقول لها الضابط فى المركز: إنه سيخبر الإذاعة عن زوجها الهارب وابنها الضال، حتى تُذيع نشرة عنهما لعل أحدا ينبئها بخبرهما. وتدخل امرأة الشيخ الضال تسأل عن زوجها، ويقول لها الضابط: سأبلغ عنه الإذاعة. ويعود المشهد فى الفصل الخامس إلى

الحديقة، ويتراءى فيها الزوج الشاب الغيور وزوجته يسألان الولد الصغير الضالّ عن باب الخروج من الحديقة وكانت مكتظَّة بالأعمدة فيقول لهما: لن أدلكما عليه إلا إذا أعطيتمانى من النقود ما أشترى به تذكرة لدخول السينما، ويعطف عليه الزوج ويعطيه بعض ما سأل. ويلتقى الولد الضال بأبيه ويهرب منه، ويتبين أن الأب هو الرجل المخمور السابق ذكره. ولا تزال زوجة الشيخ المدرس تبحث عن زوجها وتلتقى بالولد الضال وتسأله عن باب الخروج من الحديقة، ويطلب منها بعض النقود ليدلها عليه فتنهره. وفى الفصل السادس يلتقى الشيخ المدرس بزوجته ويظهر الزوجان الشابان وتقول زوجة المدرس الشيخ لزوجها، وقد رأت الزوجة الشابة: أهذه هى الفتاة التى أحببتها؟ وماذا فيها حتى تحبها وتتركنى؟ لابد أنها تحسن طهى الطعام خيرا منى، ويظهر العامل وزوجته، وكانت قد غضبت، لأنها رأت الزوج الشاب يتهمه بحب زوجته الشابة. وتعود إلى الزوج الشاب حُمَّى الغيرة، فيقبل عليه المحبوب الوهمى ويقنعه بأنه لا علاقة له بزوجته. ويقبل الشيخ المدرس على الزوجين الشابين موجها إليهما الحديث قائلا: إن الحياة مليئة

بالصعاب، ولابد أن تتعاونا فيها ويساعد كل منكما صاحبه فى عبورها، وتُعجب به زوجته لحكمته وحصافته. ويقبل كل زوج على زوجته راضيا باسما. وبذلك تنتهى المسرحية التى مثلتها دُمىً كأنها شخوص حقيقية.

وزار مع رفاقه بعض المدارس فى موسكو، ورآهم فى مدارس الأطفال يهتمون بتعليمهم بعض الأشغال اليدوية، وبعد السنوات الأربع الأولى يختلف التلاميذ إلى ورش محدودة لتعليمهم بعض أوليات الصناعة والزراعة، حتى إذا أصبحوا فى المدارس الثانوية وجدوا بها «ورشا» تطبيقية للنجارة والحدادة والميكانيكا والكهرباء، وتلحق بالمدرسة قطعة صغيرة من الأرض لتدريب من يرغب من التلاميذ فى معرفة كيفية الزراعة. وبذلك يُعَدّ التلاميذ إعدادا فنيا ليكونوا نافعين لأنفسهم فى البيت وفى الحياة إذ لا يخرجون من التعليم الثانوى إلا وقد عرفوا كيف يسوقون السيارات، وتعرّفوا على أجزائها حتى يمكنهم أن يصلحوا أى عطل فيها، وأيضا على أجزاء الراديو والتليفزيون وتركيبها جميعا حتى يصلحوا ما قد يصيب أحدها من خلل.

ومن أطرف ما يشاهد فى موسكو المعرض الزراعى الصناعى، وهو يشغل مساحة كبيرة، وبوسطه نافورة ضخمة تمثل جمهوريات الاتحاد السوفيتى السبع عشرة، إذ لكل جمهورية تمثال لفتاة منها بملابس جمهوريتها الوطنية، ولكل جمهورية دار عرض خاصة بمنتوجاتها المتنوعة. وهى تمثل جمهوريتها أيضًا بشكل بنائها وما يقام أمامها من أعمدة وعلى واجهتها من تماثيل، وتتميز أبواب الجمهوريات الإسلامية بأنها تشبه أبواب المساجد وما ترصَّع به من بعض الزخارف، ودائما على الحيطان الداخلية لدور العرض صور لأبناء الجمهورية الخاصة بها بملابسهم الوطنية، وفى داخل كل دار خريطة مجسمة لمنتجات جمهوريتها ونماذج مصغرة لمصنوعاتها ومنتوجاتها من حبوب وثمار وفواكه، ومع كل نوع منها لوحة بنسبة إنتاجه فى حقله، وهنا وهناك حيوانات الجمهورية الداجنة محنّطة.

وزاروا الكرملين، ورأوا أمامه ساحة واسعة جدا، ويمتد حوله سور به أضرحة لزعماء روسيا، وعلى ظاهره من الخارج شواهد بأسماء الشخصيات المدفونة بجواره. وبناء الكرملين مقسوم ثلاثة أقسام: قسم للمتحف، وقسم لمجلس السوفيت الأعلى واللجنة المركزية، وقسم لدوائر الحكومة،

وقد بدأ الروس بناءه فى القرن الحادى عشر، وظلوا يضيفون إليه ملاحق جديدة حتى القرن الخامس عشر الميلادى. وعلى السور أبراج ذات رءوس تشبه المسلات بُنيت قديما للحراسة. وللكرملين مدخلان كبيران أحدهما للسيارات والثانى للمارة، ودخل مع رفاقه المتحف، وهو مكوَّن من دورين: أعلى وأسفل، وصعد إلى الدور الأعلى على سلم عريض من الرخام، ورأى فى أعلاه مرآتين كبيرتين مزينتين بالتماثيل، كما رأى ساعة كبيرة على مقعد مزخرف.. وكان أول ما شاهده فى هذا الدور دروع الفرسان النحاسية وغير النحاسية، ورأى خوذة - خالها تركية - كُتب فى أعلاها: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وكُتبت فى وسطها آية الكرسى فى شكل دائرى. وشاهد كثيرا من أسلحة القرون الماضية: سيوفا وغير سيوف، مقابضها محلاة بالجواهر، كما شاهد قسما خاصا بالساعات، وقسما خاصا بثياب رجال الكنائس المزركشة وبالكتب المقدسة مرصَّعة بالجواهر واللآلئ، ومعها صور للعذراء وابنها ولبعض القِدِّيسين. ويزخر هذا الدور العلوى بأوان لا حصر لها ذهبية وفضية وبعضها مهدى من الدول إلى القياصرة حملها إليهم سفراؤها، وتمتد التواريخ على التحف ابتداء من القرن

الخامس عشر الميلادى. وكأنه لم يضع شىء مما كان فى قصور القياصرة أثناء الثورة الروسية الدامية. وتكثر الشمعدانات والتماثيل المتخذة من سن الفيل للأسد والصقور، وفى ركن من هذا الدور أوانى بطرس الأكبر الذهبية.. وشاهد فى الدور الأسفل ملابس القياصرة ونسائهم وفتياتهم محلاة بالذهب والفضة ومجموعة من كراسى العرش القيصرى، وهى مذهبة، وعلى بعضها تيجان مرصَّعة بالجواهر، وبينها عرش إيفان الرهيب فى القرن السادس عشر وعرش بطرس الأكبر، كما شاهد مجموعة كبيرة من عربات القياصرة منسوبة إلى من كان يركبها منهم أو من نسائهم، محلاة بالتماثيل ورسومات الأزهار، وبينها عربة كبيرة يجرها ستة من الخيول مجسمة أهداها الملك فريدريك الثانى الألمانى إلى بنت بطرس الأكبر، وهو أول من ترك الكرملين إلى لينينجراد، ولذلك كانت تسمى قبل الثورة الشيوعية «بطرسبرج» وقد أحال الكرملين إلى متحف ومركز للأداة الحكومية فى موسكو. وعلى هذا النحو يحتفظ متحف الكرملين بتراث القياصرة على مر الزمن.

وكانت فرصة ممتعة له أن ركب الطائرة مع رفاقه لرؤية «طشقند» حاضرة أوزبكستان الجمهورية الإسلامية فى

أواسط آسيا، واستغرقت الرحلة إليها أربع عشرة ساعة تخللتها استراحات قصيرة للطعام أو للراحة فى أحد المطارات. ونزلوا طشقند، وفى اليوم التالى حضروا مؤتمر المثقفين، وحيَّاهم الخطباء، وعرفوا أن عدد سكان المدينة - حينئذ - كان نحو المليون منهم عشرين فى المائة من الروس. وزار مكتبة معهد العلوم الشرقية، وسألوا القائمين عليها عن أهم المخطوطات العربية عندهم، وأطلعوهم على مخطوطة قيمة للجزء الأخير من كتاب تجارب الأمم لابن مسكويه تبتدئ بسنة أربعمائة، وقد كتبت سنة ٥٩١ للهجرة.

وصلُّوا الجمعة فى أكبر مساجد طشقند، وكان غاصا بالمصلين، واستقبلهم الإمام بعد الصلاة، وهو مفتى أوزبكستان، وذكر لهم أنه تعلم بديار الشام، وقال إن هذا المسجد تلحق به مدرسة دينية، وسألوه: هل نستطيع زيارتها؟ فقال: إن مدرسيها وطلبتها مشغولون الآن بجمع القطن، وطلب صاحبى منه الاطلاع على برامج تلك المدرسة، فانتقل معه ومع رفاقه إليها، واطلع على تلك البرامج، فرآها تشتمل على العلوم الدينية واللغوية والدستور الأوزبكى وعلى اللغة الروسية، وهى إجبارية فى جميع صور التعليم هناك.

وأوزبكستان - كما مرَّ بنا - جمهورية إسلامية، والزواج عندهم يتم بين العروسين المسلمين بعقد مدنى، ثم يُدْعَى شيخ إلى البيت، ويعقد القران على الطريقة الشرعية الإسلامية. وطلب صاحبى زيارة قبر ابن القفَّال الفقيه المشهور الذى نشر مذهب الإمام الشافعى فى تلك الديار، وكانت تسمى قديما بلاد ما وراء النهر أو بلاد الشاش، ورأى مقبرة ابن القفال فى زاوية صغيرة عارية من الحُصْر وأمامها زير ماء، وقالوا إن أحفاده هم الذين يعنون بالزاوية.

وحضروا فى طشقند استعراضا راقصا، شاهدوا فيه الرقص الأوزبكى المحلى وبعض مناظر تمثيلية، وذكروا لهم هناك أن القُبَل ممنوعة منعا باتًّا على خشبة المسرح عندهم، ورأوا دائما النساء والفتيات فى الرقص والتمثيل يلبسن الملابس الوطنية: فساتين واسعة تحتها سراويل طويلة. وتهيِّئ كثرة الحرير عندهم للراقصات والممثلات زركشة ثيابهن، وأكثر الرجال يحافظون على الزىّ القومى. ولا تزال الآلات الموسيقية العتيقة - منذ العصر العباسى - موجودة لديهم: الناى والسرناى، والجنك والعود بأنواعه، والطنبور وأوتاره من الحديد، والجيتار وأوتاره من الجلد. والناى هو نفس مزمار

الغاب القروى المصرى، والسرناى أطول منه. وزار صاحبى بجوار طشقند مزرعة. والمزارع عندهم - مثل مزارع رومانيا والاتحاد السوفيتى عامة - نوعان: حكومية وتعاونية، وقالوا - كما قالوا فى رومانيا - إن المزارع التعاونية أوفر إنتاجا، لأن الزارع فيها يفيد من ثمرة جهده وكدحه، بخلاف المزارع الحكومية فإن الزارع فيها يأخذ راتبا محدَّدا.

وزار مع رفاقه سمرقند، وهى المدينة الثانية فى جمهورية أوزبكستان، وكانت قديما عاصمة تيمورلنك، ولا تزال تغلب عليها الطوابع الشرقية، وشاهد صاحبى فيها مرصد أولغ بك حفيد تيمورلنك الذى أقامه سنة ١٤٢٨ للميلاد. وزار مع زملائه مقابر أسرة تيمورلنك، وهى تصطفُّ على شارع صاعد ممتد إلى ربوة عالية، وشاهد هناك قبر تيمورلنك. وأكثر المساجد الأثرية فى المدينة تهاوت إلا بقايا قليلة: حوائط أو بعض السقوف والقباب بسبب كثرة الزلازل فى المنطقة، والحيطان الباقية فى المساجد مزخرفة بالقيشانى وبكتابة بعض آيات الذكر الحكيم. وكان عدد سمرقند - حينئذ - نحو مائتى ألف، بينهم ثلاثون فى المائة من الروس وبعض اليهود. وعندهم أنواع النُّقْل المعروفة من اللوز والجوز والفستق

سوى الفواكه وخاصة العنب، ويُعَدّ أجود أنواع العنب فى الاتحاد السوفيتى.

وعاد مع رفاقه إلى موسكو فى منتصف أكتوبر، وزاروا كثيرا من المتاحف بينها متحف لينين، وهو يضم ثلاثا وعشرين حجرة فى دورين، وتمتلئ الحجر بصوره وبمقالاته وعمله للثورة منذ سنة ١٨٩٣ ومؤلفاته على مر السنين وجميع خطوات حياته وتنقلاته فى أوربا ورحلته إلى أمريكا وكل كبيرة وصغيرة تتصل به وبأسرته وأبويه وإخوته. ودعت صاحبى ورفاقه مكتبة الآداب الأجنبية لقضاء أمسية بها يلتقون فيها بطلاب معهد اللغات الشرقية والمعنيين بالأدب العربى الحديث، وقد تحدثوا أمام الإذاعة عن الأدب المصرى المعاصر، وكان الموضوع الذى تحدث فيه: «مركز الأدب المصرى بين الآداب العربية». ولم تكن تمر ليلة بموسكو إلا ويختلف فيها إلى أوبرا أو مسرحية، من ذلك أوبرا زواج فيجارو لموزار، وقد وضع قصتها قبيل الثورة الفرنسية بومارشيه، وأدخل المخرج الروسى على الأوبرا بعض التغييرات.

وزار مع رفاقه مدينة «ستالينجراد» التى صمدت للألمان،

وكان صمودها مؤذنا بهزيمتهم فى الحرب العالمية الثانية، وقد أمضى بها يومين، شاهد فيهما بعض المصانع وبعض المتاحف، كما شاهد فيلما يصور مقاومة المدينة الباسلة للألمان وبدأت المقاومة من تل منسوب إلى ماماى حفيد جنكيز خان، وكان يتخذ مدينة سراى على نهر الفولجا عاصمة له، وهى تبعد عن ستالينجراد نحو ثلاثين كيلومترا، واندثرت الآن تماما، وكانت موسكو تؤدى للتتار إتاوات سنوية حتى القرن الحادى عشر الميلادى. وعادوا إلى موسكو، ومنها ركبوا قطارا إلى «ليننجراد» وبها شاهدوا تمثال بطرس الأكبر أمام نهر نيفا، ومن حوله قصور باذخة، منها قصر الشتاء الذى أعلن منه لينين الثورة الشيوعية، وهو يموج بمخلفات القياصرة من فرش وسجاجيد وتماثيل وهو متحف ضخم تكثر قاعاته، وما بها من نجف ومن صور لكبار الرسامين الإيطاليين أمثال دافنشى ورافاييل وميكل أنجلو وغيرهم من رسامى النهضة الإيطالية.. سوى كثير من الآنية المذهبة وطقوم الشاى والقهوة والساعات الفضية المذهبة، وسوى قاعة العرش لبطرس الأكبر وهى من المرمر ورءوس أعمدتها من الذهب وكذلك نجفها، وبها خارطة كبيرة لروسيا مليئة بالأحجار

الكريمة لبيان طبيعة البلاد. وزاروا مكتبة ليننجراد، وهى مكتبة ضخمة وتزخر بمخطوطات عربية كثيرة. والتقوا فيها بزوجة كراتشكوفسكى أكبر مستشرقى الروس فى العصر الحديث، أحضروها للقائهم، وتحدثوا معها عن زوجها واهتماماته بدراسة الأدب العربى وبعلماء الجغرافيا من العرب، وعادوا إلى موسكو، وزاروا الجامعة ومبناها الفخم المؤلف من نحو ثلاثين طابقا.



٥

انتهت زيارة صاحبى ورفاقه للاتحاد السوفيتى فى التاسع والعشرين من شهر أكتوبر وركبوا طائرة روسية إلى كوبنهاجن، وباتوا بها. وفى الصباح طافوا ببعض شوارع المدينة ثم ذهبوا إلى المطار ليأخذوا طريقهم إلى الوطن، فقيل لهم: اختاروا أى بلد عربى آخر، فإن مصر أغلقت مطاراتها وموانيها لنشوب حرب بينها وبين إنجلترا وفرنسا وإسرائيل، واختار اثنان منهم ليبيا، واختار ثلاثة - بينهم صاحبى - بيروت. ونزلها فى اليوم الثانى من أيام العدوان الثلاثى الغادر، ونزل فى فندق متواضع، ووجد مصريين كثيرين اضطروا إلى النزول مثله فى بيروت. وكانوا جميعا يلتصقون بالإذاعات وقلوبهم معلقة بمصر وبمقاومتها الباسلة لأساطيل إنجلترا وفرنسا وتابعتها إسرائيل، وكانوا يريدون تطويق الجيش

المصرى فى سيناء، فأمرته القيادة بالانسحاب إلى القناة محبطة خطتهم، وتحولت مصر إلى ما يشبه معسكرا حربيا إذ حمل السلاح كل فرد فيها يريد أن يفدى الوطن بدمه وروحه. واستماتت بورسعيد فى القتال وأبادت غير فوج من أفواج المظلات الإنجليز حين حاولوا اقتحامها. وأنزلوا مصفحات ودبابات على رصيف دلسبس، فكبدهم البورسعيديون خسائر فادحة فى الأرواح. وأخذ العرب فى كل قطر يعلنون تضافرهم مع مصر فى معركتها الخطيرة، ونسف السوريون والأردنيون واللبنانيون أنابيب البترول الممتدة من العراق إلى البحر المتوسط، وتوقف تصدير البترول السعودى إلى الغرب، ولم تلبث فرائص المعتدين أن ارتعدت حين رأت أعناق عصاباتهم تُدَق دقا فى بورسعيد وعلى ضِفَّتى القناة، فانسحبوا مدحورين إلى البحر الأبيض وما وراءه.

وفى هذه الأثناء نهضت جماعة من الصحفيين والأدباء المصريين الذين نزلوا بيروت بإصدار طبعة من صحيفة الجمهورية هناك، وشاركهم صاحبى فى شرف هذا النضال الصحفى فى تلك الآونة، ونشرت له مجلة الرسالة بمصر - فيما بعد - إحدى مقالاته التى نشرها هناك، وكان عنوانها

«ستالينجراد» الثانية، قرَنَ فيها مقاومة بورسعيد لأساطيل إنجلترا وفرنسا إلى مقاومة «ستالينجراد» فى الحرب العالمية الماضية، وكيف أن المقاومتين جميعا قضتا على المغيرين المعتدين. وبجانب ذلك كتب مقالات فى المجلات الأدبية والعلمية اللبنانية، من ذلك مقالة بعنوان: «وعى جديد» نشرتها مجلة الآداب فى عدد خاص بالمعركة، صوَّر فيها كيف أن العرب أمة واحدة فى الدين والحضارة واللغة والتقاليد، فضلا عن وحدة المصير فى الغد المرتقب، وحقا تتعدد بلدانهم، ولكن تتحد مشاعرهم وعقولهم وأفئدتهم. وأخفق العدوان الثلاثى الغادر، وأعلنت الهدنة، فرجع صاحبى إلى القاهرة على أول طائرة مصرية غادرت بيروت.

وفى صيف سنة ١٩٥٧ احتفل المجلس الأعلى للآداب والعلوم والفنون بذكرى حافظ ابراهيم، وأقام لذلك مهرجاناً بفندق سان استفانو بالإسكندرية كان الداعى إليه رئيس لجنة الشعر فى المجلس الأستاذ عباس العقاد، وكان بين من دعاهم لإلقاء محاضرة فيه صاحبى، واختار موضوعا لمحاضرته: «دراسة شعر حافظ ابراهيم دراسة تاريخية» وفيها أوضح كيف أنه نشأ فى أسرة متواضعة وكيف اندلع إحساسه

بالبؤس فى نفسه منذ مطالع حياته ومنذ تدفق ينبوع الشعر على لسانه، وانتظم فى المدرسة الحربية وتخرَّج فيها، ورافق كتشنر فى حملته على السودان سنة ١٨٩٩ وثار عليه هناك مع بعض رفاقه، وأحيل إلى الاستيداع، ثم أحيل إلى المعاش. ويمد الخديوى عباس يده إليه يريد أن يرعاه، ولكن نفسه المصرية الصلبة أبت عليه أن يكون من حواشى القصر ورعاياه، واتجه إلى خصوم عباس الشعبيين، وبذلك فضَّل كِسْرَةَ بيته وإملاقه وبؤسه على عباس وأمواله وذهبه، وانتصرت مصر فى شخصه على القصر وصحبه، وظل يضرم الحمية فى شعبه لضرب الإنجليز الضربات القاصمة، مع التوجع لعللها الاجتماعية ومع إلهاب المشاعر القومية.

وكانت مشاعر الوحدة التى أبرزها العدوان الثلاثى على مصر بين الشعوب العربية أخذت تندلع بقوة فى سوريا، وهى معقل ضخم من معاقل العروبة، وأخذ الشعب السورى - ومعه الجيش والحكومة - يطمح إلى قيام وحدة سياسية بين سوريا ومصر، ورحَّبت بذلك مصر مؤمِّلة أن تتم هذه الوحدة بين البلاد العربية، حتى إذا كان أول فبراير سنة ١٩٥٨ أُعلن فى القاهرة ودمشق قيام الجمهورية العربية المتحدة، موحِّدة

بين القطرين الشقيقين فى دولة واحدة، لها رئيس واحد وعلم واحد وجيش واحد ومجلس تشريعى واحد ووزارة واحدة. وهلَّل لذلك الشعبان: المصرى والسورى تهليلا عظيما، وكان لذلك رنَّة فرح فى كل دار. ولم تلبث العراق أن ثارت على النظام الملكى المتداعى بها فى ١٤ من يولية، وأعلنت فى دستور جمهوريتها الجديد أن العراق جزء من الأمة العربية، وبذلك كانت ثورتها امتدادًا كاسحا للعروبة.

واستدار العام وجاءه خطاب من الدكتور منير القاضى رئيس المجمع العلمى العراقى ينبئه فيه باختيار المجمع له عضوا مراسلا، وسرَّه النبأ، وكتب إلى الدكتور منير القاضى شاكرا له ولأعضاء المجمع العراقى هذا التقدير الكريم. وفى هذا العام اختارته جامعة القاهرة ثانى اثنين ليشتركا فى أول امتحان لليسانس الآداب فى فرعها الذى أنشأته بالخرطوم، وليقدما تقريرا عن مستوى طلابها العلمى. وكانت فرصة له أن يرى الخرطوم المدينة المثلثة وموقعها من النيل الأبيض والأزرق، وليشاهد أهلها، وهم غادون رائحون فى الشوارع وإلى المساجد بوجوههم السمحة: الوجوه العربية الكريمة. واتفق ذهابه إليها مع شهر رمضان المعظم. وتصادف أن دعاه

هو وصاحبه مدير جامعة الخرطوم ليقضيا بمنزله أمسية من أمسيات رمضان وقبلا الدعوة، وضربا لها مساء معينا. وكان قد دعاهما فى نفس اليوم أحد تلاميذه مع بعض أساتذة كلية الآداب لتناول الإفطار عنده. وبعد أن قضيا معه ومع زملائهما وقتا لطيفا ذهبا إلى الزيارة المضروبة عند مدير جامعة الخرطوم، وكانت دهشتهما كبيرة حين رأيا مائدة كبيرة حافلة بألوان الطعام تُمَدُّ احتفالا بهما. ولم يكونا يعرفان أن أهل السودان الأشقّاء حين يؤذن المغرب لا يتناولون طعام الإفطار مثل المصريين بل يؤجلونه بضع ساعات مكتفين بتناول الشاى وبعض المرطبات، حتى إذا مضت طائفة من الليل أفطروا. وهمس صاحبى فى أذن رفيقه: لا مَعْدَى لنا من الإفطار ثانية، وأفطرا مرة أخرى شاكرين ربَّ الدار على كريم ضيافته وحسن مؤانسته. وزار أم درمان وتجوَّل فى سوقها واشترى منها خرزا ملونا وبعض جلود لتماسيح صغيرة، واشترك فى الامتحان الشفوى لطلاب الليسانس بقسم اللغة العربية وراجع أوراقهم فى الامتحان التحريرى، وراقه مستواهم العلمى تحريريا وشفويا، وضمن تقريره عن دراسة العربية بفرع الخرطوم ثناء مستطابا.

وفى العام التالى: ١٩٦٠ أتيح له زيارة دمشق فى مهرجان الشعر الثانى الذى أقامه المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية، وشعر - منذ وضع قدمه فى فندق سميراميس الذى نزل به - أنه فى إحدى عواصم العروبة الكبرى. وكانت دمشق - منذ الجاهلية - موئلا للعروبة، وأخذت رعايتها لها تتضاعف فى عصر بنى أمية حين كانت عاصمة البلدان العربية جميعا، تولى عليها - وتعزل - من تشاء. وتحولت فى العصر العباسى إلى ولاية تابعة لبغداد، ولكنها ظلت راعية للعروبة - على مدار السنين - إلى اليوم. وكان يمزح مع بعض أصدقائه الدمشقيين ويقول لهم: لقد عرفت لماذا ترعى دمشق العروبة وتصونها وتعتز بها، لأن أرومتها فعلا عربية إذ هى جزء لا يتجزأ من بادية الشام فيبتسمون ويقولون نحن أبناء الغساسنة الذين سكنوا هذه الديار فى الحقب الجاهلية. ومن اكتمال العروبة فيهم روايتهم للشعر وإنشادهم له فى كل موقف وفى كل مناسبة طارئة، وهم لا ينشدون الشعر القديم وحده، بل ينشدون معه كثيرا من الشعر الحديث، وخاصة شعر شوقى، وقد استحال منه ما نظمه فى دمشق أيام مقاومتها للفرنسيين إلى أناشيد حماسية

ملتهبة، كانوا ينشدونها فى ثوراتهم الضارية ضد الفرنسيين مطالبين بالاستقلال والحرية، فتضطرم مشاعرهم وتتلظى تلظيًا، حتى ليستحيلون شعلا آدمية تشوى وجوه الفرنسيين وصدورهم. ولا يزال يذكر أنه حين حاول أن يسجل اسمه عند كاتب الفندق التفت إليه قائلا: أهلا بصاحب كتاب شوقى، وأنشده أبياتا من قصيدة شوقى القافية التى نظمها فى سنة ١٩٢٥ فى ثورة دمشق حين اندلعت ضد الفرنسيين، وهى قصيدة تثير الحمية فى الصخر الصلد، وكل بيت فيها كأنه شرارة نار. وما من دمشقى لقيه صاحبى إلا رآه يضم أبياتا منها إلى صدره كأنها تعويذة أو تميمة. وكان الموضوع الذى اختاره ليحاضر فيه بالمهرجان: «حاضر الشعر العربى متصل بماضيه» وما إن ألمَّ بدور شوقى فى استنهاض العرب ضد الاستعمار وقوله مستنهضا للدمشقيين ضد الفرنسيين فى قافيته المتأجِّجة:

وللأوطان فى دمٍ كلِّ حُرٍّ ... يَدٌ سلفتْ ودَيْنٌ مُسْتَحَقُّ
وللحرية الحمراء بابٌ ... بكل يَدٍ مضرَّجَةٍ يُدَقُّ
جزاكم ذو الجلال بنى دمشقٍ ... وعِزُّ الشرقِ أوَّلُه دِمَشْقُ

حتى دوّى الحشد الحافل بالتصفيق لشوقى تصفيقا يفوق كل وصف تمجيدا له وتكريما

وأتاح هذا المهرجان لصاحبى التقاءه بمجموعة كبيرة من شعراء الشباب المصريين والسوريين الذين ينظمون الشعر الحر الجديد، وحاورهم طويلا فيما سقط فى شعرهم من أنغام القصيدة العربية وخاصة القافية وفى إلغائهم فكرة الشطر والبيت وإحلالهم مكانهما فكرة السطر، فالمنظومة منه سطور متوالية، ولا يُعْتَدُّ فيها بشىء من موسيقى الشعر العربى سوى التفعيلة، وأقنع صاحبى كثيرين من ناظميه أن يتلافوا ما سقط من أنغامه بالعودة إلى القافية المنوعة المعروفة فى الموشحات والشعر الدورى، واستجاب منهم كثيرون - فيما بعد - إلى فكرته مستوحين صور القافية المنوعة الموروثة، إذ لا يتصور العرب شعرا بدونها، وكأنها تلتصق بأفئدتهم التصاقا. والتقى فى هذا المهرجان بشاعر لبنان الفذ أمين نخلة، وكان ينزل فى نفس الفندق بغرفة مجاورة لغرفته، وكانا كلما أتيح لهما فراغ تحدث كل منهما إلى صاحبه، وكان أمين نخلة بالغ الرقة مرهف الشعور فملأ نفس صاحبى

له حبا، وانتهت أيام المهرجان وودَّع كل منهما صاحبه، ومضت بضعة أسابيع ، وإذا بأمين نخلة يرسل إليه رسالة فى غاية الرقة يقول فيها: «شوقى إليك وياشدة شوقى، لا والله ما ظننت يوم الفراق أن أيام البعاد سوف تكون باهظة على القلب، ولقد أحسست شجوا فوق شجو القلوب، وتمنيت أن يكون قلمك فى يدى حتى أستطيع وصفه». وكتب إليه متوددا متلطفا شاكرا.

وكان قد أخذ يعنى بإخراج سلسلة عن تاريخ الأدب العربى. وفى نفس السنة نشر المجلد الأول منها الخاص بالعصر الجاهلى، ورأى أن يهدى نسخة منه إلى أستاذه طه حسين، وكان له فى هذا العصر كتاب أثار ضجة نقد واسعة حين نشره فى العشرينيات من هذا القرن لما ذكر فيه من أن الكثرة المطلقة مما يسمَّى أدبا جاهليا ليست من الجاهلية فى شىء وإنما هى منتحلة بعد ظهور الإسلام، فهى تمثل حياة المسلمين أكثر مما تمثّل حياة الجاهليين، وليس بين أيدى الباحثين - فى رأيه - من الأدب الجاهلى الصحيح إلا شىء قليل جدا لا يمثل شيئا ولا يدل على شىء ولا يصح الاعتماد عليه فى استخراج الصورة الأدبية

الصحيحة للعصر الجاهلي. وكان صاحبي قد درس في كتابه هذه القضية الخاصة بانتحال الشعر الجاهلي دراسة واسعة، وناقش فيها أستاذه ومن سبقه إلى بحثها من المستشرقين، وما هي إلا أيام قليلة حتى طلب طه حسين لقاءه، ولقيه فرحَّب به كعادته، وكان يظن أنه سيراجعه في آرائه التي ردَّ بها على نظريته في انتحال الشعر الجاهلي، وإذا به يثني على جهوده في الكتاب، ويقول إنه قرأ ما كتبه في الرد عليه، وكان عنده بعض الصحفيين، فالتفت إليهم قائلا: إن السياسة تشغلكم الآن عن كل شيء، وكان ينبغي أن تشغلوا أنفسكم وقرّاءكم بهذا الكتاب وما يثير من أفكار وآراء.

وكان كلما ألف كتابا أهداه إلى أستاذه طه حسين، فقرأه حتى إذا زاره ثانية أخذ يحدثه عنه مع شيء من الثناء تشجيعا له، وهو ثناء تفرضه مجاملة الأستاذ الجامعي لتلميذه ومن شأن هذا الثناء أن يدفع التلميذ لكي يزداد نشاطا في بحوثه، وكان ذلك فعلا مما يدفعه إلى الدأب في البحث، حتى يرضى أستاذه طه حسين وأساتذته الآخرين من أمثال الشيخ مصطفى عبد الرازق وأحمد أمين. وهم - في

الحق - لم يكونوا أساتذة جامعيين فحسب، بل كانوا أيضا آباء. وكان يقول: لعل هذا هو السر في أنه يطلق على أعضاء التدريس في الجامعات اسم الأسرة الجامعية، وفي كل جامعة أسرة كبرى تضم أسر الكليات المختلفة، وكل كلية أسرة كبيرة تضم أسر أقسامها، وكل أسرة صغرى لقسم يتواصل أفرادها تواصلا علميا، فكل من ينتج في تلك الأسرة بحثا ينبغي أن يقرأه الأساتذة وأعضاء هيئة التدريس والمعيدون لأنه يُعَدّ عملا علميا من أعمال القسم، فينبغي أن يعرفه كل فرد من أفراده، وأن يكونوا على بيِّنة منه. وهو جانب يحتمه التواصل العلمي في الأقسام، ويبدو أنه يدخل الآن على هذا التواصل شيء من الوهن بسبب الضغوط الاقتصادية وما سبَّبته من ضيق الوقت بحيث لا يكاد يجد الزميل الجامعي - حين يهدى إليه أحد زملائه بحثا أو كتابا - وقتا كي يفرغ لقراءته. وحدَّثه أستاذ جامعي أنه ألف كتابا في موضوع علمي، يهم أحد زملائه، وزاره هذا الزميل، وطلب إليه نسخة من الكتاب، فقدَّم إليه توًّا نسُخة، وما إن فتحها حتى وجدها مهداة إليه، وكأنه كان قد صمم على إهدائه نسخة من

الكتاب، وفعلا كتب عليها الإهداء ونسى أن يصحبها معه ليقدمها إلى زميله فى الكلية. وأكمل هذا الأستاذ الجامعى حديثه لصاحبى قائلا: إننى لا أزال أنتظر من هذا الزميل كلمة عن الكتاب فى لقاء بل حتى فى تليفون!. وهذا طه حسين لم يضق بكتاب صاحبى عن العصر الجاهلى مع أنه رآه فيه ينقض نظريته فى انتحال الشعر المنسوب إلى العصر الجاهلى بل لقد استدعاه ليثنى على جهده فى الكتاب. ونحن لا نقدر صنيع طه حسين وأمثاله من الأساتذة الجامعيين حق قدره إلا إذا عرفنا أن من الأساتذة مَنْ إذا خالفه تلميذه فى فكرة أو فى أفكار فى بحث علمى ثارت ثائرته. وهى صورة تناقض - بدون ريب - تطور البحث العلمى أشد المناقضة لأنها تؤول به إلى التوقف والجمود. ومن المؤكد أن الباحث العلمى الجدير بهذا الوصف يعرف لمن يجيئون بعده ويخلفونه فى الدراسة حقوقهم فى حرية البحث والخلوص فيه إلى أفكار جديدة لم تخطر بباله، وواجبه أن يطرى هذه الأفكار مهما خالفت آراءه، على نحو ما أطرى طه حسين كتاب تلميذه مع مخالفته لبعض آرائه، بل لقد دعا من كان بمجلسه من الصحفيين إلى الكتابة فى

صحفهم عن كتابه والتنويه به. وجاءته رسالة من باحث كبير بحلب هو الأستاذ خليل هنداوى يثنى فيها على كتابه العصر الجاهلى حتى ليقول مبالغا فى ثنائه. «لا يروعنَّك أن لا يهلِّل لكتابك العصر الجاهلى ويطبِّل، فالمصابيح العالية تضىء الطريق للعابرين دون أن يكلف العابرون أنفسهم مشقة رفع الرأس إلى الأعلى» ورد صاحبى على الأستاذ الهنداوى شاكرا.

ودُعى فى شهر مارس لسنة ١٩٦١ لإلقاء محاضرة فى المركز الثقافى بحلب، ولبَّى الدعوة، ونزل دمشق وكانت أياما ممطرة، فأخذ الطائرة إلى حلب لغزارة الأمطار على الطرق المؤدية إليها من دمشق، وكانت طائرة بمحرِّك واحد، وتعب كل ركابها فى الرحلة، وبعد لأىٍ هبطت الطائرة فى حلب ولقى بعض أدبائها فى استقباله مرحبين، وظلت الأمطار فى الأيام الثلاثة التى أقامها فيها تسقط بغزارة، والسماء ماتنى ترعد وتبرق. وفى المساء ذهب إلى المركز الثقافى لإلقاء محاضرته، والمطر يسقط مدرارا، ورأى جمعا من أدباء حلب فى انتظاره، وكان المركز غاصا بجمهور ضخم ولم يجد كثيرون مكانا لهم فيه، فوقفوا

أمامه ليستمعوا إلى محاضرته عن طريق ميكروفونات معدّة فى المركز لمثل هذه المناسبة. وكان الموضوع الذى اختاره ليحاضر أهل حلب فيه هو: «الروابط الوثيقة بين أدبنا وقوميتنا» ومضى يستعرض هذه الروابط حتى العصر الحديث، إذ ظلت الأقاليم العربية - على مر العصور - تتشابك تشابكا قويا فى اللغة والأدب والفكر والروح والشخصية. واستقر فى نفسه منذ إعداد هذه المحاضرة أن العصر الذى امتدّ من منتصف القرن السابع الهجرى إلى القرن العاشر لم يكن عصر جمود وركود فى الأدب شعره ونثره، كما ظنّت كثرة الباحثين من العرب والمستشرقين، إذ رأوا أدباء العالم العربى يتمسكون تمسكا شديدا بالأصول الموروثة لأدبهم، فخالوا ذلك ركودًا وجمودًا، وهو إنما كان حرصا على هذه الأصول ورغبة قوية فى الاحتفاظ بها أمام حملات الصليبيين الغربيين والتتار الشرقيين وغارات الإسبان الشماليين فى الأندلس، حتى تظل الشخصية العربية راسخة بكل خصائصها ومقوماتها الأدبية والفكرية والروحية.

وأعقبت المحاضرة حفلة سمر أدبى مع شعراء حلب

وكتّابها من الصحفيين وغير الصحفيين، تعرّف فيها على كثيرين منهم، وشعر - بحق - أنه فى بيئة عربية زاخرة بالشعر والأدب، بيئة تصله بها أواصر العروبة التى تتراءى ماثلة بقوة فى كل الأوطان العربية، مهما أبعدت فيها شرقا أو غربا وشمالا أو جنوبا. وعاد إلى فندقه، فبات فيه، والمطر الغزير يتدافع على نوافذه، وأخلد إلى النوم، وبينما كان فى الصباح يطلّ من نافذة غرفته إذ وجد لافتة عليها اسم محام كبير هو الأستاذ «زلط». وكانت مفاجأة له أن يرى فى حلب بأقصى الشمال من بلاد العرب أسرة تجتمع فى لقبها: «زلط» مع لقب أسرة فى قريته بأقصى الشمال من الدلتا بجوار دمياط كان يلعب فى صباه مع أحد أطفالها. وحقا ديار العرب واحدة مهما طوّفت فى آسيا وأفريقيا إذ تلقاك نفس الأسر بألقابها وأسماء أفرادها، وأيضا بنفس العادات والتقاليد والسلوك والروح.

وزار قلعة حلب، وتجلّت له بطولة سيف الدولة الخارقة، إذ استطاع بكتائب حربية قليلة كانت مرابطة معه فى هذه القلعة الصغيرة أن يسحق مرارا جيوش البيزنطيين الجرارة فى غير موقعة، وبلغ من كثرة معاركه معهم ومنازلته لهم أن

جَمَع مما علق بدروعه وسلاحه فى وطيس حربهم غبارا كثيرا اتخذ منه لَبِنةً بقدر الكفّ، وأوصى أن توضع تحت خَدِّه فى لحده. ونفِّذت وصيته. وقد ظل المتنبى سنوات طوالا يتغنَّى ببطولته الحربية غناء لايزال يخترق سمع الزمن إلى اليوم. وطاف صاحبى بالقلعة، ومن أروع ما شاهده فيها قاعة سيف الدولة التى كان المتنبى ينشده فيها أشعاره وهو جالس، إكراما من سيف الدولة لشاعره الفَذِّ وإعزازا. وينثر عليه فى لقائه الأول دنانير الذهب، وتأبى عليه كرامته العربية أن ينحنى ليجمع منها شيئا شاعرا أنه بدوره ينثر على سيف الدولة البطل العربى دنانير من الشعر أكثر نفاسة وخلودا.

وبارح حلب وظل يذكر رحلته إليها طويلا حتى إذا كاد شهر سبتمبر يبلغ نهايته أعلنت سوريا انفصالها عن مصر، وهكذا بين عشيَّة وضحاها تبدَّد الحلم الذى علَّقته البلدان العربية على الوحدة بين القطرين الشقيقين، وكان لذلك أصداء حزن عميقة فى نفوس السوريين والمصريين جميعا. وفى شهر يولية من سنة ١٩٦٢ تمَّ لثورة الجزائر طرد البقية الباقية من الفرنسيين ببلدهم إلى البحر

المتوسط وما وراءه، وأعلنت الجزائر أنها دولة عربية اشتراكية. وفى شهر سبتمبر شبَّت الثورة اليمنية وسرعان ما تقوضت الملكية بها، وأُعلنت الجمهورية فى صنعاء واليمن الشمالى، وأيدتها مصر. وتضامنت مصر مع الثورة هناك ونهضت باليمن الشمالى فى جميع شئونه الاقتصادية والتعليمية والحضارية.



٦

وفى ربيع سنة ١٩٦٣ دعت صاحبى جامعة بيروت العربية أستاذا زائرا بها لمدة أسبوعين كى يحاضر طلابها فى تاريخ البلاغة العربية، واستجاب لدعوتها، وكانت المحاضرات والدراسة بها مسائية، ونزل فى فندق ببيروت، وذهب غداة نزوله فيها إلى الجامعة فلقى مديرها وعميد آدابها ورحبا به. وفى المساء ذهب إلى كلية الآداب لإلقاء محاضراته بها، ودخل قاعة المحاضرة، فوجد بين الطلاب تلميذا قديما عزيزا له، هو الشيخ الجليل الشهيد الدكتور صبحى الصالح نائب رئيس المجلس الإسلامى الأعلى بلبنان طيب الله ثراه وجعل الفردوس مثواه. وسرعان ما وقف يحيى صاحبى قائلا: «لقد جئت أستمع إليك هنا فى بلدى لأفيد من محاضراتك، فإنى لا أنسى محاضراتك

وما أفدت منك بجامعة القاهرة». وكانت تحية كريمة من أستاذ بارٍّ له دراساته الإسلامية والعلمية القيمة، ومثل هذه التحية يُعَدّ الجزاء الأوفى للأساتذة الجامعيين حين يجدون طلابهم بعد سنوات طويلة وبعد أن أصبحوا أساتذة مرموقين لايزالون يذكرونهم ذكرا جميلا، وإنه لذكر، بل إنه لوفاء - ونعم الوفاء - وهو وفاء ينفض عنهم كل ما علق بهم من غبار العناء العلمى طوال السنين، ويجعلهم يستشعرون سعادة لا تماثلها سعادة، إذ يلقون أبناءهم وقد نالوا من النجاح العلمى قسطا عظيما لايزالون يذكرون لهم - أمام الملأ - أستاذيتهم بكل تقدير وكل امتنان وكل عرفان.

واغتنم فرصة زيارته للبنان وجاس خلال مناظرها الطبيعية البديعة، وأخذ بصره يتملَّى بجمال مرتفعاتها الصاعدة ووديانها المنحدرة، وخلب لُبَّه وادى «بِشرِّى» قرية «جبران خليل جبران» الشاعر اللبنانى المشهور التى تربى فى مهادها وأمضى صباه وشبابه بين مشاهدها وملاعبها، وإن جمال واديها ليفوق كل وصف. لذلك لم يكن غريبا أن يهب هذا الوادى من وديان لبنان العربية شاعره الفذ «جبران» وأن يصرفه

عن أغراضٍ الشعر العربى القديمة من مديح وغير مديح إلى الطبيعة يتغنى بجمالها غناء المفتون بسحرها، وغوَّرتْ ذلك فى نفسه هجرته إلى الغرب وإلى أمريكا الشمالية وعالمها الصناعى الذى حكَّم الآلة فى الإنسان وجعله عبدًا لها بعد أن كان سيدها، ومسخَّرًا لها بعد أن كان يسخِّرها، مما جعله يثور على الحضارة الغربية ويدعو إلى الفرار منها إلى الطبيعة، ولو استطاع لفرَّ منها إلى أحضان الطبيعة، بل لو استطاع لعاد أدراجه إلى وادى «بِشرِّى» وإلى الجمال الهاجع فى أنحائه وأرجائه. ولكن أين هو من وادى بشرِّى؟ لقد نأى عنه بعيدا ونأت معه القرية البسيطة «بشرِّى» حيث يشيع الجمال المطلق، وحيث كان يحيا حياة بسيطة بعيدا عن المدينة وأوزارها وكل ما فيها من سيئات. وقد أوصى أن يعود جثمانه بعد موته إلى مسقط رأسه «بشرِّى» ما دام لم يستطع العودة إليها فى حياته وعاد به قومه فى احتفال رهيب. وزار صاحبى قبره على حافة الوادى، وهو يرقد فى أعلاه بين غابه وعلى مشارف زروعه وجناته الفيحاء وعلى مقربة منه مكتبته، وبها مؤلفاته العربية والإنجليزية الرائعة.

وفى شهر مارس من سنة ١٩٦٤ لبَّى الأستاذ العقاد نداء

ربه، وأخذت توجَّه إليه - عقب وفاته - حملات نقد ضارية منتقصة مكانته الأدبية الرفيعة، فرأى أن يخصه بكتاب للدفاع عنه، كما دافع من قبل عن شوقى، وأيضا عن البارودى إزاء ما وصفه به بعض النقاد من أنه يستوحى فى شعره التراث بأكثر مما يستوحى حياته وواقعه وعصره، وهو نقد ظالم لحامل لواء الشعر العربى الحديث مهما تنوعت مدارسه وتفاوتت اتجاهاته بين المحافظة والتجديد. وبدون ريب هؤلاء الثلاثة: البارودى وشوقى فى الشعر والعقاد فى النثر يُعَدون جزءًا لا يتجزأ من مجد مصر الأدبى الحديث، ولذلك تصدَّى صاحبى للدفاع عنهم حتى يجلو شخصياتهم للجيل المعاصر، ويوضح كيف هيأوا لمصر منزلة أدبية ممتازة فى الأدب العربى الحديث.

واستدارت السنة الجامعية، فأعارت جامعة القاهرة صاحبى إلى جامعة عمان بالأردن ليشارك فى تأسيسها وليحاضر طلاب قسم اللغة العربية بها فى بعض مواده. والتمس منه أساتذة القسم - وكانت كثرتهم من تلاميذه - أن يحاضر الطلاب فى تاريخ الأدب العربى فى الحقبة الممتدة من منتصف القرن السابع الهجرى إلى القرن العاشر، وهى

الحقبة التى تعوَّد مؤرخو الأدب العربى أن يسموها باسم العصر المغولى واصفين هذا العصر بأنه كان عصر انحطاط وتخلف فى جميع جوانب الحياة الأدبية والعلمية. وهو ظلم مجحف لهذا العصر الذى سحقت فيه مصر جموع الصليبيين والتتار، مما أذكى الحركتين العلمية والأدبية فيها، وجعلتها - منذ ذلك الحين - زعيمة للبلاد العربية، وكانت قد أصبحت ملاذا لعلماء صقلية وأدبائها منذ غزاها النورمان فى القرن الخامس الهجرى، وأصبحت منذ غزو التتار لبغداد فى أواسط القرن السابع الهجرى ملاذا أيضا لأدباء بغداد وعلمائها، وبالمثل كانت قد أصبحت منذ سقوط مدن الأندلس فى أيدى الإسبان ملاذا لعلماء الأندلس وأدبائها . وقد مضت تنهض بالأدب وبالعلوم الشرعية واللغوية والعلوم الخالصة من طب وغير طب. وكل ذلك كان قد أخذ يشغله منذ محاضرته بحلب على نحو ما مرَّ بنا، وأخذ يرى أن هذا العصر المغولى - كما اصطلح أصحاب التاريخ الأدبى على تسميته - فى حاجة إلى دراسة جادة تكشف حقائقه الأدبية والعلمية من جميع وجوهها، حتى تكون الأحكام عليه سديدة ودقيقة، وأتيحت له الفرصة الآن فى جامعة عمان لكى يدرسه دراسة خصبة، وأكبَّ على دراسة أدبائه وعلمائه، وإذا هو يتضح له - بقوة - خطأ ما يردده الباحثون من عرب ومستشرقين من أن الحضارة العربية جفَّت ينابيعها حينذاك وغشيها فى الأدب والعلم غير قليل من الخمود والجمود، وهو ما لا يستقيم بحال - مع مارُدَّ إلى العرب - فى تلك الأيام - من قواهم الحربية العاتية، بحيث قضوا نهائيا على جيوش حَمَلة الصليب ووقفوا مدَّ السَّيْل التتارى الجارف، بل لقد دفعته مصر إلى الوراء دفعًا عنيفا. فكان طبيعيا أن تزدهر الحياة الأدبية والعلمية فى العصر المغولى - كما كان يسمَّى - لا أن تضمحلّ وتذوى وتذبل كما يردد الباحثون، بل على العكس تونق وتزدهر كما أوضح ذلك فى محاضراته حينئذ وبعد ذلك فى كتاباته. ولم يفد صاحبى من إعارته إلى الجامعة الأردنية انكشاف الحياة العربية العلمية والأدبية له انكشافا تاما من القرن السابع الهجرى إلى القرن العاشر ورد اعتبارها إليها، لم يفد ذلك فحسب، فقد أفاد أيضا وضعه دراسة منظمة - لأول مرة - للمدارس النحوية عند العرب، إذ التمس منه تلاميذه من أساتذة قسم اللغة العربية أن يحاضر فيها طلابهم، فعرضها لهم عرضا مفصلا تحدث فيه عن نشأة كل مدرسة

وتطورها ومنهجها وآرائها وأعلامها على مر الحقب.

وأمضى فى جامعة الأردن ثلاث سنوات كانت من أسعد أيامه لا بمن وجدهم فيها فقط من تلاميذه القدماء، بل أيضا بمن توثقت بينه وبينهم الصداقة من أساتذة كلية الآداب الأردنيين والفلسطينيين، فقد ظلوا جميعا يسبغون عليه حفاوة كريمة ظلت تتجدد كل يوم، وإنه ليستشعر دائما ذكراهم الأرجة، فهذا الدكتور ناصر الدين الأسد مدير الجامعة بحصافته وحسن شمائله وطيب أنسه، وهذا الدكتور غرايبة عميد الكلية بنوادره وظرفه وخفة ظله ولطفه وأحاديثه الشيقة، سوى أساتذة قسم اللغة العربية من أصدقائه الأوفياء، بأدق معانى كلمة الأوفياء وأعمقها وأوسعها فى آن واحد.

ونعمة كبرى حظى بها طوال مقامه بالجامعة الأردنية، هى نعمة الصداقة التى توثقت عُراها بينه وبين أمين الجامعة العام حينئذ الأستاذ حسن النابلسى الذى كأنما خُلق لتتمثّل فيه المروءة العربية فى أروع صورها مع سداد الرأى والحس المرهف ومع رقة الشمائل وعذوبة الحديث. وما إن التقى به فى الجامعة حين دخلها لأول يوم، وتحدثا معا، حتى أعجب كل منهما بصاحبه وشعر كأنما وجد أخاه الذى كان غائبا سنوات طوالا، وطالما سأل عنه وودَّ لقاءه. وظلت الأيام تزيد هذه الأخوة توثقا. وإن ما غمره به من مودة ليقصر عنه أى وصف، من ذلك أنه كان كثيرا ما يهلّ عليه مساءً بطلعته السنية، وما يلبث أن يحبِّب إليه مرافقته فى نزهة بضواحى عمّان، وكاد لا يترك منظرا رائعا من مناظر الطبيعة فى تلك الضواحى إلا ألمَّ به معه على ضفاف الجداول الرقراقة وبين قطع الخضرة السندسية وعلى حفاف الجداول وفى منعطفات الوديان، وكم جلسا بين مفاتن الطبيعة الأردنية يمتعان البصر والنفس وينسجان الأحاديث الحلوة، وكم رافقه إلى ضيعة له، فنعم معه برؤية غروسها وثمارها وبشذى أزهارها الذكية. وهى أخوة نادرة فى هذا الزمان: أن يجد الإنسان فى غربته أخا كأنما هو قطعة من نفسه أو توءم روحه، بل كأنما أنت وهو أصبحتما شخصا واحدا، فإذا تحدث إليك خِلْت أو ظننت كأنما تتحدث إلى نفسك، أو كأنه مرآة صافية مصقولة ترى فيها شخصك وكل ما يجرى فى حنايا صدرك وقلبك من خلجات وخواطر، وأين يوجد هذا الأخ اليوم؟ لقد ترامت على النفوس غشاوات كثيرة من الأطماع والمآرب تحجب عنها

أشعة مثل هذه الأخوة من أجل الأخوة لا من أجل مأرب ولا من أجل نفع ولا من أجل جزاء أو شكور، فهى نفسها الجزاء والنفع والمأرب والغاية والمتعة التي لا تماثلها متعة. وقد أوشكت مثل هذه الأخوة أن تصبح أسطورة من الأساطير، وتحققت الأسطورة له ولم تعد خيالا ولا حلما أو وهما. ولم يكن يمر عليه يوم مع صديقه إلا كان أحمدَ له فى نفسه من اليوم الذى سبقه، بل لقد تساوت الأيام مودة وأخوة وحسنا، إذ كانت دائما أنسا لا تشوبه أى وحشة، وصفوا خالصا لا يشوبه أى كدر. وكان أديبا يرصف خواطره وكأنما يرصف دُرًّا أو ينظم لؤلؤا من الكلم، وكان راوية ذواقا للشعر ينشد أروعه وأعذبه وأمتعه، وكان لا ينى ينشد حكما بديعة من شعر المتنبى، وكان مفتونا فتنة لا حد لها بضرير المعرَّة: أبى العلاء، وكان ينشد له أشعارا رائعة طالما غذَّت روحه وعقله.

ودعته جامعة بيروت العربية - وهو معار إلى جامعة الأردن - ليلقى بها محاضرة وتركت له حرية الاختيار لموضوعها، واختار موضوعا لها: «نواقص الإيقاع فى الشعر الحر» وكانت بيروت - حينئذ - تعد عاصمة هذا الشعر

لكثرة شعرائه فيها وكثرة نقادها الداعين إليه، وغصت قاعة المحاضرات فى الجامعة بالحاضرين لسماع محاضرته، وكان بينهم كثيرون من ناظميه وأنصاره، وكان موقفه فى محاضرته منه موقفا معتدلا بين أنصاره وخصومه، فعرض حجج الطرفين عرضا مفصلا، وناقش تلك الحجج مناقشة هادئة منصفة، وخلص إلى أنه ينبغى أن تُرَدَّ إلى الشعر الحر القافية المنوعة والصياغة الفصيحة الناصعة، حتى يجد العرب فيه متاعهم الشعرى الهنىء،واستجاب - فيما بعد - كثيرون من ناظميه لآرائه، وهم يتزايدون يوما بعد يوم.

وفى شهر ديسمبر من السنة الدراسية الثانية بالجامعة الأردنية أرسلت أسرة صاحبى إليه برقية تنبئه فيها بأن صحة أبيه فى تأخر، ولم تصله البرقية، وشكَّ ابنه أن البرقية لم تصله، فأرسل إليه برقية ثانية وصلته، غير أن القضاء كان قد حُمَّ، وشُيِّعت جنازة أبيه دون أن يودِّعه، ودخل منزله فى القاهرة، فلقيه ابنه وقبَّله فعرف أن القضاء سبقه، فذهب توًّا إلى دمياط ليتقبَّل العزاء، وليشارك والدته وإخوته فى الحزن، وليزور قبر أبيه الذى منحه الوجود، وكان به بارًّا برًّا فوق الوصف، وكان شيخا صالحا، وظل سنوات طوالا، لا يغفل

لسانه عن تلاوة القرآن، حتى لقد يتلو فى اليوم الواحد ثلثه أو يزيد. ومع أنه توفى عن سنٍّ عالية ظل صاحبى محزونا لوفاته دون رؤيته حزنا عميقا، وظل يغدو على قبره إلى اليوم الأربعين من وفاته مترحِّما عليه قارئا عنده ما تيسر من الذكر الحكيم، ودموعه لا ترقأ ولا تجف. وغريب أمر الإنسان يعرف أن الموت حق وأن الدنيا أشبه بفندق كبير يدخله يوميا مولودون وافدون، ويخرج منه ميتون راحلون. وعلى الرغم من هذه الحقيقة الكبرى التى يعرفها الناس جميعا حق المعرفة كلما فارق الإنسان عزيزٌ عليه فَزِع إلى الحزن وإلى دموعه كأنما يجد فيها راحته. ومن أكبر الخطأ أن يبالغ الإنسان فى حزنه على راحل له اختاره الله إلى جواره، إذ كثيرا ما يفضى الحزن المفرط بصاحبه إلى مرض لم يكن فى حسبانه، وما أشبه دموع الحزن بالمطر، فإنه إذا سقط على زهرة لا تزال فى كِمِّها لم يصبها بأذى، أما إذا سقط على زهرة متفتحة فإنه يفتت أوراقها وتذروها الرياح. وبالمثل دموع الحزن فإنها لا تؤذى الشباب، أما من فارقهم الشباب فإنها تؤذيهم أذى بالغا، وقد يفضى ذلك إلى مرض وبيل.



٧

ورأى أن يؤدى فريضة الحج فى السنة التالية، واصطحب معه زوجته وبدأ بالزيارة النبوية، وشعر حين نزل المدينة بفيض من النور والشذى العبق يغمرها بها القبر الطاهر مهوى أفئدة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها، وما من مسلم إلا ويتمنى أن يشدَّ الرحال إليه وتكتحل عيناه برؤيته. وبمجرد أن دخل المسجد الشريف اتجه إلى مقصورة الرسول ﷺ، وحيَّاه بتحية الإسلام، ووقف أمامه خاشعا، وعيناه مُغرَوْرقتان بالدموع، وقلبه يخفق بتيار دافق من الحب والإجلال له يَسْرى فى جميع كيانه، وهى لحظة فرح وابتهاج يشعر بها كل مسلم حين يزور الرسول الكريم، إذ يظل سنوات تلو سنوات يحلم بلقائه، وإذا الحلم يتحقق دفعة واحدة، وإذا هو - وجهًا لوجه - أمام الرسول العظيم الذى

امتلأ العالم بأضواء رسالته وأشعة هداها الساطعة، والذى حرَّر أتباعه من الوثنية والخرافة والخوف والجهل مالئا قلوبهم ثقة وأملا ورجاء باثًّا فيهم أخلاقية رفيعة وقوة لا تماثلها قوة زلزلوا بها العروش وفتحوا العالم القديم. ارتسم ذلك فى ذهنه فتوجه إلى الله ضارعا: «رَبِّ أَعِدْ لنا القوة حتى نقهر أعداءك وأعداءنا قهرا لا تقوم لهم بعده قائمة، كما عوَّدت آباءنا الأولين، اللهم أَعِدْ لنا القوة التى كانت تنبثّ فى كل ذرَّة من كيان أسلافنا السابقين حتى نسحق ضلوع أعدائك وأعدائنا سحقا ونبطش بهم بطشة كبرى». وجاس خلال المسجد النبوى، وشعر بجلال ما بعده جلال، وهو يسير بقدميه فى الأماكن التى سعدت بمسيرة الرسول فيها ووقوفه وجلوسه مع أصحابه والتى تعطرت بأنفاسه وبتلاوته للذكر الحكيم. واستدار فى الزحام، وصلَّى ركعتين فى الروضة الشريفة، وأخذ يتلو بعض سور القرآن الكريم. ثم اتجه إلى القبر الشريف مودعا اللألاء المحمدى.

وعاد مع زوجته إلى الفندق، فاغتسل غُسْلَ الإحرام، ولبس إزارا من وسطه إلى قدميه وإزارا ثانيا من وسطه إلى كتفه الأيمن، وثبَّتهما بحزام، وصلى ركعتين ناويا الحج والعمرة

داعيا الله أن ييسِّرهما له منيبا إليه، وأحسَّ كأنما بُدِّل شخصا آخر بتجرده من ثياب الحياة اليومية ولبسه ملابس الإحرام، إذ شعر كأنما تخلص من كل علائق الدنيا وشواغلها. وطار مع زوجته إلى جدة مكثرا من التلبية، ومنها إلى مكة مجتمع الحجيج وتوضآ ودخلا المسجد الحرام وهما يهللان ويكبران، وطافا طواف القدوم: سبعة أشواط يبتدئان كل شوط من الحجر الأسود متجهين إليه، ثم يستديران إلى اليسار طائفين الشوط ثم بقية الأشواط، متجهين إلى ربهما بقلبهما داعيين مستغفرين. وأخذ يتعوَّذ من مظان الزلل والعثار ومزالق المآثم والخذلان مؤملا فى رضوان الله. وينظر من حوله إلى الطائفين، فيرى بشرا على الوجوه من كل جنس وكل لون، والجميع يلبُّون ويضرعون إلى ربهم مبتهلين إليه لائذين بجنابه وحماه، وقد استغرقوا فى نشوة روحية، فقد خلَّفوا الدنيا ومآربها المادية من ورائهم، وأخذوا يسبحون فى عالم جديد، عالم ربانى مضىء. وإنهم ليعيشون فيه أياما هنيئة متنقلين بين مناسك الحج والطواف بالكعبة والسعى بين الصفا والمروة والمسيرة المبهجة بين منى وعرفات والمزدلفة، وكأنما لا يقطعون مسافات أرضية، إنما يقطعون مسافات روحية كانت تفصل

بينهم وبين النور الإلهى، وإنه ليشع هناك على جميع المناسك، بل حتى على الجبال والسفوح والقيعان، وإن إشعاعات منه لتنفذ إلى قلوب الحجاج، فتنزاح عنهم كل مخاوف الدنيا وكل أطماعها وكل كروبها وكل همومها، وينزاح معها القلق والحيرة واليأس والطمع والجزع، ويشعرون بأمان لا يماثله أمان، وطمأنينة لا تعدلها طمأنينة، طمأنينة تملأ نفوس الحجاج راحة وثقة بالله فى كل منسك: فى منى وفى مسجد نمرة بعرفات، وفى المزدلفة حين يجمعون منها الحصى ليرموا بها الجمرات فى أيام معدودات.

وأحسَّ - وهو يؤدى مناسك الحج - كأنما هو نقطة فى أمواج متدافعة من الحجاج لا أول لهم ولا آخر، أتوا من أقصى الغرب فى إفريقيا إلى أقصى الشرق فى آسيا من الصين والفلبين ومن الشمال فى تركيا وروسيا إلى أقصى الجنوب فى أندونيسيا وإفريقيا فى تيارات لا تنقطع، أتوا رجالا وركبانا على السفن والطائرات، يحجون إلى البيت العتيق، متنقلين بين المناسك، وكأنهم جيش ضخم وُقِّتت معركة زحوفه توقيتا دقيقا، وكأنما أريد بالحج أن يكون مثالا واضحا لدقة تنظيم الجيش وصفوفه يوم القتال جهادا فى

سبيل الله ودينه الحنيف، وتتوالى الأفواج فوجا بعد فوج، وتتعالى التلبيات والتكبيرات فى كل منسك إلى عنان السماء

ومنذ السحر فى ليلة عيد الأضحى تتوافد الجموع الضخمة على جمرة العقبة الأولى ترميها بالحصيات، ويخشى بعض الحجاج - وخاصة من الشيوخ والنساء - شدة الزحام، فيوكِّلون عنهم فى الرمى. وصمَّم صاحبى وزوجته أن يرميا حصياتهما بأنفسهما، واستطاعا - وسط أمواج الزحام المتلاطمة - أن يجدا منفذًا إلى الجمرة وأن يسدِّدا مع الحجاج إلى الشيطان الملعون ما معهما من حصيات، وقد سدَّدها إليه - من قبلُ - الرسول الكريم وكأنما أراد أن يضعه تحت أقدام المؤمنين جميعا من أمته، حتى لا يكون له حول عليهم ولا طول، بل حتى يذوق هوانا ما بعده هوان. وبعد رمى تلك الجمرات يهنىء الحجاج بعضهم بعضا بالعيد، وحقا أنه عيدهم الأكبر، عيد انتصارهم لا على الشيطان أو إبليس وحده، بل أيضا على جميع نزغاتهم وماران على نفوسهم من غشاوات، بل إنه يوم انتصارهم على الحياة نفسها ومآربها المادية.

ويتجه مع زوجته إلى الكعبة لطواف الإفاضة، وقد وكلا عنهما من يقوم بذبح الأضاحى. وعادا فى اليومين التاليين إلى

رمى الجمرات إذلالا للشيطان ومكايده. وطافا طواف الوداع لساحات ربهما القدسية. ويشعر الحاج حينما يفرغ من أداء الحج والمعيشة أياما فى مناسكه، كأنما ارتد به الزمن إلى يوم ميلاده إذ تطهر من كل إثم، وكأنما خُلق من جديد خلقا آخر، خلقا سويا، ويبتهل صاحبى إلى ربه أكرم الأكرمين أن يكون دائما له الكالئُ والراعىَ والحافظ والمعين.

وكان مما أثَّر فى نفسه أن كثيرين ممن يقومون بأداء فريضة الحج لا يعرفون شعائره وكيفية أدائها معرفة تامة، وفى رأيه أنه ينبغى على حكومات البلاد الإسلامية أن تهيىء للحجاج فى كل بلدة علماء يعلمونهم شعائر الحج قبل سفرهم إلى أداء الفريضة، بحيث يعرفون مناسكه وما ينبغى عليهم فيها معرفة صحيحة. وواجب على هؤلاء العلماء أن يعرِّفوا المسلمين بوضوح أن فريضة الحج إنما تجب على من استطاع إليه سبيلا، بحيث يكون سليم البنية معافىً، قادرا على نفقات الحج، فالبائس الفقير والمريض لا يجب عليهما الحج إلى بيت الله، أما الفقير فيفقد الاستطاعة المادية من الزاد والراحلة وما يقوم مقامها من البواخر والطائرات، وأما المريض فإنه يفقد الاستطاعة الصحية والقدرة الطبيعية على السير

والحركة، وفى القرآن الكريم: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ وفيه: ﴿وما جعل عليكم فى الدين من حَرجٍ﴾ وفى الحديث النبوى: «الدين يسر لا عسر». وليس من الدين الحنيف فى شىء أن يكلف المسلم نفسه مشقة لا يطيقها أو ترهقه من أمره عسرا.

وعقب عودته من الحج دعته جامعة بغداد فى شهر أبريل لزيارتها لمدة أسبوعين، ولبَّى الدعوة، وألقى بها عددا من المحاضرات فى كلية الآداب وفى كليات ومعاهد مختلفة. وانتهز الفرصة فزار مشهد الحسين فى كربلاء ومشهد أبيه على ابن أبى طالب فى الكوفة، والمشهدان من أعاجيب العالم الإسلامى بما على ضريحيهما ومآذنهما من صفائح الذهب وما على ستائرهما ومصابيحهما من فنون الزخرفة والزينة، وقيل لصاحبى: إن فى متحف الحسين سجاجيد إيرانية محلاة بالجواهر ومصاحف مزخرفة زخرفة بديعة، وقال لبعض مرافقيه متمنيا: حبذا لو تحول كل ذلك إلى متحف، فإنه يدرُّ دخلا كبيرا تنتفع به العراق أو على الأقل محافظة الكوفة. ورأى فى تلك المدينة مكتبتين نفيستين زاخرتين بمخطوطات قيمة. وفى يوم ثان زار سامرَّاء شمالى بغداد وتجول فى أطلالها

وشاهد رسوم مسجدها الكبير وكيف أن الزمن لم يبق منه إلا على بقايا من حوائطه ومئذنته الملتوية التى بُنيت على طرازها مئذنة جامع ابن طولون.

وأمضى ببغداد ليلة طريفة فى زيارة ندوة شعرية التقى فيها بصفوة من شعراء العراق فى مقدمتهم محمود الحبوبى ومحمد صالح بحر العلوم والجعفرى وقد حيوه هم وبعض زملائهم من الشعراء بأبيات رقيقة نظموها على البديهة. وشعر لكثرة ما سمع فى هذه الليلة من أشعار بديعة كأن للشعر نهرا كبيرا يجرى فى العراق بجانب دجلة والفرات، ولا يجرى مثلهما من الشمال إلى الجنوب، بل يجرى من الجنوب إلى الشمال من الكوفة إلى بغداد وما فوق بغداد. وتطارح الشعراء أشعارهم، وكأنما عادوا به إلى ليلة من ليالى الشعراء ببغداد فى العصر العباسى. وكان ممن استمع إليه بينهم شاعر يتغزل بغلام، وكان فى أثناء إلقائه لأبياته الغزلية يأتى من الإشارات والحركات ما يضحك سامعيه، ونبَّه ذلك صاحبى إلى أن كثيرا من الغزل الذى نُظم قديما فى الغلمان ببغداد والكوفة والبصرة إنما نُظم على سبيل الضحك والفكاهة. ودفعه ذلك - منذ هذه الليلة - إلى أن يعدِّل فى

الفكرة التى شاعت بين مؤرخى الأدب والنقد عن العصر العباسى زاعمين أنه كان يشيع فيه الغزل الشاذ بالغلمان شيوعا مسرفا متخذين من ذلك دلالة على الانحلال الخلقى الذى كان يسرى فى المجتمع، وقد أخذ فى كتبه يخفِّف من حدَّة هذه الفكرة ذاهبا إلى أن كثيرا من هذا الغزل نُظم على سبيل الفكاهة والتندير وإضحاك المستمعين. وتأثر تأثرا عميقا حين ذهب إلى مطار بغداد ليستقل منه الطائرة عائدا فوجد جمعا من تلاميذه ومن شعراء بغداد جاءوا لوداعه، وكان من بينهم الشاعر الحبوبى الذى أنشده أبياتا لطيفة فى وداعه، منها قوله:

تعجبت الحسناء منى وقد خلا
فؤادىَ من شوقٍ إليها ومن تَوْقِ

وقالت: أجبنى أين شوقك قد مضى؟
فقلتُ إلى مصرٍ مضى ذاهبًا «شوقى»

وداعًا وداعًا يا أديبًا حديثُهُ
يُنَبِّئُ عن حِسٍّ رهيفٍ وعن ذَوْقِ

وعانقه كما عانق مودعيه جميعا شاكرا لهم ما تجشموه فى وداعه من مشقة.

ومضت أشهر الصيف سريعة وبدأت السنة الدراسية فى أكتوبر كالعادة، ورأت كلية الآداب أن تجعل السنة الأولى بها سنة إعدادية عامة لجميع الأقسام وجميع الطلاب، وجعلت لكل قسم فى تلك السنة محاضرة عامة، وكان رئيسا لقسم اللغة العربية فرأى أن ينهض بتلك المحاضرة، واختار لها عرْضا مجملا لمعالم الأدب العربى الكبرى من الجاهلية إلى العصر الحديث. ومضى نحو شهرين من الدراسة. وإذا الطلاب يسألونه تخصيص محاضرة للأسئلة والمناقشة، وأجابهم إلى ما طلبوه، وكانت محاضرته لهم تبدأ فى العاشرة صباحا، فجعل الساعة السابقة لتلك المحاضرة العامة الجديدة، ودخل المدرج فى الأسبوع التالى وإذا هو مكتظ بالطلاب، جاءوا لمناقشته وطرح الأسئلة عليه والاستماع إلى أجوبته، وقال لهم لا مانع من الأسئلة فى جوانب من الأدب لم أعرض لها فى محاضراتى، ومضوا يسألونه فى تلك المحاضرة التى اقترحوها وهو يجيب طوال الأشهر التالية من السنة. ولعل شيئا لم يسعده فى هذه السنة كما أسعدته هذه المحاضرة وما وجد فيها من حِرْص طلابه - وبعبارة أدق

حرص أبنائه - على محاورته ومناقشته، وهى بنوة جامعية فكرية رفيعة لا تقل عن بنوة الدم.

وفى شهر ديسمبر من هذه السنة جاءته دعوة من الأكاديمية السويدية باسم ستة هم أعضاء جائزة نوبل للأدب، وفيها يطلبون إليه أن يرشح لتلك الجائزة مَنْ يراه أهلا لاستحقاقها فى عام ١٩٦٩ على أن لا يعلن عن اسمه بأى صورة لصحافة أو غيرها، وعلى أن يصل ترشيحه مبرَّرا قبل أول فبراير. وتردَّد فى الترشيح لها، ولم يلبث أن رأى من واجبه أن يرسل إلى تلك اللجنة اسم كاتب عربى متألق جدير بحصوله عليها، ورشح لها أديبا عربيا مشهورا مع مذكرة مفصلة بأسباب ترشيحه واستحقاقه لها، وظل ينتظر إعلان اللجنة عن مستحق الجائزة لعام ١٩٦٩ مؤملا أن تكون من نصيب مرشحه. وعادة يعلن اسم الفائز بتلك الجائزة منذ شهر أكتوبر حتى ديسمبر، وأعلنت النتيجة، ولم يفز مرشحه. وكرروا فى السنوات التالية هذه الدعوة، وكرر الترشيح مرارا دون جدوى، فأحجم عنه.

وفى رمضان من هذه السنة أدى العمرة، وقد لبس لها

ملابس الإحرام فى منزله، وركب الطائرة قاصدا جدة، وأحس حين تجرد من ملابسه - كما أحس فى احرامه للحج - أنه قد تخلص من مطالب الحياة اليومية وترهاتها الكثيرة وخلص لعبادة ربه. وبمجرد أن نزل من الطائرة بجدة اتجه إلى البيت العتيق بمكة، فدخلها مساء، وفى الصباح توضأ وذهب إلى الكعبة ورأى الطائفين بالبيت وهم يستقبلون الحجر الأسود مشيرين إليه ومبتدئين منه الأشواط السبعة، وصمَّم أن يقبِّله فى طوافه كما قبله رسول الله ﷺ، وتذكر قول عمر - رضى الله عنه - حين قبَّله: «لولا محمد قبَّلك ما قبَّلتك». والمسلم لا يقبِّله طلبا لهداية أو مغفرة، وإنما يقبِّله كما قبَّله صاحب الرسالة العظمى، فكل ما أتاه الرسول فى مناسك الحج والعمرة يأتيه المسلم. يريد أن يقترب أشدَّ القرب من هَدْيه ومن ربه، فهو يقبِّل حجر الكعبة فى الطواف كما قبَّله الرسول، وهو يرمى فى الحج الجمرات بالحصيات كما رماها الرسول إعلانا بأن عصر الوثنية وعبادة الشيطان والأرواح الشريرة فى الجمرات وفى غيرها قد انتهى إلى غير رجعة، وأن عصرا جديدا أشرق نوره، هو عصر الدين الحنيف.

ويطوف صاحبى مع مئات - بل آلاف - قد أُلغيت بينهم فوارق الشرف والسيادة والثروة والجنس والعصبية، ويصور ذلك الرسول ﷺ فى خطبة حجة الوداع قائلا: «أيُّها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب». ويلبِّى ويكبِّر طوال طوافه ويقبل الحجر الأسود مبتهجا فرحا. ويذهب - بعد الطواف - إلى بئر زمزم يعبُّ منها وينهل داعيا ربه، ويتجه إلى الصفا والمروة يَسْعَى ويكبِّر ويهلِّل. وينتهى السعى، ولا يترك صاحبى توًّا هذا المتاع الروحى، إذ يعود إلى الطواف، ويطوف عشرات المرات مكبرا مهللا. والناس هناك يطوفون طوال النهار وطوال الليل، فالطواف مستمر فى كل لحظة، وكأنهم - على مدار العام - نهر متحرك لا يتوقف سيره ولا ينقطع تياره. ألوف بعد ألوف يلبُّون ويكبِّرون ويسبِّحون ويستغفرون ويدعون ويتضرَّعون. وطوال العمرة كان يصلى التراويح بعد العشاء فى البيت العتيق وراء إمام كان يتلو فى كل ركعة بعد الفاتحة سورة من سور القرآن الكريم فى الجزءين الثامن والعشرين والتاسع والعشرين. وكان يقف وراءه بين يدى الله فى بيته المحرَّم

خاشعا ضارعا، راكعا ساجدا، يستمع إلى الذكر الحكيم متأملا مفكرا فى الملكوت الأعلى. وشعر بسعادة لا تقدَّر فى هذه العمرة الهنيئة، إذ أُتيح لروحه فيها أن تغتسل فى أضواء ربانية من كل ما علق بها من أدْران الحياة.

وبارح صاحبى مكة فى آخر يوم من أيام رمضان لزيارة القبر الطاهر الشريف للرسول الكريم: النعمة المهداة من ربه لأمته، والعطية الربانية المسداة لأتباعه، ونزل بفندق فى المدينة المنورة وتوضأ واتجه إلى المسجد النبوى، ورآه مكتظا بالزائرين من جميع الشعوب الإسلامية جاءوا يريدون الاغتراف من النور المحمدى وصلى ركعتين، ثم اقترب من المقصورة النورانية وحيًّا وسلَّم حين غمره السَّنا الباهر. وفى الليل أخلد فى الفندق إلى شيء من النوم، وهبَّ من نومه قبيل الفجر يريد أن يحظى بصلاة الصبح فى المسجد النبوىّ، ونظر فى الساعة وكانت الثالثة والنصف إلا خمس دقائق صباحا، فظن خطأ أنها الخامسة والربع، ونِعْمَ هذا الخطأ، فقد توضأ وذهب إلى الحرم النبوى لصلاة الصبح، فلم يجده مزدحما، كما كان يظن، وتعجَّب ونظر فى ساعته، فعرف أنه جاء مبكرا

قبل صلاة الصبح بفترة غير قليلة، فاتجه إلى الروضة الشريفة وصلَّى بها ركعتين تحية للمسجد، وحمد الله أن صلَّى ثانية بها لقول الرسول ﷺ: «ما بين قبرى والمنبر روضة من رياض الجنة». ورأى أمامه المحراب الصغير، فصلَّى به ركعتين أخريين، وشعر بسعادة لا حدود لها إذ يضع قدميه فى نفس الأمكنة القدسية الطاهرة التى تشرفت شرفا رفيعا بخطوات الرسول الكريم فيها. وكان معه المصحف الشريف فأخذ يتلو القرآن الكريم فى الروضة قُرْبَى إلى الله وزُلفى، حتى صلاة الظهر. وفى الليلة التالية استيقظ فى الساعة الثالثة صباحا فتوضأ وحمل المصحف واتجه إلى المسجد النورانى، ومضى يتلو فيه القرآن قبل صلاة الصبح وبعده، وكان قد تلا فى الليلة السابقة إلى الظهر نحو نصفه، فأتمه فى الروضة الشريفة، وهى نعمة كبرى أنعم الله بها عليه: أن تتاح له الصلاة فى الروضة النبوية وأن يتلو فيها كتاب الله، ويملأ به جنبات نفسه وقلبه وفؤاده نورا فى أطهر بقاع الدنيا وأزكاها حتى لقد شعر بحق أنه من أسعد السعداء.

٨



وفى صيف سنة ١٩٧٠ ألحت على صاحبى جامعة الكويت الناشئة أن يعاون فى إرساء النظام الجامعى بها، واستجاب إليها إذ لم ير بأسا فى الالتقاء بالشباب فى تلك الجامعة ممن يُعَدّون معقد الرجاء فى الكويت والخليج العربى، وحمل حقائبه إليها فى منتصف شهر سبتمبر، وما إن اقتربت الطائرة من مطار الكويت - وكان الوقت مساء - حتى رأى من نافذة الطائرة اللهب الصاعد من آبار البترول، وهبطت الطائرة فى المطار، ولم يكد يدنو من بابها للنزول حتى أحسَّ بما يستقبله من وَقْدة الحر الشديد، وهو عادة يكون خانقا هناك فى شهر سبتمبر لتشبع الجو بالرطوبة. أما فى الشتاء فيكون جو الكويت شبيها بجو القاهرة فى اعتدال حرارته. وما إن تجوَّل فى الكويت حتى

راعه تطورها الحضارى السريع، فقد كانت قرية صغيرة تتألف من بيوت متواضعة، وسرعان ما أصبحت مدينة تتكاثر فيها العمارات ذات الطوابق العديدة والفنادق الكبرى الفخمة، كما تتكاثر فيها شوارع واسعة تمتد طويلا حتى تغوص فى رمال الصحراء. ولم تكن تتوفر فى الكويت آبار للمياه العذبة، وكانوا ينتظرون من شتاء إلى شتاء ليجمعوا مياه الأمطار فى آبار حفروها لهذه الغاية، وكانت بعض القوارب تحمل المياه العذبة من البصرة فى العراق، وتوزعها فى القرب على المنازل. وكل ذلك انتهى الآن وزال، وحل محله تقطير مياه الخليج المالحة ووصولها إلى المنازل بالطرق الحديثة إذ أُعدَّت لها سيارات تحملها إلى فناطيس فوق سطوحها، وفيها توزَّع فى مواسير على الأدوار والشقق.

ولاحظ حينذاك أن الحياة القديمة فى الكويت ترافق دائما الحياة الحديثة جنبا إلى جنب، فالسيِّدة تتزيىَّ دائما بالنِّقاب، وتتسربل بالملاءة، وابنتها تلبس الفساتين والملابس الأوربية ولا تنتقب، والأم تلبس العباءة، والفتاة تلبس الجونلَّة أو التنوّرة، ويلبس الرجال جلابيب بيضاء

فضفاضة، ويزين العقال رءوسهم، ولكل إمارة ودولة فى الجزيرة عقال ذو هيئة خاصة يميزها عن عقال شقيقاتها القريبة والبعيدة. وهو تمسك حميد بالتقاليد وبشخصية الإمارة أو الدولة، ومن واجب الأمة أن تظل تتمسك بغير قليل من تقاليدها وصلا لحاضرها بماضيها واستمرارا لذاتيتها. وبالأمس القريب كان الأجداد فى الكويت يصيدون اللؤلؤ فى الخليج، وتحملهم سفنهم فى المحيط الهندى إلى إفريقيا الشرقية والهند وأندونيسيا للتجارة، كما تحملهم الإبل فى الصحراء وفيافيها الفسيحة، واليوم ترى الآباء والأبناء يركبون السيارات الفارهة من كل شكل وكل لون، فقد بدل النفط ودخوله الكبيرة حياتهم. وتكتظ الكويت بالحوانيت، وهى تمتلىء بكل ما ينتجه الغرب من معلَّبات تحوى كل صنوف الطعام والحلوى، كما تمتلىء حوانيت الثياب بكل ما ينتجه الغرب والشرق البعيد من اليابان وغير اليابان من أنواع الأقمشة، وكثير منها يشبه معارض مستمرة. ويقبل أبناء الكويت على التعليم فى نهم شديد، مما جعل مدارس البنين والبنات تتكاثر فيها كثرة مفرطة. وقد أقام بها أساتذة الجامعات المصرية جامعة

متكاملة على أحدث طراز، ففيها جميع الكليات العلمية والإنسانية، والفتيات فيها لا يختلطن بالشباب، فلكل من الجنسين كليته الخاصة، وتقبل الفتيات على التعليم الجامعى فى شغف شديد، وبالمثل يقبل الشباب، وإذا جاء الفتيات إلى كلياتهن لبِسْن الملابس العصرية، وكثيرات منهن إذا نزلن فى المساء لشراء بعض أغراضهن يلبسن ملابس الأمهات وخاصة العباءة.

وحل موسم المحاضرات فى جامعة الكويت، واختار لمحاضرته موضوع «الصوفية والجهاد» وفيها تحدَّث عن بطلان الفكرة الشائعة التى يزعم أصحابها أن الصوفية كانوا عالة على المجتمع الإسلامى يعيشون على فتات الموائد والحكومات دون أن يبذلوا أى جهد فى كسب أقواتهم، وهى فكرة مخطئة، وأشد منها خطأ الفكرة التى تتردد عنهم والتى طالما لاكها أصحابها، وهى أنهم لم يكونوا يسهمون فى واجبات المجتمع ومسئولياته. وقد نقض الفكرتين جميعا مستدلا ببراهين ساطعة أنهم كانوا دائما يتقدمون الصفوف فى جهاد أعداء الدين، وأنهم أدَّوا دورا كبيرا فى جهاد الصليبيين والتتار، وتغلغلوا فى ديار

الأخيرين وبين عشائرهم فلم يكد يمضى نصف قرن على غزوهم لبغداد حتى دخلوا فى الدين الحنيف. وأوضح صاحبى أن للصوفية دورا عظيما فى نشر الإسلام لا بين التتار فحسب، بل أيضا فى الهند وأندونيسيا وشرقى آسيا وفى أواسط إفريقيا وشرقيها وغربيها. وأعجب العجب أنهم لم يكونوا يعرفون لغات هذه البلدان. ومع ذلك استطاعوا أن يرفعوا جميع العقبات والأسوار التى كانت تفصل بين لسانهم العربى وألسنة هذه الشعوب.

وفى صيف سنة ١٩٧٢ زار لندن ورأى متاحفها الكثيرة وشاهد حديقة «هايدبارك» واستمع فيها إلى خطيب إفريقى يهاجم العنصرية مهاجمة حادة. وزار بلدة شكسبير القريبة من لندن، وشاهد بها منزله وإحدى مسرحياته. وزار إسكتلنده، وتغلغل فى أقصى الشمال منها ليتملَّى بمشاهد البحيرات والطبيعة بها، ومرَّ ببحيرة «لوخ نيس» ويزعم الأسكتلنديون أنه كان بها كائن بحرى هو «نيس» الذى سميت باسمه وأنه كان يفتك بكل من ينزل بها، وعلى إحدى حوافها أو شواطئها شاهد نُصْبا صغيرا نُقش عليه اسم وتاريخ أول ضحايا هذا الكائن

الأسطورى الخرافى. ولعل فى ذلك ما يدل - من بعض الوجوه - على أن الإيمان ببعض الخرافات ليس خاصا بأمة شرقية أو عربية دون أمة ولا بأمة غربية دون أمة، بل هو عملة دولية، لكل أمة منه حظ أو حظوظ مختلفة.

وفى السنة التالية حزن صاحبى لوفاة والدته حزنا عميقا، إذ أحسَّ كأن حائطا فى حياته انقض انقضاضا، فقد غابت عنه الأم وتوارت، وتوارى معها عنه ما ظلت تمنحه - طوال حياته - من المودة والشفقة والحنان، وكانت حازمة منتهى الحزم فى تربية أبنائها، تعطف عليهم هذا العطف الحانى الرقيق الذى يكون بين الأمهات والأبناء، ومع ذلك تأخذهم بغير قليل من الشدة فى التربية، محاولة بكل ما استطاعت أن تدفعهم إلى الجد فى التعلم وأن تملأ نفوسهم ثقة وطموحا. وإنه ليذكر كم شجعته على التعلم وكم حفزته فيه على المثابرة، وكلما قطع مرحلة فيه هلَّلت له مبتهجة، وظلت تكلؤه برعايتها فى الكبر كما كانت ترعاه فى الصغر. وغريب أمر الأمهات والآباء، فمهما علت السن بأبنائهم يشعرون كأنما لا يزالون معهم فى مدارج الصبا، وكل ما حدث أنهم أصبحوا أبناء، أو

أطفالا، كبارا، وكأن الرجولة واكتمالها لا يغيران من الابن شيئا، إنه طفلهم أو ابنهم سواء كان صبيا فى المهد أو غلاما أخضر العود أو شابا مشتد الساعد أو كهلا مرجوَّ النفع، ودائما لا يغيض فى نفوس الأبوين لابنهم - على مر السنين - معين البر والرحمة والعطف والمحبة الصافية. ويلقاهم الأبناء - إلا فى الندرة - بنفس هذه العواطف والمشاعر، مبتغين إلى مودتهم ومحبتهم الوسائل، محاولين - بكل ما يملكون - أن يدفعوا عنهم كل ما قد يسبب لهم شيئا من الأذى، حتى إذا أدرك الموت الأم أو الأب شعر الابن بحزن ممض وجَزِع أشد الجزع. وكان الموت قد أدرك والده قبل والدته بسبع سنوات، هى نفس الفارق بينهما فى السن، واشتد جزعه إذ شعر أن الواحة الوارفة التى كان يفزع إليها من حين إلى حين ناشدا فيها الراحة والطمأنينة والكلمات الطيبة المؤنسة كلما حزبه - أو دهاه - أمر قد اختفت من دنياه بكل ظلالها وأزهارها ومياهها، وكان لا يلم بها حتى تصفو له الحياة ويفارق سماءها ما تناثر فيها من سحب داكنة، وتعود مشرقة مضيئة. وغريب أمر الأبناء حين يفقدون الأبوين فإنهم مهما كبروا سنا يشعرون كأنهم أصبحوا أيتاما، وهو يُتم يصيب الكبير كما يصيب الصغير إذ جميعا يفقدون إلى الأبد العطاء الدافق من البر والحنان والمحبة التى لا تماثلها محبة.

وكانت مصر قد ظلت ست سنوات طوالا تتجرَّع مرارة النكسة التى حدثت فى يونية سنة ١٩٦٧ وما وافى اليوم السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ حتى قطعت الإذاعة المصرية إرسالها معلنة أن اشتباكات وقعت بين الجيش المصرى والجيش الإسرائيلى، وتوالت البلاغات بعبور الجيش المصرى قناة السويس وانهيار خط «بارليف» فى ساعات معدودة، وتوالت ضربات الطيران المصرى ضربات قاصمة، وأخذت الصحف المصرية والعربية تنشر صور الأسرى الإسرائيليين وهم يفترشون الأرض وجماعات منهم تسير وأيديها فوق رءوسها ذلا وخنوعا. وولول الإسرائيليون وناحوا، واستغاثوا بالولايات المتحدة، وصرخوا، فأمدَّتهم بجسر من الطيارات والأسلحة. وقضى مجلس الأمن بوقف الحرب، وكان ذلك نصرا مؤزرا لمصر ومجدا لجيشها الباسل استعادت به كرامتها الحربية وكرامة الأمة العربية.

وزار فى شهر يولية مدينتى مدريد وباريس زيارة سريعة، وقد صمم أن يرى فى الأخيرة الأماكن والمواضع التى تردد ذكرها فى كتابات الأدباء المصريين المثقفين بالثقافة الفرنسية من مثل متحف اللوفر والقسم الفرعونى المصرى به وحى مونمارتر والحى اللاتينى وغابة بولونيا، ولشوقى فيها قصيدة بديعة. وتمتع ليلة برؤية استعراضات راقصة فى مسرح «الفولى برجير» وزار كلية الآداب ورأى بها تمثال فيكتور هيجو الأديب الفرنسى المشهور صاحب ديوان أساطير القرون، ويُظَنّ أن هذا الديوان كان مما ألهم شوقى نظم فرعونياته الرائعة.

وعاد إلى القاهرة وإلى كليته يدرس لطلابها بعض عصور الأدب العربى، وجاءته دعوة من وزارة الإعلام والثقافة المغربية للاشتراك فى المهرجان الذى سيعقد بالرباط لابن زيدون احتفالا بذكراه. وقبل الدعوة واختار لكلمته فى المهرجان: موضوع الإيقاع الموسيقى فى شعر ابن زيدون. وظل فى مدينة الرباط أسبوعا، وكان من أروع ما اتفق له فيها أن ذهب مبكرا لصلاة الجمعة فى مسجد الرباط الكبير، وإذا هو لا يجد فقيها يقرأ قبل الصلاة ما تيسر من سورة

الكهف على نحو ما نصنع فى مصر، إنما يجد عريفا، ومعه طائفة من الغلمان والفتيان يقرءون - قراءة جماعية - آيات الجهاد للمشركين والكفار فى آخر سورة الأنفال وأول سورة التوبة، وهى آيات تدلع الحمية فى أتباع الدين الحنيف لنزال أعداء الله ورسوله ودينه وسحقهم سحقا لا يبقى منهم باقية. وما إن استمع صاحبى إلى هذه الآيات الكريمة - وهى تُتْلَى تلاوة جماعية تضرم الحماسة الحربية فى فؤاد كل مسلم كى يشهر سيفه ضد أعداء دينه ولا يغمده أبدا - حتى عرف أنها كانت السلاح الأكبر فى مقاومة الفرنسيين والتنكيل بجنودهم إلى أن فرُّوا من المملكة المغربية لا يلوون. وتمنى صاحبى لو أن جميع البلاد العربية حاكت صنيع المغرب فى صلاة الجمعة، فقرأت فى مساجدها هذه الآيات الحربية الكريمة لتدلع فى نفوس أبنائها جذوة الحمية الدينية للنضال عن أوطانها ومنازلة أعدائها منازلة ضارية. ومن أكبر أخطائنا أننا ننسى عِداء الاستعمار لنا وعِداءنا له وأنه إنما كان حلقة وتتمة للحروب الصليبية، ولما اضطر للانسحاب من أراضينا دقَّ إسفين اليهود فى فلسطين لا حُبًّا فى اليهود ولكن كرها للمسلمين والإسلام، وإن من أسوأ ما تُمْنَى به أمة أن تسالم

عدوها وتطمئنّ إليه، بحيث تتيح له الفرصة كي تلدغها عقاربه لدغة أو لدغات، وقد يفضي ذلك إلى أن يتسلَّط على اقتصادها، أو يسلط عليها الذئاب الغادرة الشرسة.

وفى أوائل شهر يناير لسنة ١٩٧٦ رشح ستة من أعضاء مجمع اللغة العربية صاحبى زميلا مجمعيا دائما، وأقر ترشيحهم أعضاء المجمع، وعادة يقام للعضو الجديد حفل استقبال يتحدث فيه أحد أعضاء المجمع القدامى عن سيرته العلمية وما أداه للعربية من خدمات كفلت له هذا الترشيح. وأسعد صاحبى أن يطرى زميله - الذى قدمه - أباه قائلا: «إنه شيخ من شيوخ العلم فى ذلك الزمان الخصيب يزينه الوقار وتحفه التقوى». ويشهد صاحبى أنه ما نال شيئا فى دنياه إلا بفضل رضا والديه عليه. ومضى يختلف إلى جلسات المجمع الأسبوعية وما فيها من حوار علمى، كما مضى يساهم فى خمس من لجانه: ثلاث منها لغوية هى لجان المعجم الكبير، والأصول، والألفاظ والأساليب، واثنتان علميتان هما لجنتا الفَيزيقا والرياضة. وشغل فى اللجان اللغوية خاصة بوضع كثير من المذكرات والمقترحات، وكان أهم ما شغله فى

السنوات الأولى بالمجمع محاولته وضع مشروع لتيسير النحو وتذليل صعابه للناشئة.

وفى شهر أبريل من سنة ١٩٧٨ جاء صاحبى خطاب من رئيس مجمع اللغة العربية الأردنى يذكر فيه أن مجمع الأردن قرر منحه عضوية شرف فيه «تقديرًا لما قدَّمه للغة العربية وثقافتها ولتاريخ العرب وحضارتهم من خدمات جليلة». ورد عليه شاكرا له ولزملائه من أعضاء المجمع الأردنى الأجلاء هذا التقدير، ومرحبا بتلك الزمالة العلمية الكريمة، راجيا أن يستطيع الوفاء بحقوقها عليه.

وفى سبتمبر من سنة ١٩٧٩ قرر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية منح صاحبى جائزة الدولة التقديرية للآداب عرفانا بما قدَّم للعربية من أعمال تتصل بأدبها فى مختلف عصوره وأقاليمه، وبالدراسات اللغوية والبحوث البلاغية والنقدية. وكتبت بعض الصحف مقالات عن نشاطه العلمى. وأخرجت مجلة الثقافة عنه عددا خاصا، ووالى رئيس تحريرها الدكتور عبد العزيز الدسوقى فى طائفة من أعدادها التالية عَرْضَ دراسة تحليلية نقدية لأعماله.

وفى مؤتمر المجمع اللغوى لعام ١٩٨٠ رأى المجمع أن

يحيى سنة قديمة له فى مؤتمراته، هى أن يحاضر أحد أعضائه فى موضوع أدبى عام يهم جمهور المثقفين، واختار المجمع صاحبى لتلك المهمة، فرأى أن يكون موضوع محاضرته: «لغة المسرح بين العامية والفصحى» وألقاها فى الجمعية الجغرافية، وشهدها جمع غفير، وقد صوَّر فيها كيف أن يعقوب صنوع نقل فى القرن الماضى صورة التمثيل المسرحى الغربى إلى اللغة العامية، كما صوَّر مزاوجة فرح أنطون فى العقد الثانى من هذا القرن بين الفصحى والعامية فى مسرحيته: «مصر الجديدة ومصر القديمة» مع محاولته النفوذ إلى لغة ثالثة وسطى بين هاتين اللغتين. ثم أفاض فى محاولة توفيق الحكيم إحداث لغة ثالثة بين العامية والفصحى للحوار جميعه فى مسرحيتيه «الصفقة» و «الورطة». ولاحظ صاحبى أنه استبقى فى المسرحيتين بعض كلمات واختزالات عامية مصرية مثل «أيوه» و «إيه؟». وقال إن بقاء مثل ذلك فى اللغة المسرحية الثالثة للحوار المسرحى يقوم حائلا بينها وبين أن يطرد استعمالها لغة للمسرح فى الوطن العربى جميعه.

وفى شهر يناير سنة ١٩٨٣ فوجئ صاحبى بنشر الصحف لنبأ حصوله على جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربى

لسنة ١٤٠٣ للهجرة. وفى أول شهر مارس حضر حفلا فى مدينة الرياض أقامته الأمانة العامة لتلك الجائزة، ورعاه ملك السعودية فهد بن عبد العزيز تكريما له ولمن نالوا الجائزة فى فروعها الأخرى معه، وتسلمها صاحبى منه هى وميداليتها وبراءتها. وتلا الأمين العام للجائزة البراءة وما تضمنت من تقدير له ولأعماله. وألقى صاحبى كلمة نوَّه فيها بالقيمة الأدبية للجائزة وبالملك فيصل المقترنة باسمه وخدماته للإسلام والمسلمين ولقضايا العرب والعروبة، ونشرت صحف السعودية مقالات عن أعماله وبحوثه. وكان من أهم ما أثر فى نفسه حينئذ مقال نُشر فى ملحق الرياض الأسبوعى لتلميذ وفىٍّ من تلاميذه المصريين - هو الأستاذ الأديب «الناقد» ماهر قنديل الذى لم يلتق به منذ تخرجه فى قسمه لأوائل الستينيات - حلَّل فيه سيرته وشخصيته وما عمل فيه من مؤثرات ونشاطه الأدبى والعلمى تحليلا دقيقا قيما.



٩

فى أغسطس من صيف هذا العـام رافق صاحبى رحلة لبعض أسـاتذة وطلبـة الآداب فى جامعـة القاهـرة لـزيـارة إسبـانيـا. وما إن وضع قدمه فى الطائرة المتجهة إليها حتى أخذ يرتسم فى خياله فتح طارق بن زياد وموسى بن نصير لها فى أواخر القرن الهجرى الأول المقابل للقرن السابع الميلادى بجند لا يزيدون عن ثلاثين ألفا إلا قليلا وقد استطاعا أن يرفعا علم الإسلام والعروبة على جميع بقاعها حتى خليج بسكاى وجبال البرينيه فى الشمال الفاصلة بين إسبانيا وفرنسا، واستحال الشطر الأكبر من الجزيرة عربيا فى لغته وأدبه إسلاميا فى دينه وروحه فى سرعة مذهلة. وما إن أعلنت الطائرة عن نزولها فى مدريد - وكان يسميها العرب **مجريط** - حتى خفق قلب صاحبى، إذ تذكر إنشاء العرب لها،

وهى إحدى مدن كثيرة أنشأوها بإسبانيا، فقد أنشأوا بها مدينة طريف فى الجنوب بمجرد وضع أقدامهم على شواطئها، وأنشأوا بجوارها مدينة جبل طارق ومدينة الجزيرة الخضراء، وأنشأوا ثغر المريَّة على البحر المتوسط فى الشرق وبطليوس بقرب المحيط فى الغرب، وأنشأوا فى الوسط مع مدريد مدينتى سالم ووادى الحجارة، وفى ذلك كله دليل واضح على أن العرب أمة متحضرة تبنى ولا تهدم. وبمجرد أن أنشئوا مدريد أخذت تتسع وتحفّ بها الأشجار والزروع. ونزل بها وبات فى أحد فنادقها. وفى اليوم التالى زار القصر الملكى، وهو يقوم فى نفس المكان الذى كان يقيم به الحاكم العربى بمدريد قديما، وتكتظ غرفه الكثيرة بكنوز من التحف النفيسة. وتجوَّل فى متحف البوردو، وشاهد فيه لوحات جويه البديعة، وفى المساء حضر حفل مصارعة الثيران لمدة ثلاث ساعات شاهد فيها مصرع ستة من الثيران، وكان كل ثور منها يدخل الحلبة المتسعة هائجا، ويلقاه فارس بقد ممشوق وثوب بَرَّاق مطرز بخيوط القصب والذهب، وما يزال يصوِّب إليه سهاما حتى إذا كلَّت قواه وخارت عزيمته نزل للقائه محركا فى يديه خِرقة حمراء لإثارته والاحتماء بها منه، والثور يهجم مرارا، وفى كل

مرة يرميه بسهم إلى أن يرميه بالسهم القاتل الأخير. ولا تعرف بلد فى أوربا هذه المصارعة للثيران. ومن المؤكد أن الإسبان ورثوا حفلات هذه المصارعة عن العرب فى الأندلس إذ تلقانا نصوص أندلسية تدل - بوضوح - على أن هذه الحفلات كانت تعقد بغرناطة فى حلبات معدَّة لها، إذ كان يطلق فى الحلبة ثور وترسل عليه كلاب متوحشة لا تزال تصارعه وتنهش فى جسده ذات اليمين وذات الشمال حتى تخور قواه وحينئذ يخرج إليه فارس ممتطيا جواده وبيده رمح مايزال يسدده إليه حتى تكون الطعنة القاضية، على نحو ما يحدث اليوم فى مصارعة الثيران بمدريد وغيرها من المدن الأندلسية.

وفى اليوم التالى زار صاحبى طُلَيْطلة: أقرب المدن الأندلسية إلى مدريد، وهى تقوم على تلال مرتفعة تجعل منها حصنا منيعا لا يمكن اختراقه، وحولها كثير من البوابات والأسوار والقناطر، وبها كنيسة فخمة كانت جامعا كبيرا قبل سقوطها فى حجر ألفونس السادس سنة ١٠٨٥ للميلاد، وهى أول مدينة أندلسية استولى عليها نصارى الشمال، وكان استيلاؤهم عليها نذير شؤم لضياع الأندلس فيما بعد، ولهذا

الاستيلاء قصة فى منتهى الغرابة، فإن فردناند ملك قشتالة وليون والبرتغال قسم ملكه - بعد موته - بين أبناء ثلاثة له، وخص شَانْجُهْ بقشتالة وألفونس بليون وغَرْسية بالبرتغال، وتحارب سانشوا مع أخويه بعد موت أبيه واستولى على ما بيدهما وفرَّ منه ألفونس ولجأ إلى المأمون بن ذى النون أمير طليطلة فى عصر أمراء الطوائف، فرحَّب به وأنزله مع من جاء معه من أنصاره فى قصر بجوار قصره! وظل يسبغ عليه من كرمه. ودلَّ بذلك على أنه طائش قصير النظر، فبدلا من أن يرمى بعدوه فى غياهب السجون أتاح له أن يعرف كل شىء عن طليطلة هذا الحصن الأشم، ويعرف مداخلها ومخارجها. وبعد نحو تسعة أشهر قتل أخوه سانشوا واستدعاه حزبه من طليطلة، وولوه ملكا على قشتالة وليون، فتلقب بلقب ألفونس السادس، ووضع نصب عينيه تحقيق حلمه بالاستيلاء على طليطلة: الحصن العربى الشامخ وتحقق له الحلم سنة ١٠٨٥ كما ذكرنا، وكان ذلك أول ضربة قاصمة وُجِّهت إلى العرب فى الأندلس، وتنادى بعدها نصارى الشمال: استردُّوا الأندلس من أيدى العرب، واكفهرت الأجواء، ولولا أن استغاث الأندلسيون بيوسف بن تاشفين

ملك المرابطين فى المغرب، فدخل الأندلس بجيش جرار وهزم ألفونس ونصارى الشمال فى موقعة الزلاقة هزيمة ساحقة لضاعت الأندلس فى القرن الحادى عشر الميلادى أو بعده بقليل بغباء ابن ذى النون وشدة غفلته.

وفى اليوم الثالث زار الإسكوريال على بعد ٦٠ كيلو مترا من مدريد، ومبناه يضم مكتبة ضخمة وقصرا وبهوا كبيرا، وبالمكتبة صور لأعلام الفكر اليونانى والرومانى والعربى، وبها مخطوطات قديمة كثيرة: يونانية ولاتينية وعربية. وبالقصر غرف تضم توابيت الملوك الإسبان والملكات، وعلى كل تابوت اسم صاحبه. والبهو صالة واسعة، بها لوحة كبيرة تمثل الإسبان يديرون معركة مع العرب على أبواب قصر الحمراء بغرناطة حين الاستيلاء عليه، وقد استولوا عليه سلما لا حربا، كما صنع الرسام خطأ. وفى نفس هذا اليوم زار وادى الشهداء فى الحرب الإسبانية الأهلية التى انتصر فيها فرانكو سنة ١٩٣٩ وقد خلَّد ذكراهم بإقامة صليب ضخم بأعلى جبل فى مدريد، ونُحتت فى بطن الجبل كاتدرائية ضخمة يتقدمها بهو أو فناء فسيح طويل، دُفن على جانبيه ثلاثمائة صُرعوا فى الحرب رمزا لجميع صرعاها. وفى صدر هذا الفناء

دُفن فرانكو، ولو طلب أن يُدْفَن مع ملوك إسبانيا فى الإسكوريال لنفَّذوا رغبته، ولكنه آثر أن يُدْفَن مع من حملوا السلاح معه، ومما يذكره الإسبان له أنه أبى بعد أن أصبحت مقاليد الحكم بيده سنة ١٩٣٩ أن ينزل فى القصر الملكى وسكن فى ضاحية من ضواحى مدريد، ويقال إنه أبى أن يُصْنَع له أى تمثال فى حياته أو أن يضاف إلى اسمه أى عمل من الأعمال تخليدا لاسمه. وكان كثير من حكام العرب يأبون أن تخلَّد أسماؤهم على الإنشاءات فى أيام حكمهم، ومن أروع الأمثلة فى ذلك صلاح الدين الأيوبى فإنه لم يُسَمَّ باسمه أى مدرسة أو أى مارستان أو أى رباط لمتصوفة من الرباطات والمارستانات والمدارس الكثيرة التى أنشأها بالقاهرة ومدن الشام. ويذكر المؤرخون أنه لما توفى لم يوجد فى خزائنه سوى دينار واحد وسبعة وأربعين درهما، ولم يخلِّف دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا مزرعة أو ضيعة.

وزار قرطبة، وقد أسس فيها عبد الرحمن الداخل الدولة الأموية الأندلسية سنة ١٣٨ وظلت تلك الدولة تحكم الأندلس نحو ثلاثة قرون، شادت فيها حضارة عربية باهرة كانت منارة لأوربا فى أواخر عصورها الوسطى لتسير على

هداها إلى حضارتها الحديثة علميا وفلسفيا وأدبيا وفكريا، وكانت تُعَدّ فى القرن العاشر الميلادى أعظم المدن الأوربية حضارة بما فيها من علم وأدب وفلسفة ومعمار وهندسة، وكان حكام ليون وبرشلونة وقشتالة فى الشمال المسيحى يفزعون إلى قرطبة كلما احتاجوا إلى مهندس أو موسيقار أو طبيب، وقد لجأت طوطا ملكة نبارَّة بابنها سانكو إلى عبد الرحمن الناصر الأموى ليعالجه لها أطباؤه من سمنة مفرطة، وعالجوه وبرئ من سمنته. وأهم أثر عربى لايزال قائما فى قرطبة الجامع الأموى وقد مرَّت عمارته بأربعة مراحل، كانت أولاها فى عهد عبد الرحمن الداخل، إذ أنشأ فيه اثنى عشر رواقا موازية للمحراب، وكانت الثانية فى عهد عبد الرحمن الأوسط إذ زاد فيه ثمانية أروقة فى اتجاه نهر الوادى الكبير المخترق لقرطبة، وكانت الثالثة فى عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر إذ زادا فيه اثنى عشر رواقا، وأقاما فيه محرابا بديعا ومقصورة كبيرة ومئذنة فى أقصى الصحن شماليَّه، جعلاها على هيئة برج ضخم. وتمت المرحلة الرابعة فى أيام المنصور بن أبى عامر إذ زاد فى الجامع زيادة كبيرة بحيث أصبح يمثل مع صَحْنه نحو خمسة أفدنة. والجامع غابة ضخمة

من الأعمدة والأقواس والعقود وعلى أحد الأعمدة مكتوب: ﴿ومَنْ يتوكَّل على الله فهو حسبه﴾ ولابد أن كانت على الأعمدة آيات قرآنية كثيرة أزالها القشتاليون، ولا يزال به ثلاثة أعمدة متميزة، على أحدها اسم محمد ﷺ، وعلى الثانى صورة عصا موسى وأهل الكهف، وعلى الثالث صورة «غراب نوح خلقة ربانية». ولايزال المحراب قائما بنقوشه وزخارفه وما ازدان به فى أعلاه وجوانبه من آيات قرآنية، وعلى يمينه المنبر الضخم الذى ظل يعمل فى صناعته ونقشه ثمانية من الصناع المهرة لمدة سبع سنوات، وفى مواجهته منصة قائمة على أعمدة كانت تحمل مصحفا من مصاحف سيدنا عثمان السبعة التى وزعها على الأمصار الإسلامية ولايزال شذاه يفوح هناك كما يقول شوقى فى سينيَّته الأندلسية. والجامع من أروع الأعمال المعمارية التى صاغها البشر، وبدلا من أن يحافظ عليه القشتاليون حين استولوا على قرطبة ويصونوه عن أى تغيير فيه وضعوا على مئذنته ناقوسا كنسيا ضخما، وبنى به فرناند وإيزابيلا كاتدرائية صغيرة، وبنيت فى جانب منه كنيسة، وفى القرن السادس عشر الميلادى بنيت به كاتدرائية كبيرة. وكل ذلك شوَّه - ويشوه - صورة هذا

الجامع العظيم الذى كان جامعة كبرى تغص بالشيوخ والطلاب، وتُشَدُّ إليه الرحال من أطراف الغرب المسيحى: من الممالك المسيحية الإسبانية الشمالية ومن ألمانيا وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا.

وتجوَّل فى الأنحاء المجاورة للجامع، ولاتزال بعض الدور فيها تحتفظ بالطابع العربى، ودخل إحداها فرأى بها الصحن المعروف فى منازل القاهرة القديمة وفى دمشق. وبه نافورة صغيرة وعلى جوانبه أُصُص الأزهار الفخارية مرصوصة. والشوارع حارات وأزقة ضيقة، وكأنما قرطبة القديمة لم تكن تختلف فى مبانيها عن مبانى المدينتين الشرقيتين الكبيرتين: القاهرة ودمشق. وبجوار الجامع قصور لبنى أمية مسوَّرة يسكنها القسس وبها حدائق، وما أحراها أن تتحوَّل متحفا. وشاهد صاحبى بقرطبة أنصابا تذكارية لابن رشد وابن حزم، ولابن زيدون وصاحبته ولادة وقد تشابكت يداهما للتحية والسلام وعلى نصبهما نُقش هذان البيتان المشهوران لحفصة الرَّكونية:

أغار عليك من عينى ومنى   ومنك ومن زمانك والمكانِ
ولو أنى خبَأْتُك فى عيونى   إلى يوم القيامة ما كفانى

وحُفر اسم ولادة تحت البيتين، ومعروف أنها كانت شاعرة ولها فى الحب كثير من الأبيات الغزلية الطريفة، ويعد ابن زيدون أهم شعراء الأندلس الوجدانيين الغزلين.

واتجه بعد قرطبة إلى إشبيلية على الضفة اليمنى لنهر الوادى الكبير قرب مصبه فى خليج عميق يدخل إليه مدّ المحيط وجزره وتتأثر به مياهه، وقد تخلت لها قرطبة عن زعامتها لعهد حكامها من بنى عباد زمن أمراء الطوائف وأصبحت أعظم المدن الأندلسية، بل لقد تبعتها قرطبة ومضى حكامها يعيشون معيشة بذخ، محيطين أنفسهم بكوكبة ضخمة من الشعراء يتغنون بمديحهم، وأحال آخرهم المعتمد بن عباد قصره إلى ما يشبه مسرحا كبيرا للغناء والخمر والقصف، وبلغ من ترفه أن زوجته اعتماد الرُّمَيْكية أم أبنائه - وكان يشغف بها شغفا شديدا - رأت بإشبيلية ذات يوم نساء البادية يبعن اللبن فى القِرَبِ وهن رافعات ثيابهن عن سيقانهن لسيرهن فى الطين، فقالت له: أشتهى أن أفعل أنا وجوارىّ مثل هؤلاء النساء، فأمر بإحضار حمل من العنبر والمسك والكافور وماء الورد، وأحالها جميعا طينا بأحد أركان القصر، ثم أمر بقرب وحبال من الحرير قُدِّمت إليها هى

وجواريها، فأخذن يَخُضْنَ فى ذلك الطين. وهو سفه ما بعده سفه. وبينما كان يعيش هذه المعيشة المترفة غاية الترف التى يعتصرها اعتصارا من عرق رعيته كان يخاصم جيرانه من العرب وينازلهم فى معارك ضارية، بينما كان يركع خانعا على قدميه لألفونس السادس ملك قشتالة ويؤدِّى إليه الجزية سنويا صاغرا، وكان على وشك أن يبتلع إمارته كما ابتلع إمارة طليطلة لولا أن تداركه وتدارك الأندلس يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، وقد خلعه ونفاه إلى المغرب جزاء وفاقا لما اقترف فى حق إمارته وحقوق الأندلس العربية. وتجوَّل فى قصره. وكان قد أصبح مقرا لحكام إشبيلية المرابطين ثم الموحدين، ورأى الغرف والقاعات والأبهاء والجدران مزدانة بالنقوش وآيات الذكر الحكيم وبأبيات من أشعار الشعراء فى مديح الخليفة الموحدى أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب المنصور صاحب موقعة الأَرَك المشهورة مع القشتاليين وقد محق جيشهم وكاد لا يبقى فيه بقيَّة، وهو الذى أمر ببناء مسجد إشبيلية الكبير ومئذنته الضخمة «الخيرالدا» وهى أعظم مئذنة فى العالم الإسلامى، إذ كان عرضها يبلغ ستين ذراعا، وكان الفارس يستطيع أن يصعد إلى

قمتها على فرسه، أما ارتفاعها فكان يبلغ مائتين وأربعين ذراعا، وفى أعلاها برج يبلغ ارتفاعه نحو ثمانية أذرع، وكأنما يشدُّ الفكر نحو السماء للتأمل فى ملكوتها الأعلى. وحين استولى الإسبان على إشبيلية أحالوا جامعها إلى كاتدرائية ضخمة، ولم يبق منه الآن إلا بعض جدران، أما المئذنة فأحالوها إلى بُرْجٍ لنواقيس الكاتدرائية. ودخلها، ورأى فيها تابوت كولمبوس مكتشف أمريكا، وكان مدفونا بكوبا فنُقل إلى إسبانيا بعد انتهاء الحرب الأهلية الإسبانية. ويحمل التابوت أربعة، يرتدى كل منهم ثوبا يرمز إلى إحدى الولايات الإسبانية الأربعة التى تحملت تكاليف نقل جثمانه من كوبا، وبفضله احتلَّ الإسبان أمريكا الجنوبية، ونحو ٩٠ فى المائة من السيَّاح الذين يفدون على إسبانيا سنويا من أهلها، وجميعهم يتكلمون الإسبانية.

وقصد إلى غرناطة ونزل فى فندق مسمًّى فندق واشنطن إيرفنج، وهو كاتب أمريكى بهره قصر الحمراء فأقام بأحد أجنحته فترة كتب فيها قصصه التى نشرها باسم قصص الحمراء. وكان الفندق قديما قصرا لأحد وزراء بنى الأحمر حكام غرناطة أو أحد رجالاتهم إذ تتردَّد على حوائطه

شارتهم: «ولا غالب إلا الله» فى أُطُرٍ ونقوش بـديعة. وفى المسـاء شاهـد صاحبى حفـلا لرقص إلفـلامنكـو الشعبى بإسبانيا، ولاحظ فيه تأثيرات عربية واضحة، إذ غالبا ما يكون رقصا فرديا ترقص فيه سيدة على إيقاعات الموسيقى، والراقصون والراقصات فيه يضربون الأرض - فى أثناء رقصهم وحركاتهم - بأحذيتهم ضربا عنيفا، وكأنهم يحاكون ضرب الخيل الأرض بحوافرها الصلبة السريعة. ولفتته رقصة لجوقة من الفتيات يتلفعن فيها بالشال، ووجوههن نصف محجبة، ودائما تحتشم الراقصات فى ملابسهن فلا صدور ولا سيقان عارية. ويتميز الغناء فى أثناء الرقص بنوع من التطريب. وتتضح فى كل ذلك التأثيرات العربية. ويوجد فى الشعر الأندلسى وصف راقصين وراقصات يتثنين ويتمايلن ميل الأغصان متلاعبات بعقول الـرجال. وكـانوا يضمون فى الرقص أحيانا أقدامهم إلى رءوسهم فى تقوسات بديعة مما جعل شاعرا يصف راقصة بأنها ضمت قدميها إلى رأسها حتى أصبحت تشبه أدق الشبه سيفاضُمَّ مقبضه إلى نهاية طرفه فى هيئة بارعة.

وفى صباح اليوم التالى زار قصر الحمراء، وهو على ربوة

مسطحة واسعة عالية، والأسوار والأبراج تحيط به من كل جانب للدفاع عنه: وله سور خارجى عليه باب ضخم يحمل برجين كبيرين للحراسة، وقد كتب فوق عقده: «أمر ببناء هذا الباب المسمى باب الشريعة أمير المسلمين السلطان المجاهد العادل أبو الحجاج يوسف عام ٧٤٩ هـ. وسمى القصر باسم الحمراء لأن اللون الأحمر يكسو جدرانه وحوائطه، ولا يزال يكسوها إلى اليوم ودخل صاحبى ساحة القصر الأمامية وكان بها مبان أزالها فرناند وإيزابيلا حين استسلمت لهما غرناطة، وعنَّ للملك كارلوس بعدهما أن يبنى قصرا فى مواجهة الحمراء، فهدم له كثيرا من الأبهاء والحمامات وحجرات النساء والحاشية مما يدل بوضوح على تأخر الإسبان حضاريا فى تلك الأزمنة، وتشهد نفس الشهادة قصور حكام العـرب فى طليطلة وجيّـان والمريـة ومرسيـة وبلنسية، فقد أحالها الإسبان أطلالا.

ومضى صاحبى إلى مدخل القصر حيث فناء الريحان المكشوف المستطيل وبركته وما على جانبيها من أشجار ريحان، خلفها غرف متعددة، وقد نقشت وراءها على الحيطان كلمات السعادة والصحة والحمد لله والآية القرآنية: ﴿نصر

من الله وفَتْحٌ قريب وبشر المؤمنين﴾ ويلقانا اسم أبي الحجاج يوسف منشيء القصر. ومقابل العقد الأوسط من عقود فناء الريحان برج قمارش ويدخل الزائر إلى حجرات القصر الفخمة، ومن أروعها قاعة السفراء وعلى عقد مدخلها أبيات تحيى بلسانها السلطان يوسف أبا الحجاج منها:

تحييك منها حين تصبح أو تمسى
ثغور المنى واليمن والسعد والأُنْس

وفى هذه القاعة سلمت إيزابيلا لكولمبوس الأموال التى يحتاجها فى رحلته لكشف أمريكا، ومن الغريب أن الذى قاد سفينته إليها ملاحون من العرب وأسماؤهم لا تذكر مع أنهم أصحاب الاكتشاف الحقيقيون لتلك القارة الجديرون بكل تمجيد، مثلهم فى ذلك مثل ابن ماجد الملاح العُمانى مع ڤاسكو دى جاما، فإن هذا الملاح العربى هو الذى قاد سفينته إلى الهند، وأتاح له اكتشاف الطريق إليها، ومع ذلك لا ينوه بفضله أحد فى إسبانيا فضلا عن أوربا.

ومقابل قاعة السفراء أو قاعة العرش بَهْو الأسود بأعمدته الرخامية، ويتوسطه حوض كبير من الرخام به

نافورة يحملها اثنا عشر أسدا، تقف فى بركة قليلة الغور والماء يتدفق من أفواهها، وعلى النافورة وحوائط البهو نُقشت أبيات رائعة من قصيدة يائية لابن زمرك شاعر سلطان غرناطة الغنى بالله منشيء البهو ونافورته، وفيها يقول عن النافورة:

وراقصةٍ فى البَهْو طوعَ عِنانها ... تراجع ألحان القِيان الغَوانيا
إذا ما علتْ فى الجوِّ ثم تحدَّرتْ ... تحلِّى بمرفضِّ الجُمان النواحيا
تشابَه جارٍ للعيون بجامدٍ ... فلم أَدْرِ أيًّا منهما كان جاريا

والمياه تندفع إلى الحوض من قنواتٍ تجرى بها فى جميع غرف القصر وأبهائه ملطفة للجو. ويكتظ البهو بالقيشانى الملون فى أسفل حوائطه كما يكتظ هو وجميع غرف القصر بتزاويق وترصيعات زخرفية لا حصر لها من أشجار وأغصان وأزهار وطيور ونجوم فى ألوان وهيئات شتى. وانعطف إلى حجرة خاصة بصلاة الأمير بها محراب للإمام. وتتصل بالبهو قاعة نقشت فى سقفها صورة لعشرة رجال معممين، وهم إما رمز لقضاة غرناطة وإما رمز لفقهائها. ورأى حمام القصر، وبه قسم يدل على استخدام البخار للتدليك، وبه مواسير للمياه الباردة والحارة.

وتحوَّل من القصر إلى الحديقة الملحقة به، وتسمَّى جنة العريف، وهى قطع خلابة من الرياض تجرى المياه بها فى قنوات على حِفافها نافورات تتدفق المياه منها فى هيئة أقواس بديعة، وحول القنوات - وتتدلَّى على بعض أجزائها - نباتات وأزهار وورود رائعة، كأنما اقتُطعت من الفردوس بأريجها ومناظرها الفاتنة. وإن وصف قصر الحمراء الخلَّاب مع جنته لتعجز الألفاظ عن بيانه، بل إنه ليعزُّ على أى لغة أن تصف روعته وفتنته وسحره الأخاذ. وإنه ليقف شاهدا شامخا على مدى ما بلغته الحضارة العربية فى الأندلس من رقى وازدهار يفوقان كل وصف وبيان. ولو أن المتنبى الذى بهره شِعْب بَوّان بإيران رأى جنة العريف لنسى الشِّعب وظل يدبِّج القصائد تلو القصائد فى هذه الجنة البالغة الروعة. وإذا كان قد كدَّر عليه إحساسه بجمال شعب بَوّان أنه لم ير للعرب ولغتهم أثرا فيما حوله بإيران فإن كل عربى اليوم حين يزور غرناطة ويرى الحمراء وجنة العريف ليمتلىء أسى لخروج العرب من الأندلس أصحاب تلك الحضارة الباهرة وما تصور من نهضة فنية وصناعية وعمرانية، وكانت تشدُّ

أَزْرَ تلك النهضة نهضة لا تقل عنها روعة فى الطب والصيدلة والرياضة والفلك والفلسفة والشعر والغناء والموسيقى مما دفع الإسبان فى الشمال وأمم الغرب: إيطاليا وفرنسا وإنجلترا وألمانيا من القرن الحادى عشر الميلادى إلى القرن السادس عشر إلى العكوف على تلك النهضة وكتبها وترجمتها ونقلها إلى اللاتينية وإلى لغاتهم متخذين منها مصابيح تهديهم فى مسيرتهم إلى حضارتهم الغربية الحديثة.

وفى عام ١٩٨٤ رأى صاحبى أن يقضى فترة من الصيف فى ألمانيا وسويسرا، فبارح القاهرة إلى فرانكفورت بألمانيا، وكان من طريف ما شاهده فيها منزل أديب ألمانيا المشهور جوته المتوفى سنة ١٨٣٢ وكان البيت قد تهدم فى الحرب العالمية الأخيرة، وأعيد بناؤه بأوضاعه القديمة بكل ما كان يحتويه من أثاث ورياش وصور لأصدقائه، وكأنما لم يصبه أى هدم ولا تخريب ولا دمار، ويدل البيت بطوابقه الثلاثة وما فيها من رياش وتحف على ثراء أسرته، ويقال إن جده كان عمدة فرانكفورت وكان أبوه محاميا وكانت أمه من سلالة طبقة الأشراف،

وقالت المرشدة إن أباه كان يأخذه بتربية صارمة، فرض عليه فيها أن يدرس اليونانية واللاتينية والفرنسية والإنجليزية، وكان يراقبه فى سهره بالخارج ليلا، ولاحظ أنه يتأخر فى سهره أحيانا إلى هزيع من الليل، فهدم جزءا من حائط مكتبته المشرف على السلم، وأقام فيه نافذة ليراقبه ليلا، وكان يظل ساهرا وراءها ليعرف متى يعود، ودفعت الأمَّ محبتُها لابنها وخشيتها عليه من تأخره أن تفتح له بابا خلفيا يصعد منه إلى غرفته حتى لا يراه أبوه حين عودته. وكان الأب حين يشعر بتأخره فى العودة بإحدى الليالى يظل ساهرا وراء النافذة، وكلما مضى شطر من الليل ازداد غضبه حدة، حتى إذا طال عليه الانتظار صَعد إلى غرفته فوجده نائما بها فيعجب من ذلك ويطمئن باله. وقالت المرشدة إن جدته أهدته - فى صباه - مسرحا صغيرًا، ومعه مجموعة من العرايس والدمى فكان يقصّ عنها بعض القصص الخيالية مما أعدَّه - فيما بعد - ليكون قصاصا مبدعا. وقالت إنه أحبَّ - وهو شاب - سيدة متزوجة، وكان يكثر من التردد عليها هى وزوجها، وشغفته حبا وهام بها فؤاده. وتصادف أن شابا ألمانيا أحبَّ فتاة حبًّا طاغيًا ولم يتح له زواجها فانتحر تخلصا من آلام حبه وعذابه، فكتب جوته قصته المشهورة «آلام ڤرتر» أفرغ فيها آلامه فى حبه. وحين نشر القصة انتشر معها الانتحار بين الشباب فى ألمانيا وأوربا، واتخذ ذلك شكل وباء بين المراهقين من المحبين المملوءين صبابة وعشقا ويأسا، وسُمِّى العام الذى اجتاحه هذا الوباء عام الانتحار لكثرة العشاق المنتحرين فيه. وتجول صاحبى مع المرشدة فى بيت جوته، ورأى مكتبة أبيه، وكانت تضم - ولا تزال - ١٩٠٠ كتاب، ورأى حجرة والدته الخاصة التى ولد بها ورأى مطبخها وأوانيه كما رأى غرفات البيت وردهاته وما به من زهريات ومناضد وتحف وأيضا ما به من صور لكبار معاصريه من المفكرين والفلاسفة والكتاب والشعراء أمثال شيلر. ويحق لفرانكفورت أن تفخر باستطاعتها إعادة منزل شاعرها الكبير جوته بجميع أوضاعه القديمة، وإنه ليعجّ يوميا بزواره.

وزار بعض المدن الصغيرة بالقرب من فرانكفورت، ولاحظ أن شوارع السوق لا تدخلها سيارات حفاظا على الأطفال والمشاة من النساء والرجال، وهو نظام كان

سائدا فى المدن العربية قبل العصر الحديث ولا تزال منه بقية فى بعض تلك المدن مثل دمشق وسوقها المشهور باسم الحميدية، وهو سوق مسقوف. وكذلك كانت الأسواق مسقوفة فى المدن المصرية الكبيرة وتخلَّت عنها سواء من حيث السقوف أو من حيث قَصْر السوق على المارَّة وحدهم، وكأنما أخذت المدن الألمانية أو بعضها - على الأقل - بنظام الأسواق العربية القديمة، وما كان أحرانا أن لا نهجره ولا ننساه. ورأى فى زياراته السريعة بإحدى تلك المدن ساحة واسعة ليستريح بها الجمهور على مقاعد مرصوصة، وخلف المقاعد مسرح صيفى مكشوف، تشاهد على خشبته بالتناوب طوال الأسبوع ثلاثة برامج: برنامج للأطفال فى الرابعة مساء تقدِّم لهم فيه قصص تمثيلية مثل علاء الدين واللمبة السحرية. وبرنامج ثان للشباب بين السابعة والنصف والتاسعة مساء وفيه تقدم موسيقى حديثة وكونشرتو وموسيقى الجاز. وبرنامج ثالث للكبار فى نفس موعد البرنامج السابق، إذ لكل منها أيام معينة من الأسبوع، وفى البرنامج الأخير تقدم موسيقى كلاسيكية. وهى خدمات تقدم للجمهور مجانا فى جميع

البلدان الألمانية. وحبذا لو أقمنا مثل هذه المسارح الصيفية المجانية المنظمة فى أيام الأسبوع بالتناوب لا فى الأحياء الكبيرة بالقاهرة والإسكندرية فحسب، بل أيضا فى عواصم المحافظات ومدن المراكز، وخاصة الكبيرة ولا أشك فى أننا لو صنعنا ذلك نَّمينا الخيال القصصى فى كثرة من أطفالنا، وأتحْنا لشبابنا وشيوخنا تمضية بعض أمسيات ممتعة للتسلية والترفيه عنهم خلال أيام الصيف.

وزار قلعة بمدينة هيدلبرج ورأى كثرة من الناس يؤمونها للفرجة عليها وصعد مثلهم فى قطار صغير مكون من عربتين، مع أن الطريق قصير ويمكن الصعود فيه على الأقدام. وتجوَّل - مع المتفرجين - فى القلعة، ورأى بها مكتبة حديثة تباع فيها الكتب ومحلا لبيع الحلوى وبعض غُرَف أثرية ومتحفا يضم بعض أسلحة قديمة. وعجب صاحبى إذ رأى على سطحها أناسا كثيرين جاءوا للفرجة عليها، مع قلة ما يستحق الرؤية والمشاهدة. وما أحرانا أن نصنع نفس الصنيع بقلعة صلاح الدين ففيها فعلا متحف لأسلحة حربية قديمة، وفيها آثار تفوق ما بقلعة هيدلبرج بمراحل كثيرة.

وشاهد فى بافاريا قصر ليندرهوف المشهور الذى أقامه ملكهـا لودڤيـج فى القرن المـاضى وكان معجبـا إعجـابـا شديدا بلويس الرابع عشر، وزار باريس، وأعجب بقصـر ڤرساى وحدائقه البديعة ورأى أن يجعـل من قصره قصـر ڤرساى فى وسط أوربا، وشاده على ربوة عالية، ووضـع فى مدخله تمثالا للويس الرابع عشـر. وتموج طـوابقه وغـرفه وردهاته وأركانه بـطنافس لاحصـر لها، وزخـرفةُ حـوائطه مـطبوعـة بالـطابع الفـرنسى وعلى سقف حجـرة العرش صـورة الشمس وعلى سقف غـرفة نـومه صـورة مـركب أبولو إله الشعر والموسيقى وعلى سقف إحـدى الردهـات صورة مولد ڤينوس. وفى إحـدى حدائقـه بركـة بها تمثـال لمجموعة نبتـون إله البحـر، وهو يقـذف بالميـاه من أفواه خيل متأهبة للمسير. وبحديقة ثانية تمثـال لڤينوس وآخـر لأدونيس رب الشبـاب والجـمال وبـركـة مياه بهـا تمثـال لكيـوبيد وهـو يسدِّد قـوسه وسهـامه إلى أفئـدة المحبـين الـواهين. وكـان لودڤيـج معجبا بفن المـوريسكيين بقـايـا العـرب فى الأنـدلس فشـاد لقصـره ملحقـا بـأسلوبهم فى العـمارة والزخـرفة واستخـدام الزجـاج الملون فى السقوف والنوافذ، وألحق بالقصر مغارة سماها مغارة ڤينوس. وجعل منها بحيرة صغيرة اتخذ فيها لنفسه زورقا يسع اثنـين على هيئة صدفة بحرية، ورسم على حائط المغارة مشهد الفصل الأول من أوبـرا ڤاجنـر: «تانهويـزر» وتُرَى فيـه ڤينوس إلهة الحب مضطجعة وعشيقها «تـانهويزر» راقـد ورأسه فى حجـرها وعـرائس الماء الفـاتنـات يَسْتحممن غـير بعيـد والحور وربَّات الـرشاقـة يتهيأن للرقص. ومـا أحرانـا أن نحيل بعض قصور الأسـرة العلوية - مثـل قصر الأمـير محمد على وقصر المنتزه إلى متاحف، ولكل متحف تـذاكره تلقاء الفرجة عليه ودليله بـالعربيـة - وباللغـات الأجنبية من أجل السياح - فإن ذلك من شأنه أن يُدِرَّ على مصـر عائدا غير قليل.

وتحـوَّل من ألمانيـا إلى سـويسـرا عن طـريق بحـيرة كـونستانـزا، ومرَّ بلوتسـرن وبحيرتهـا، واتجه لـرؤية قمَّـة «يونجفراويوخ» أعلى قمة فى أوربا، ونزل بقربها فى فندق بقرية إنترلاكن. وفى اليوم التالى ذكر لصاحب الفندق أنه ذاهب لمشاهدتها، فنصحه أن يشترى لها نظارة شمس حتى لا يؤذى عينيـه وهج الثلج فـوقها، فـاشتراهـا، واشـترى

تـذكرة الـرحلة إليها، وركب مـع كثيرين قـطارا صغـيرا لمشاهدتها وسار بهم فى طريق صاعـد، وفى منتصف الطريق نزلوا منه وركبوا قطارا صغيرا ثانيا كـانت تحفُّ به جبـال شامخة ذات اليمين وذات الشمال يتـوّجها الثلج، ويـترامى على سفوحها، والسحب أمامها تتحرك على صفحة السماء، كـأنما تـريد أن تسبق القـطار إلى القمـة المنشـودة ولكن هيهـات، فأجنحتهـا أقصـر من أن تصـل إليهـا، وتـذعن للهبـوط دونها. وزحف القـطار حتى بلغ القمـة. ونـزل صاحبى وهاله الضوء المتـوهج المنبعث من الثلوج فـوضع النظارة سريعا على عينيه، ورأى حشدا يتزاحم على كهف للتزحلق، وما كاد يدخل فيه حتى خرج مسـرعا، إذ كـان أشبه بثلاجـة شديـدة الزمهـرير. وأخـذ يمتع عينيـه بمنظر الثلوج وهى تتراءى فى شُطَب وهيآت خلّابة متنوعة طولا وعـرضا، وسَنـاها يكـاد يخطف الأبصـار. وعاد بعـد هـذه الرحلة الممتعة فى جوف السماء إلى فندقه، وكـان فى ملتقى بحيرتين، وسويسرا تكتظ بالبحيرات وفى اليوم التالى أخذ طريقه إلى مدينة مونترو على بحيرة جنيف، وهى تستـدير حول خليج بديع، تنطرح عليه جبال شاهقة كأنما تريد أن

تغسل أقدامها فى مياهه. وربما كان خير وصف لسويسرا أنها بحيرات وجبال وغابات ما يزال السائح متنقلا بينها متمتعا بمناظرها الساحرة.

وانتهى المطاف بصاحبى فى سويسرا إلى عاصمتها «بيرن» فنزل بأحد فنادقها، وفى الصباح اشترك فى فوج سياحى لرؤية المدينة وأخذت المرشدة المرافقة تذكر لهم ما يمرون به من معالم المدينة ودور وزاراتها وسفاراتها وبينها السفارة المصرية. ومر الفوج فى أحد الشوارع بمنزل فقالت إنه يسمى «بيت الأشباح» وهو مهجور، ولا يجرؤ أحد على السكنى فيه خوفا من الأشباح التى تقطنه، وهى خرافة كخرافة الكائن البحرى الذى يعتقد أهل اسكتلندة أنه رابض فى بحيرة «لوخ نيس» وأن أحدا لا يغامر وينزل فيها إلا فتك به. والخرافتان دليلان واضحان على أن الأمم مهما ارتقت علميا وعقليا لا تزال الخرافات تجد لها مأوى فى أذهانها. وكما يتضح ذلك فى الأمم يتضح فى الأفراد، فقد يكون الشخص من أعلم معاصريه بقوانين العلوم الطبيعية، ومع ذلك يؤمن بالأشباح وبقوى غيبية إن تراءت له لا يستطيع دفعا لها ولا خلاصًا من شرها. وهى خيالات

كامنة فى نفوس الناس منذ الأزمان البعيدة: أزمان طفولة الإنسانية بل أيضا منذ أزمان طفولتهم وصباهم المبكر، وينبغى أن يتخلص منها الإنسان - متى شبَّ - ويطرحها بعيدا عن باله وفكره، حتى لا تفسد عليه حياته، ويعيش أسير خرافات وأوهام.

وبينما كان مستغرقًا فى هذه الفكرة وما يتصل بها من الإيمان بالخرافات والأشباح الخفية غير المرئية إذا المرشدة تدعو الفوج للنزول كى يشاهد حديقة بديعة التنسيق مكتظة بالورود والرياحين الأرجة التى تبعث البهجة فى الناظرين. وقبيل الساعة الثانية عشرة ظهرا توقفت بالفوج عند مشهد ساعة كبيرة مثبتة فى برج، على بناء شاهق، وهى تحفة بديعة، وفى أعلاها مهرج يدق جرسين قبل أن تدق الساعة معلنة الثانية عشرة بثلاث دقائق، ويصيح توا تمثال ديك على اليسار محركا أحد جناحيه، ويقابله تمثال أسد مايزال يهز رأسه، وتمثال عمدة مايزال يحرك عصاه، وتدور مجموعة من الدببة فى استعراض بديع. وفى الساعة الثانية عشرة تماما تدق الساعة ويصيح الديك ويحرك أحد جناحيه كأنه يهمّ بالطيران، وتحت هذه الساعة الزمنية الكبيرة ساعة فلكية لبيان اليوم والشهر.

وقالت المرشدة مفتخرة إن هذه الساعة صنعها فلاح سويسرى سنة ١٥٣٠ للميلاد. ولو عرفت التاريخ الصحيح لصنع الساعة لشهدت بعبقرية صانعها العربى الذى اخترعها بذكائه الخارق فى القرن الثامن للميلاد لعصر هارون الرشيد، وكان يتبادل السفارات والهدايا مع شارلمان منشىء الدولة الألمانية الأولى، وحين أهدى إليه الرشيد ساعة عربية أصابه ذهول ودهشة وظنت حاشيته أنها من صنع عفريت من الجن وأنه هو الذى يدفعها إلى الدوران. وكانت أوربا حينئذ يغمرها ظلام جهل مطبق، وكان شارلمان أميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وهو رمز كبير لما كانت أوربا غارقة فيه من الجهل والتخلف الثقافى بالقياس إلى العرب الذين كانوا ينعمون حينئذ بازدهار حضارى وثقافى وعلمى. وأخذت أشعة من هذا الازدهار تخترق إلى أوربا البحارَ والجبال والسهول عن طريق الأندلس وصقلية حتى انزاح عنها ما كانت فيه من جهل وأمية وتخلف بفضل ما ترجمته عن العرب من ثقافة وعلوم وفلسفة مما اتخذت منه مشاعل أضاءت لها الطريق إلى حضارتها الحديثة.

وفى شهر مارس من السنة التالية ١٩٨٥ أقامت كلية

التربية بدمياط باسم جامعة المنصورة مؤتمرا لتكريم صاحبى، وفيه تحدَّث من جاءوا للاشتراك فيه من زملائه وأصدقائه وتلامذته عن وجوه نشاطه فى التأليف والدراسات الأدبية. وكان مما أثر فى نفسه أن فوجئ بأستاذ للأدب العربى بجامعة بكين - وهو من تلاميذه الصينيين القدماء - يحضر المؤتمر، ويلقى فيه كلمة قال فيها: إنه ترجم لأستاذه، «كتاب الأدب العربى المعاصر فى مصر» إلى الصينية، ويدرسه مع طلابه بجامعة بكين، وقدَّم له نسخة صينية من الكتاب قائلا: إنه ذكرى أيام عزيزة على نفسه، أيام الدراسة على يديه بجامعة القاهرة.

وفى صيف هذه السنة رافق رحلة لأساتذة وطلبة كلية الآداب إلى إستانبول: البلدة العزيزة على نفوس المسلمين فى جميع البقاع، إذ ظلت تتزعم عالمهم نحو أربعمائة عام، وكان شعبها التركى العثمانى قد هاجر فى القرن الثالث عشر الميلادى من آسيا الوسطى إلى آسية الصغرى تحف به مواكب الصوفية، وقد ظلوا يحثون حكّامه بقوة على منازلة بيزنطة وزحزحتها من آسية الصغرى طوال نحو قرن حتى دانت للترك بلدانها جميعا. وفى سنة ١٤٥٣ للميلاد اقتحم السلطان

محمد الفاتح أسوار بيزنطة (إستانبول) وفى ركابه شيخه الصوفى: آق شمس الدين واستولى عليها. واستطاع خلفاؤه من السلاطين العثمانيين الاستيلاء على شطر كبير من البلقان، وظل نزال الروس والغرب لتلك الدولة الإسلامية محتدما فى القرن الماضى. واشتركت مع ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى لهذا القرن، ودارت عليها الدوائر، فحاول الغرب أن يقتلعها من أوربا، ومزَّق ديارها فى آسية الصغرى، وسرعان ما تصدَّى مصطفى كمال (أتاتورك) ورفاقه لهذا العدوان الباغى وكوَّنوا فرقا تركية باسلة نازلت جيوش الاحتلال نزالا ضاريا أرغمها على الجلاء عن آسية الصغرى وعن إستانبول وشريط ضيق وراءها. ورأى هو ورفاقه أن لا محيص من إلغاء الخلافة وإعلان الجمهورية. وأحال أتاتورك تركيا جمهورية عصرية مصطبغة بصبغة مدنية، وتركت الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية والزى التركى إلى الزى الأوربى.

ونزل صاحبى إستانبول مع رفاقه وبات فى أحد الفنادق، وفى الصباح رأى أن يتجوَّل فى شوارع المدينة للفرجة ورؤية محلاتها، ولاحظ روعة فى نسيج السجاجيد، وكانت قد انتقلت

صناعتها قديما من إيران إلى إستانبول. وأهلها مهرة فى صنع الأزياء الجلدية للرجال والنساء، ولهم تفنن بديع فى صناعة الحلى والفضيات وفى تعاليق يسمونها «صرمات» من الشاموا والقطيفة والحرير منسوجة بخيوط فضية وذهبية، وحين تعلق على حائط صالون تصبح فتنة للناظرين.

ويحسّ نزيل إستانبول بأن الشعب التركى يحافظ بقوة على شخصيته القومية، فجميع اللافتات على رءوس الشوارع وواجهات الدكاكين مكتوبة باللغة التركية، وبالمثل البرامج فى الإذاعة والتليفزيون جميعها بالتركية، لا فى البرامج التركية الخالصة فحسب، بل أيضا فى البرامج الأجنبية، فإنها تترجم جميعا إلى التركية مع مطابقة العبارة للأصل مطابقة دقيقة، وبالمثل الأفلام السينمائية الأجنبية، فكل شيء لابد أن يكون تركيا، محافظة على الروح القومية. وهى ناحية تحمد للترك ولكل البلاد الأوربية التى تحتفظ مثلها فى الإذاعات وعرض الأفلام بشخصيتها اللغوية.

ولاحظ أن المرأة التركية تنهض بكل ما ينهض به الرجل من الأعمال، ومعروف أنها سبقت المرأة العربية إلى التحرر منذ نشوء جمعية تركية الفتاة سنة ١٩٠٧ وظلت تحاول أن

تشق طريقها إلى التحرر، حتى إذا كانت الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ وما بعدها اقتحمت ميادين العمل لتسدَّ الفراغ الذى أحدثته غيبة الرجال فى ميادين تلك الحرب، واتصل هذا الاقتحام بعد انتهائها فى أثناء مقاومة الفرق التركية الضارية للجيوش المحتلة لبلادهم، وتطوع كثيرات منهن للإسهام فى تلك المقاومة من أمثال البطلة «قرا فاطمة» والكاتبة خالدة أديب التى أسهمت مثلها فى معارك التحرير وصوَّرتها تصويرا رائعا فى روايتها: قميص النار». حتى إذا أعلنت الجمهورية نالت المرأة التركية كل ما كانت تحلم به من تحرر، وأخذت سريعا تكيِّف حياتها على طريقة حياة المرأة الأوربية، بحيث لم تعد تختلف عنها فى أى حقل من حقول العمل ولا فى أى جانب من جوانب الحياة.

وصلَّى الجمعة فى جامع السلطان أحمد، وحين دخله وجده - على سعته - مكتظا بالمصلين من الشباب والشيوخ، ورأى واعظا على مقعد مرتفع مستند على أحد أعمدة الجامع، ومئات من المصلين جالسين إليه يرهفون السمع لموعظته، وكان الحج إلى بيت الله أصبح قاب قوسين أو أدنى، فجعل موعظته عن فريضة الحج ووجوب أدائها على كل مستطيع

ماديا وصحيا، وكان يتخلَّل وعظه دائما بقوله: لبيك اللهم لبيك. وشعر بروابط أخوة روحية وثيقة تربط بينه وبين الترك الجالسين بجواره: أخوة الإسلام، وهى أقوى من أخوة العرق والنسب، لأن أخوة النسب والعرق دم وجسد وأخوة الإسلام نفس وروح وأفئدة يهوى بعضها إلى بعض. وأُذن للصلاة، فصلَّى جميع من فى المسجد سنة الجمعة: أربع ركعات، واعتلى الخطيب المنبر، وافتتح خطبته الأولى بحمد الله والصلاة على رسوله ومضى فى عظته باللغة التركية، متخللا لها بآى من الذكر الحكيم وببعض أحاديث، حتى إذا فرغ من الخطبة جلس قليلا، ثم وقف يلقى خطبته الثانية، مفتتحا لها بقوله تعالى: ﴿إن الله وملائكته يُصَلُّون على النبى يٰأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلِّموا تسليما﴾ وأضاف إلى تلك الآية آيات أخرى ثم رفع يديه ضارعا إلى ربه داعيا مستغفرا، ودعا معه المصلون، ثم نزل واتجه إلى المحراب، وأمَّهم. حتى إذا أتم ركعتى الجمعة، نهض - ونهض معه كل المصلين - لصلاة الظهر أخذا - فيما يبدو بعد - برأى بعض الأئمة أنه إذا تعددت الجوامع والمساجد فى بلدة كان من الخير أن يجمع المصلون بين صلاة الجمعة وصلاة الظهر، لأنه لا يعلم أى

المساجد والجوامع كان له فضل السبق فى البلدة بأداء صلاة الجمعة. وشعر بمسرة غير قليلة ملأت قلبه، وهو يؤدى صلاة الجمعة مع شيوخ إستانبول وشبابها، وقد اتجهوا جميعا - واتجه معهم - بقلوبهم نحو الكعبة وحرمها المكى يريدون أن يحوزوا لأنفسهم شيئا من نوره.

وتزخر إستانبول بجوامع ومساجد لا تكاد تحصى، وقد بنى السلطان محمد فاتحها عشرة مساجد، أهمها جامعه المحمدى الذى شيَّده فى وسط إستانبول، وأقام عليه مئذنتين، وألحق به مدرسة ومكتبة ومستشفى، ووضعت على يمين بابه الرئيسى لوحة نُقش عليها بأحرف من ذهب الحديث النبوى: «لتفتحنّ القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش» وقد مضى عليه أكثر من خمسمائة عام، ورُمِّم مرارا، وهو مغلق الآن، وشيد محمد الفاتح مسجدا من الرخام البديع بجوار ضريح أبى أيوب الأنصارى الذى أكرمه الرسول ﷺ بنزوله فى داره لأول هجرته إلى المدينة المنورة، وكان قد استشهد بجوار سورها فى أول هجوم للمسلمين عليها لعهد معاوية مؤسس الدولة الأموية. وبنى الفاتح قبة على ضريحه، وظل تقليدا عند سلاطين الدولة

العثمانيين أن يقلَّدوا فى مقام هذا الشهيد العظيم سيف عثمان من يد شيخ الطريقة المولوية عقب ارتقائهم العرش فى احتفال رسمى. وتبارى السلاطين بعد محمد الفاتح فى بناء الجوامع والمساجد بإستانبول، وأهمهم فى هذا الصنيع سليمان القانونى فى منتصف القرن السادس عشر، وقد بلغت الدولة لزمنه أوج سلطانها ومجدها، وكلَّف مهندسه المعمارى «سنان» إنشاء جامعه العظيم المسمى بالسليمانية، وهو أفخم مساجد إستانبول بما تزدان به أعمدته وجدرانه من الرخام البديع وما يزين محرابه من القاشانى النفيس وما يتوهج به زجاج نوافذه من ألوان يكاد سناها يخطف الأبصار. وشيد المهندس سنان بجانب هذا الجامع العظيم واحدا وثمانين جامعا كبيرا واثنين وخمسين مسجدا صغيرا وخمسا وخمسين مدرسة وسبعة معاهد لدراسة القرآن الكريم غير المستشفيات والمكتبات والكتاتيب. وظل السلاطين - بعد سليمان القانونى - يضيفون إلى جوامعه ومساجده جوامع ومساجد حتى لتكتظ إستانبول بها وبمآذنها الشامخة التى يتعالى عليها التكبير والدعوة إلى الصلاة فى الصباح والمساء، وإنها لتصعد فى السماء شادَّة الفكر إلى تأمل عميق فى الكون، تأمل يشرق

فيه لألاءُ الجلال الإلهى بكل روعته وعظمته.

وزار متحف أيا صوفيا، وكان كنيسة عتيقة أحالها محمد الفاتح إلى مسجد، وأحاله مصطفى كمال إلى متحف، وكان الفاتح قد أقام فى المسجد مئذنة، وأضيفت إليها ثلاث بعده، ولاتزال المآذن الأربع تتعالى مصعدة فى السماء، ولا تزال النقوش التى كتبت بأحرف يبلغ طولها بضعة أمتار، وقد نقشت بماء الذهب، ينبعث سناها من أعالى الجدران. وتتألق من بينها فى أركان أيا صوفيا أسماء الله جَلَّ جلاله ومحمد ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضوان الله عليهم أجمعين، ولفت صاحبى مُرافق تركى إلى ما على أسفل العمود المقابل لباب أيا صوفيا القديم من علامة محفورة كأنها علامة حافر وقال له: إن هذه العلامة ضربة حافر الفرس الذى دفعه راكبه السلطان محمد الفاتح بكل قوة لاقتحام كنيسة أيا صوفيا عقب اقتحامه لأسوار بيزنطة العتيقة.

وخصَّ يوما بزيارة قصر طوبقبى مسكن السلاطين العثمانيين منذ زمن محمد الفاتح إلى أواسط القرن التاسع عشر، وقد جعله مصطفى كمال متحفا لكل ما كانت تموج به قصور السلاطين العثمانيين وكل ما ملكوه هم ونساؤهم من

تحف ونفائس، وتكتظ بها وتزدحم غرف متعاقبة، وكل غرفة تبهرك بما بها من جواهر ولآلئ ويواقيت ودرر مفردة أو منتظمة فى عقود أو مرصعة على الأوانى والأطقم والنجف أو على بعض المقاعد والفرش. أما كرسى العرش فمن الذهب الخالص، وترصعه مئات من الحجارة الكريمة. وخُصِّصت غرفة للمصحف العثمانى وبعض المخلفات النبوية، وعلى الحيطان زخارف ورسوم بديعة وفى أعلاها استدارت أبيات منقوشة من بردة البوصيرى المشهورة فى مديح الرسول عليه السلام.

وفى يوم ثان شاهد قصر دولما بغشه الذى شيده السلطان عبد المجيد سنة ١٨٤٠ على الضفة الأوربية لمضيق البوسفور مواجها لمنطقة إسكودار على الضفة الآسيوية، وظل ينتقل من روعة إلى روعة منذ أشرف عليه لزيارته، ولفتته بركة أمامه بتماثيلها البديعة وما حولها من أزهار وورود ناضرة. وعلى باب القصر الضخم رأى جنديا تركيا لبس لأمة الحرب، وكأنه على وشك النزال فى معركة حامية الوطيس من معارك الترك فى البلقان، وظنه أول الأمر تمثالا قُدَّ من صخر، إذ لا تهتز منه يد ولا يتغضَّن له وجه ولا ترفّ عين ولا يتحرك جفن، ووقف أمامه صاحبى واجما، ومرَّت برهة

قصيرة، وإذا هو يضرب الأرض بقدميه متحركا إلى اليمين، وإذا زميل له مقبل ليحل محله وهو بنفس الهيئة، وكأنما يمثلان عزيمة الشعب التركى وصلابته الصخرية الصلدة التى ظلت لا تقهر قرونا متعاقبة إلى أن تجمعت عليها أوربا الغربية والشرقية، ومع ذلك لاتزال ذراعها ممتدة فى أوربا رمزا إلى بطولتها وقوتها العاتية.

ودخل القصر، بل المتحف الكبير، فكل ما به تحف ونفائس، وهو يموج بالأعمدة الرخامية، ويمشى الزائر فى ممر طويل إلى سلم رخامى يزينه أبسطة بديعة وخشب منقوش، ويفضى منه إلى ردهة واسعة يحف بها «درابزين» أعمدته من الكريستال البهيج، وسجاد الردهة موشىٌّ - كأكثر سجاجيد القصر - بخيوط ذهبية، وبها شمعدانات وزهريات بالغة الروعة، وعلى الأرض جلد دب ضخم أهداه إلى السلطان عبد المجيد نيقولا الثانى قيصر روسيا لعهده. وجميع حيطان القصر وسقوفه تزينها نقوش أغصان وأزهار وحيوانات وطيور شتى. ومن أروع القاعات قاعة السفراء ببابها المزخرف وسقفها المنقوش باللازورد وساعتها الذهبية المرصعة قوائمها بالجواهر وزهرياتها المرصعة باللآلئ.

ولا تقل عنها روعة قاعة العرش بأعمدتها الرخامية ونقوش حيطانها وسقوفها البديعة ونجفتها الضخمة التى أهداها أيضا نيقولا الثانى إلى السلطان عبد المجيد، وهى تحمل سبعمائة وخمسين لمبة، ويقال إنها تزن أربعة أطنان ونصفا. وبالقصر تحف كثيرة أهداها ملوك أوربا إلى السلاطين العثمانيين، وبينها ساعة بديعة أهداها خديو مصر عباس إلى السلطان عبد الحميد. وفى القصر غرف كانت خاصة بالحريم تموج بالطنافس والأرائك المذهبة. ويقال إن الإمبراطورة أوجينى زوجة نابليون الثالث نزلت فى غرفة من هذه الغرف لعهد السلطان عبد العزيز وظلت فيها عشرين يوما ثم انتقلت إلى قصر بيلربيى الذى بناه هذا السلطان مقابلا لقصر دولما بغشه على الضفة الآسيوية ومكثت فيه عشرين يوما أخرى. وفى ركن من أركان دولما بغشه رأى صاحبى الغرفة التى كان ينام بها أتاتورك حين كان يقدم من أنقرة إلى إستانبول وفيها صعدت روحه إلى بارئها فى العاشر من نوفمبر سنة ١٩٣٨ عن سبعة وخمسين عاما، ولاتزال الساعة الموضوعة على منضدة الغرفة تشير إلى لحظة وفاته، وهى التاسعة وخمس دقائق. والقصر بكل ما فيه رمز مجسد لمدينة إستانبول

العريقة ذات التاريخ الحافل المجيد.

وتملّى - مرارا وتكرارا - فى مقامه القصير بإستانبول بمشاهدها الطبيعية الخلابة على مرمرة وجانبى البوسفور، وهى مشاهد تأخذ بمجامع القلوب، ولاحظ أنه على الرغم من تكيف الحياة فى إستانبول على الطريقة الأوربية، لايزال فيها غير قليل من طوابعها القومية بسبب ما لها من تراث غنى عريق، ولفتته قبيل مبارحته لإستانبول مسلّة مصرية فى جانب أحد شوارعها نقلها العثمانيون قديما من مصر إلى عاصمتهم، ولاتزال واقفة أمام الجامع الأزرق الكبير بقامتها الهيفاء، وكأنما تريد أن ترحب - فى خفر واستحياء - بكل مصرى وافد على إستانبول.

وفى السنة التالية: ١٩٨٦ عُيِّن أستاذا متفرغا بآداب جامعة القاهرة. كليته التى تربّى فيها ناشئا، وحاضر بها طلاب قسم اللغة العربية شابا وكهلا وبعد الكهولة، ولكلية الآداب سحر يأسر قلوب أبنائها، وهو سحر حقيقى إذ يدرس الأساتذة لطلابهم التراث الحضارى الإنسانى بكل لآلئه وجواهره التى تشيع الحكمة فى العقول والبهجة فى النفوس. وإنها لمتعة فريدة، متعة دراسة هذا التراث وما يحتويه من

كنوز الآراء والأفكار وذخائر المشاعر والأحاسيس. وقد ظل يغدو ويروح إلى جانب من هذا التراث فى قسم اللغة العربية، مستغرقا فى دراسة آياته التى أبدعها أفذاذه بمختلف بلدانه على مر الحقب والأزمنة. وقصر نفسه على هذه الدراسة، ومع كل ما نَشر ودوَّن لا يستطيع أن يزعم أنه استقصى استقصاء وافيا دراسة الآثار الأدبية لأى عصر من العصور العربية الماضية ولا لأى إقليم عربى من أقاليم هذه العصور، لأنها أعظم وأكثر من أن يحيط بها إحاطة تامة أىُّ دارس مهما أنفق من السنوات ومهما تكلف من الجهد والمشقة. وإنه لحرىٌّ أن يتوفر لهذا التراث الأدبى العظيم أعداد ضخمة من الدارسين ينفقون أعمارهم فى دراسة روائعه وفرائده التى أنشأها أفذاذه وعباقرته طوال خمسة عشر قرنا. ولا تموج أركان كلية الآداب ومدرجاتها وغرفها بروائع التراث الأدبى العربى وحده فحسب، بل إنها تموج أيضا بروائع التراث الأدبى العالمى الغربى والشرقى من أقدم العصور إلى اليوم، مما يجعلها أشبه بمتحف ضخم، وهو متحف تُرَدُّ فيه الحياة إلى عصور أدبية ماضية بأكملها بكل من كانوا يعيشون فيها من الأدباء والمفكرين والفلاسفة العظام.

واغتبط أى اغتباط حين عاد - فى شيخوخته - إلى هذا المتحف، ليشارك فى دراسة آيات التراث الأدبى العربى الخالدة، التى سيظل العرب - إلى آخر الدهر - يستمدون منها غذاء الأرواح والقلوب والعقول، وأحسَّ كأنما تدفقت من جديد أثارة من دم الشباب الحار فى عروقه التى طالما نبضت به فى بواكير حياته الجامعية، ودخلت سنة ١٩٨٧ فانتخب عضوا عاملا فى المجمع العلمى المصرى أقدم الهيئات العلمية بمصر إذ تأسس بأخرة من القرن الثامن عشر، وظل منذ هذا التاريخ البعيد ينهض بخدمات جُلَّى للوطن وللمعرفة الإنسانية.

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

فى الدراسات القرآنية

* سورة الرحمن وسور قصار
  عرض ودراسة
  الطبعة الثانية ٤٠٤ صفحات

فى تاريخ الأدب العربى

* العصر الجاهلى
  الطبعة الحادية عشرة ٤٣٦ صفحة
* العصر الإسلامى
  الطبعة العاشرة ٤٦١ صفحة
* العصر العباسى الأول
  الطبعة التاسعة ٥٧٦ صفحة
* العصر العباسى الثانى
  الطبعة السادسة ٦٥٧ صفحة
* عصر الدول والإمارات (١)
  الجزيرة العربية - العراق - إيران
  الطبعة الثانية ٦٨٨ صفحة
* عصر الدول والإمارات (٢)
  مصر - الشام
  الطبعة الأولى ٨٤٨ صفحة

فى مكتبة الدراسات الأدبية

* الفن ومذاهبه فى الشعر العربى
  الطبعة العاشرة ٥٢٤ صفحة
* الفن ومذاهبه فى النثر العربى
  الطبعة العاشرة ٤٠٠ صفحة
* التطور والتجديد فى الشعر الأموى
  الطبعة السابعة ٣٤٠ صفحة
* دراسات فى الشعر العربى المعاصر
  الطبعة السابعة ٢٩٢ صفحة
* شوقى شاعر العصر الحديث
  الطبعة العاشرة ٢٨٦ صفحة
* الأدب العربى المعاصر فى مصر
  الطبعة الثامنة ٣٠٨ صفحات
* البارودى رائد الشعر الحديث
  الطبعة الرابعة ٢٣٢ صفحة
* الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية
  الطبعة الرابعة ٣٣٦ صفحة
* البحث الأدبى : طبيعته - ومناهجه - أصوله - مصادره
  الطبعة السادسة ٢٧٨ صفحة
* الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور
  الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة

فى الدراسات النقدية

* فى النقد الأدبى
  الطبعة السادسة ٢٥٠ صفحة
* فصول فى الشعر ونقده
  الطبعة الثانية ٣٦٨ صفحة

فى الدراسات البلاغية واللغوية

* البلاغة : تطور وتاريخ
  الطبعة السادسة ٣٨٠ صفحة
* المدارس النحوية
  الطبعة الخامسة ٣٧٦ صفحة
* تجديد النحو
  الطبعة الثانية ٢٨٢ صفحة
* تيسير النحو التعليمى قديمًا وحديثًا مع نهج تجديده
  الطبعة الأولى ٢٠٨ صفحة

فى مجموعة نوابغ الفكر العربى

* ابن زيدون
  الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة

فى مجموعة فنون الأدب العربى

* الرثاء
  الطبعة الثالثة ١١٢ صفحات
* المقامة
  الطبعة الخامسة ١٠٨ صفحة
* النقد
  الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة
* الترجمة الشخصية
  الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة
* الرحلات
  الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة

فى التراث المحقق

* المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد
  الجزء الأول - الطبعة الثالثة ٤٦٨ صفحة
  الجزء الثانى - الطبعة الثالثة ٥٧٢ صفحة
* كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد
  الطبعة الثانية ٧٨٨ صفحه
* كتاب الرد على النحاة
  الطبعة الثانية ١٥٠ صفحة
* الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر
  الطبعة الثانية ٣٥٦ صفحة

فى سلسلة اقرأ

* العقاد
  الطبعة الرابعة
* البطولة فى الشعر العربى
  الطبعة الثانية
* معى (١)
  الطبعة الثانية
* الفكاهة فى مصر
  الطبعة الثانية



رقم الإيداع	١٩٨٨ / ٣٥٠٨
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٢٤٧٤-X ISBN

١ / ٨٧ / ٢٦٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

